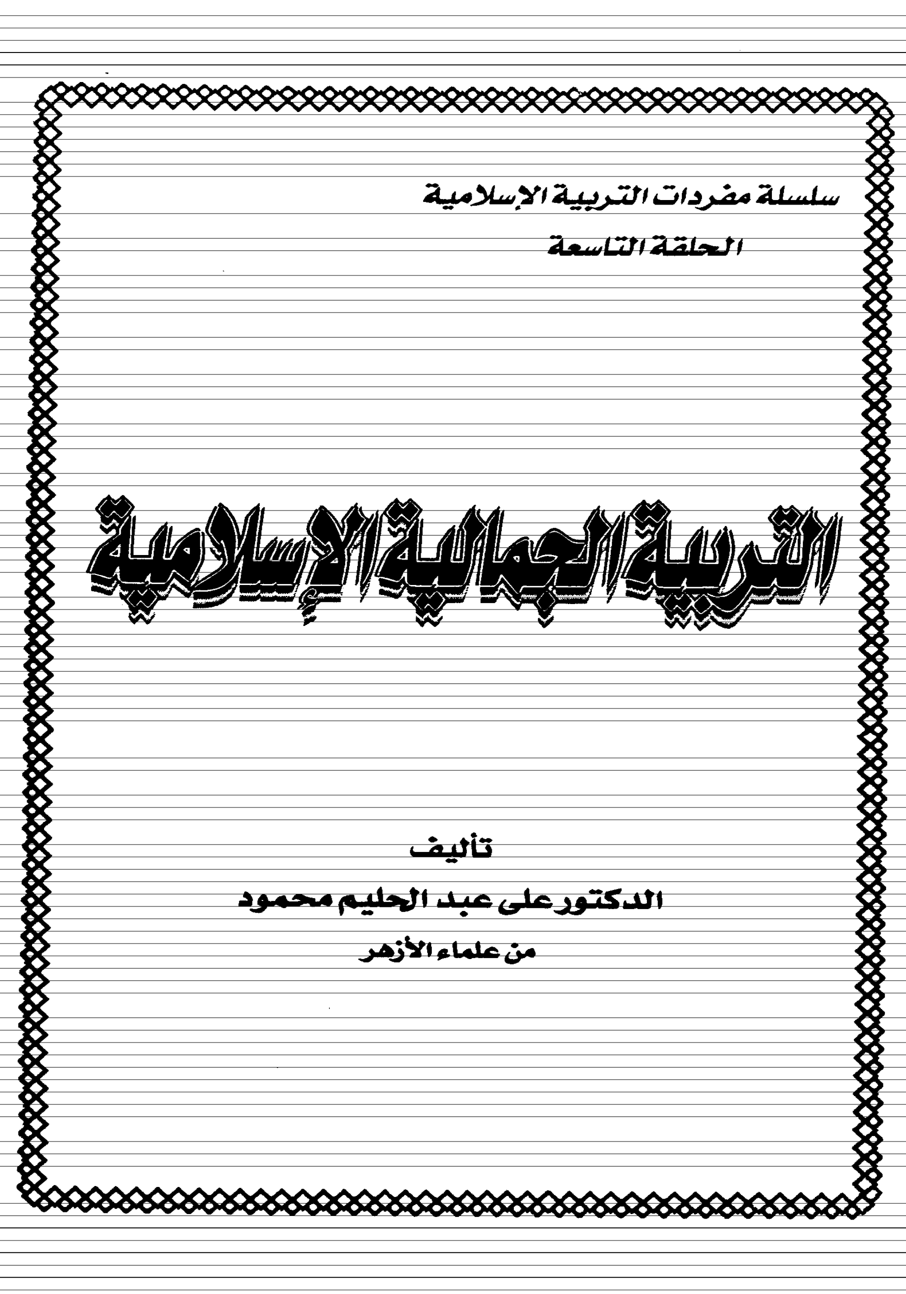


سلسلة مفردات التربية الإسلامية

الحلقة التاسعة

التربية الجمالية الإسلامية

تأليف

الدكتور على عبد الحليم محمود

من علماء الأزهر

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

رقم الإيداع: ٩٦٦٦ / ٢٠٠٣م

الترقيم الدولي: I.S.B.N.

977 - 265 - 450 - 4



مصر - القاهرة - السيدة زينب ص. ب ١٦٣٦

٢٥١ ش بورسعيد ت: ٣٩٠٠٥٧٢ - فاكس: ٢٩٢١٤٧٥

مكتبة السيدة: ٨ ميدان السيدة زينب ت: ٢٩١١٩٦١

www.eldaawa.com

email:info@eldaawa.com

إهداء

●● **إلى** الذين يعملون فى صمت ، ويحتسبون عند الله أجْر ما يقومون به من فكر وعمل فى تربية أنفسهم أولاً ، ثم ذويهم ، ثم فى تربية المسلمين ، متخذين من القرآن الكريم وسنة النبى ﷺ مصدراً ورافداً ؛ يمدهم بالقيم التربوية الصحيحة .

●● **وإلى** الذين يرغبون أن يعرفوا عن التربية الإسلامية ما لا يسع المُربِّىَ جهلُه .

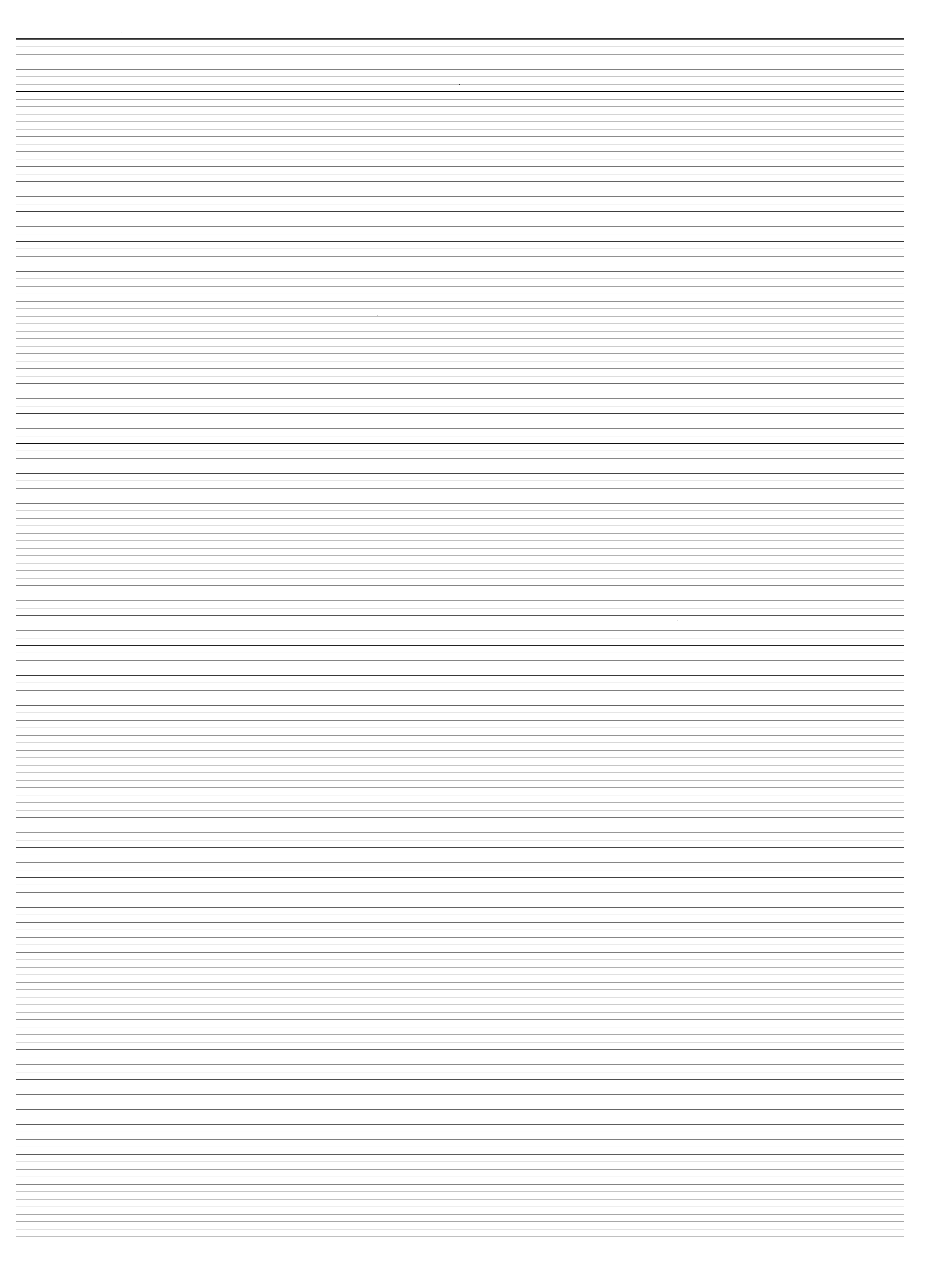
●● **وإلى** القائمين على المؤسسات التربوية الإسلامية الفاعلة : البيت ، والمسجد ، والمدرسة ، والنادى ، والجمعيات الأهلية المدنية ، وإلى القائمين على أمر التجمعات المهنية والعمالية ، فى المجتمع ، وإلى القائمين على شئون الأحزاب السياسية - إن وُجدتْ فى عالمنا العربى والإسلامى .

●● **إلى** هؤلاء جميعًا أهدى هذه السلسلة لعلهم يجدون فيها بعض ما يعينهم على القيام بواجبات مهامهم فى تلك المؤسسات .

وإليهم أهدى هذه الحلقة التاسعة من هذه السلسلة ، وهى : «**التربية الجمالية الإسلامية**» لعلهم يتذوقون الجمال الذى جاء به الإسلام فى كل ما يمارسه المسلم من قول وعمل فى حياته . من أجل أن تكون الحياة الإنسانية جميلة تحمل إلى الناس الحب والحق والخير والتسامح والسلام .

سائلاً الله تبارك وتعالى أن يلهمنى التوفيق والسداد

على عبد الحليم محمود



بين يدى هذه السلسلة

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على خاتم رسله محمد ﷺ المبعوث هدى ورحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن هذه السلسلة: «مفردات التربية الإسلامية» ذات الحلقات العشر؛ قد تفضَّل الله علىَّ فاتممّت منها بهذه الحلقة: «التربية الجمالية الإسلامية» كتابة تسع حلقات، ولم يبق منها إلاّ حلقة واحدة وهى: «التربية الجسدية الإسلامية»، أسأل الله تعالى أن يمنحنى من الأسباب ما يمكننى من كتابتها، حتى تستريح النفس ويستقر القلب، فأؤدى زكاة ما علمنى ربى، فأكون بفضله من الشاكرين لنعمة الله تعالى.

ومن المسلَّم به أن التربية الإسلامية أمل علماء المسلمين فى كل زمان ومكان، وهدف المصلحين المجددين لأمر الدين فى كل عصر ومصر، ووسيلة الدعاة إلى الله فى كل جيل من أجيالهم.

وإن التربية الإسلامية - عند من يعرفونها - موضع التقدير من علماء التربية، حتى لو كانوا من غير المسلمين، لأن من يعملون يدركون أن التربية الإسلامية أشمل أنواع التربية وأكملها، وأكثرها إحاطة بكل ما من شأنه أن يصلح الإنسان فى حاضره ومستقبله ومعاشه ومعاده.

- ومن أجل ذلك جاءت هذه السلسلة كلها، وكل مفردة من مفرداتها العشر تستهدف أهدافًا تربوية إسلامية ذكرتها أو ذكرت معظمها فى تقديم كل حلقة من حلقاتها، وأحب أن أذكر بها فى إيجاز ، فالذكرى تنفع المؤمنين.

وبما أذكر به:

- التأكيد على أن التربية الإسلامية فى عمومها، وفى خصوص كل مفردة من مفرداتها، عمل إسلامى رئيس وفاعل وضرورى لكل المسلمين، إذ بدونه لا يكون المسلمون على علم أو فهم أو عمل لما يطالبهم به هذا الدين الخاتم؛ وذلك أن التربية تَعَلُّم وعِلم وتعليم وعمل مصحوب بالإخلاص؛ وتلك هى مطالب الدين الخاتم والوفاء بها ينقذ الإنسانية

من ضلالها وحيرتها، إذ ينقلها من الشرك والكفر والضلال إلى الإيمان بالله والإسلام لمنهجه والاهتداء بهدْى خاتم رسله ﷺ.

– والتأكيد على أن الدين الإسلامي بوصفه خاتم الأديان وأكملها وأتمها وأرضاها لله تعالى؛ قد اشتمل على منهج تربوى متكامل لا يغنى بعضه عن بعض، ولا ينقصه شيء لكي يُصلح للإنسان في كل زمان ومكان كل جوانب حياته، الروحية والخلقية والعقلية والدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والجهادية والجمالية والجسدية؛ ليؤهله بذلك إلى النجاح والفلاح في دنياه وآخرته.

– والتأكيد على أن الدين الإسلامي بتربيته الشاملة المتكاملة للإنسان، لديه القدرة الفائقة من خلال هذه التربية على أن يحل كل مشكلة لها صلة بحياة الإنسان أيًا كان نوعها، وبالغًا ما بلغ مداها أو حجمها، أو تنوعها من مشكلات اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو غيرها، ما دامت هذه المشكلة تحول بين الإنسان، وأى حق من حقوقه، أو تلحق به أو بغيره من الناس أى ضرر، أى أن الإسلام بمنهجه هو الحل على الدوام.

– والتأكيد على أن التربية الإسلامية تعلّم الإنسان وتدربه على التعاون مع غيره من الناس على البر والتقوى، لا على الإثم والعدوان، وتعلمه أن يستمع إلى الرأى الآخر بل يحسن الاستماع إليه ويحاور صاحبه حتى يتبيَّن له الحق من الباطل والهدى من الضلال، فيلتزم الحق ويجتنب الباطل؛ لأن ذلك هو الذى يحقق للناس جميعًا الحق والخير والسلام والطمأنينة.

– والتأكيد على أن التربية الإسلامية قادرة في مجال تطبيقها والعمل وفق منهجها على أن تقدم للناس الخدمات الاجتماعية، مادية ومعنوية بسبب رؤيتها الصحيحة الدقيقة للتكافل الاجتماعى بين الناس؛ حيث ترى في مال الأغنياء حقًا للسائل والمحروم غير حق الزكاة بأنواعها؛ لأن الزكاة فريضة وركن من أركان الدين، والتكافل لسد حاجة الناس فيما لم تصل الزكاة لسدّه قُربة إلى الله تعالى.

– والتأكيد على أن التربية الإسلامية موجهة إلى الإنسان مهما كان لونه أو عرقه أو لغته أو الإقليم الذى يعيش فيه، لأنها ذات تَوَجّه إنسانى عام لا تعرف العنصرية التى يمارسها اليهود ولا العرقية ولا التفرقة اللونية التى يمارسها عدد كبير من دول أوروبا وفى مقدمتها: بريطانيا وفرنسا وإسبانيا وهولندا وبلجيكا وغيرها، ناهيك عن الولايات

المتحدة الأمريكية، إن هذه الدول تمارس التفرقة العنصرية مع أنها هى نفسها التى كتبت وثيقة حقوق الإنسان!!!

– والتأكيد على أن التربية الإسلامية لا تتوقف عن العمل حتى تصل إلى العالم كله دون خوف من أحد، لأنها تحمل الحق والخير للناس جميعًا، دون التوجس من الأعداء المتربصين؛ لأن أعداء الإسلام ومنهجه هم أعداء الحياة الإنسانية الآمنة، فهم صانعو الموت والدمار، ومصدروه وبائعوه فى صورة أسلحة فتاكة يربحون من الاتجار فيها وإن أبادت الناس!!!

– والتأكيد على أن كل مسلم من أهل البصيرة بالإسلام مطالب بأن يبلغ هذا الدين، وتلك التربية الكامنة فى منهجه إلى الناس الذين يتمكن من الوصول إليهم، ذلك واجبه إلى أن يلقى الله، وعليه أن يحتسب عند الله أجر كل ضرر يصيبه وهو يبلغ دين الله إلى عباد الله، ولا يخشى إلا الله، لأنه يبلغ الحق، والحق أبلج وأحق أن يُتَّبع، وأجدر أن يظهره الله تعالى ويعليه مهما امتد الزمان وترامت أبعاد المكان، ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١].

● إن الإسلام دين الحق والهدى والخير والتسامح وحسن التعامل مع الناس بل حسن الظن بهم، وإنه بذلك دين الإنسانية الراشدة.

– والتربية الإسلامية بكل مفرداتها هى التى تدعم هذه القيم وتخرجها من مجال الفكر والنظرية إلى مجال العمل والتطبيق لتنقذ البشرية كلها من أولئك الذين يتربصون بالإنسان الدوائر، محاولين أن يعودوا به إلى العبودية فى مجال السياسة والاقتصاد على وجه الخصوص تحت شعارات خادعة كثيرة فرغوها من محتواها لكثرة ما استعملوا فى تطبيقها المعايير المزدوجة.

– إن التربية الإسلامية من خلال مفرداتها تمكن الإنسان إذا أخذ بما تدعو إليه هذه المفردات من أن يقف بالمرصاد لأولئك الذين يريدون أن يحولوه إلى العبودية فى القرن الواحد والعشرين!!!

■■■■

بين يدىْ هذا الكتاب

هذا الكتاب : «التربية الجمالية الإسلامية» أريد أن أؤكد به أن دين الإسلام الخاتم قد عُنِىَ بجميع مفردات التربية الإنسانية حتى عُنِى بما يتصوره بعض الناس ثانويًا أو كماليًا فى تربية الإنسان وهو: التربية الجمالية؛ إِذْ هى من حاجات الإنسان وليست من كماليات حياته.

التربية الجمالية - فى إيجاز سوف يبسطه الكتاب - هى: الإحساس بالجمال، وتقدير الشيء الجميل أو القول الجميل أو العمل الجميل، ثم صُنْع الجمال وبثه فى حياة الإنسان لكى تصبح الحياة الإنسانية جميلة خالية من القبح، متصلة بالحق مفعمة بالخير، متآلفة متعاطفة، لا تنافر بين مفرداتها، وكل ذلك بل أكثر منه - مما سوف نوضحه فى ثنايا الكتاب - يفهم من كلام الرسول الخاتم ﷺ فيما رواه مسلم بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله جميل يحب الجمال»**.

التربية الجمالية بهذا المعنى الوجيز مطلب إسلامى رئيس - لا يقل أهمية عن تربية الروح والخلق والعقل والجسد، والحِسِّ الدينى والاجتماعى والسياسى والاقتصادى، وبث روح الجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا، أى سائر مفردات التربية الإسلامية.

- إن التربية الجمالية الإسلامية - كما سيوضح هذا الكتاب - تُكوِّن لدى المسلم وعْيًا جماليًا يتناول نفسه وما يحيط به من مخلوقات الله تعالى، ثم يرقى هذا الوعى فيصبح إدراكًا جماليًا لنفس الإنسان ولما يحيط به، ثم بعد هذا الوعى والإدراك يتهيأ للإنسان أن يعبِّر عن هذا الجمال باللغة أو بإحدى وسائل التعبير التى يرغب فى التعبير بها، لكى يصل إلى الغايات الجمالية فى الحياة الإنسانية، وهى إحداث التلاؤم فى حياة الإنسان ليحقق بهذا التلاؤم السعادة فى دنياه وآخرته.

- والتربية الجمالية قادرة على إحداث هذا التلاؤم فى حياة الإنسان دون مبالغة فى شيء أو توهين من أمر شيء، بل العدل بين كل متقابلين فى حياته، وأبرز ما تنازع فيه المفكرون فبالغ بعضهم وغالى بعضهم هو التقابل بين الذات والموضوع الذى بالغوا فيه، فمنهم من غالَى فى الذات فأعطاها أكثر مما تستحق، ومنهم من غالَى فى الموضوع فمنحه أكثر مما يجب أن يعطى، فجاءت التربية الجمالية لتحدث الوئام بين الذات والموضوع بإدراك

الجمال فى هذا وذاك، وإدراك الجمال بعد وعيه هو نتيجة للتربية الجمالية كما قلنا آنفًا؛ لأن التربية الجمالية تهيىء للإنسان القدرة على الإحساس بالحب لكل ما هو جميل من مخلوقات الله تعالى، وتوجيه هذا الحب نحو ما ينبغى أن يوظف فيه، كما تهيىء له الإحساس بالبغض لكل ما هو قبيح يحمل الشر، وتوجيه هذا البغض نحو ما ينبغى أن يوظف فيه كذلك.

- ومن وظائف التربية الجمالية أن تُنشِّط فى الإنسان قدراته الفكرية والعاطفية، وتحفِّزهما على العمل، بل إن التربية الجمالية هى التى تقدم الغذاء والزاد للفكر والعاطفة، إذْ تزيدهما قدرة على الوعى والإدراك والتجاوب مع الناس والأشياء والأحداث تجاوبًا يستهدف الحق والخيْر، وينفى الباطل والشر.

- ومن وظائف التربية الجمالية أنها تدعم القيم الدينية فى الإنسان وفى المجتمع؛ بما تمد به الإنسان من حافز على الوعى والإدراك أى الفكر والعاطفة، ولا حياة آمنة مستقرة للإنسان أو للمجتمع إلا مع القيم الدينية، وهذه القيم الدينية لا تعبر عن نفسها إلا من خلال الفكر والعاطفة أى الإحساس بالجمال وصُنْعه، وهذا الإحساس بالجمال تولده التربية الجمالية، وهو فى الوقت نفسه مما يغذى الفكر والعاطفة.

- ومن وظائف التربية الجمالية أنها تعين الإنسان على الرؤية النظرية التى يكونها الإنسان عن طريق العلم بعد إعمال العقل وتحريره من الوهم والخرافة والمسلَّمات الساذجة؛ إذْ هى رافد ثَرٌّ من روافد الفكر وغذاء له كما قدمنا.

- ومن وظائفها أنها تعين الإنسان على أن ينتهج السلوك العملى عن طريق الأخلاق عمومًا؛ الفاضل منها الذى أمر الله بالتحلى به، والراذل منها الذى أمر الله بالتَّخلِّى عنه، إذا الإحساس بالجمال ييسر للإنسان كيف يخـ ـر من الأخلاق ما يتفق مع الحق والخير، وينبذ ما يدعو إلى الباطل والشر؛ لأن الله تعالى أمر بهذا ونهى عن ذاك، فهى تعين على الالتزام بالأمر واجتناب ما نُهى عنه.

- **والتربية الجمالية الإسلامية تقوم على ركيزتين:**

إحداهما: التأمل والتدبر والبحث المجرد فى الجمال بوصفه نعمة من نعم الله تعالى، يمنحها لما شاء من مخلوقاته كالسماء والأرض والهواء والماء، والجماد والنبات والحيوان والإنسان، فهذه المخلوقات جميعًا فيها جمال، وعلى الإنسان أن يتأمل هذا الجمال تأملاً يولد فى نفسه تقديرًا وحبًا للجمال، وشكرًا لله تعالى على أن منح الجمال وأنعم به على

مخلوقاته فاضفى به على حياة الإنسان بهجة وسروراً، ما كان الإنسان ليحس بهما دون هذا الجمال.

– وإن هذا التأمل والتدبر فى الجمال، يزيد الإنسان إيمانًا بالله، وقربًا منه لأنه سبحانه هو واهب الجمال، ويزيده تعمقًا فى عبادة الله من خلال هذا التأمل والتدبر.

● إن البحث عن الجمال فى مخلوقات الله تعالى ركيزة تقوم عليها التربية الجمالية الإسلامية، وإهمال البحث عن الجمال انغلاق عن الحياة الإنسانية وعما فيها من جمال، وهو فى الوقت نفسه مخالفة لما أمر الله به من السير فى الأرض وتدبر ما فى خلق الله تعالى من دلائل ألوهيته وربوبيته وإحسانه لكل ما خلق، وحكمته فيما خلق، ليكون الإيمان به أرسخ وأقوى.

– إن الله تعالى خلق كل مخلوقاته على قدر من الجمال ليعلمنا أن نمارس القول الجميل والعمل الجميل، فقد جعل سبحانه وتعالى الأرض تأخذ زخرفها وتتزين، وما هذا إلا جمال، وبنى السماء وزينها للناظرين، بل أخرج لعبادة زينة فى خلْقهم ومسكنهم وملبسهم وفى مأكلهم وما يركبون وجعل فى كل ذلك جمالاً وزينة.

– وإذا كانت كل مخلوقات الله تعالى فيها مسحة من جمال، فإن الإنسان أكرم مخلوقات الله لابد أن يمنحه الله من الجمال ما يناسب مكانته عنده سبحانه، فمن المنطقى أن يكون فى الإنسان أرْقَى وأعمق وأشمل ما وصل إليه الجمال فى مخلوقات الله، وقد كان ذلك كذلك، فشَكْل الإنسان وقامته ووجهه، فيها من الجمال ما فيها، وأما باطن الإنسان وداخله، وما أنعم الله به عليه من عقل ومشاعر وأحاسيس فهى قمة الجمال فى الإنسان لو أحسن استعمال هذه النعم فيما فطرها الله عليه، بل ما أجمل هذا التناسق والتعاون بين أجزاء الإنسان وأجهزته لكى يمارس الحياة !!!.

ما أجمل الإنسان الذى خلقه الله فى أحسن تقويم ونفخ فيه من روحه، وسوَّاه وعدله، وفى أحسن صورة ركبه.

إن كل هذا الجمال فى الإنسان يدعوه لأن يقدِّر الجمال ويحاول الاتصاف به فى مسكنه وملبسه ومطعمه ومشربه ومغداه ورواحه.

● **والركيزة الأخرى التى تقوم عليها التربية الجمالية هى:**

الاستجابة لما أمر الله به أو ندب إليه، والاجتناب لما نهى الله عنه أو كرّه فيه، فى مجال

التعامل مع الواقع الجمالي في الناس وسائر المخلوقات، وتلك الاستجابة طاعة لله تعالى، وعبادة له ما دامت في الإطار الذي شرعه الله تعالى، أو هي معصية لله وكفر به وبنعمه إذا كانت في الإطار الذي حرمه، والخلق الحسن من الجمال، والخلق السَّيِّيء من القبح، فقد روى الطبراني في الأوسط بسنده عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله تعالى جميل يحب الجمال، ويحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها»**.

- وهذه الاستجابة لأمر الله ونهيه من معالي الأخلاق بلا شك، وتقدير الأخلاق الحسنة عند الناس نظر جمالي إلى هذه الأخلاق، وشكر الله على نعمة الأخلاق الحسنة دليل على أن هذا الشاكر قد أحسَّ بما في هذه الأخلاق الحسنة من جمال وقدَّرها حق قدرها.

● إن الاستجابة لما تستهدفه التربية الجمالية استجابة لما أمر به الدين لأنها مفردة من مفردات التربية الإسلامية، وجزء من منهجه ونظامه، ومنهج الإسلام كلٌّ لا يتجزأ، ولا يجوز لمسلم أن يؤمن ببعضه ويكفر ببعضه، أو يستجيب لبعضه دون بعضه، لأن المنهج كله تتعاون أجزاؤه ومفرداته على أن يصحح للإنسان نظرته إلى نفسه وإلى غيره، بل إلى الوجود كله غيبه وشهادته، ولا تصح هذه النظرة حتى تتخلص من الشوائب كلها، شوائب الوهم والخرافة والضلال والانحراف عن الصراط السَّوِيّ، وإذا أدت التربية الجمالية الإسلامية إلى ذلك يصبح الإنسان مدركًا للجمال الذي أودعه الله تعالى في مخلوقاته شاكرًا لأنعم الله تعالى.

● ولا يتم الإحساس بالجمال في مخلوقات الله تعالى وشكره على نعمه؛ إلا بأن يحس الإنسان بالقبح والقبيح، يفر منه ويكرهه لما يحويه من باطل وشر، ويشكر الله تعالى على أن هداه للنفور من القبح والقبيح، لأن القبح مناقض للجمال وهو مذموم عند الله تعالى وعند الناس، ويستوجب ذم صاحبه في الدنيا وعقابه في الآخرة.

- إن التربية الجمالية الإسلامية تقوم على حب الجمال والاتصاف به، كما تقوم على بغض القبح والبعد عنه، بل نفيه في كل مجال يوجد فيه، في العبوس وفي الكلمة وفي العمل وفي كل شيء.

إنها تربية تجعل المجتمع حافلاً بالجمال زاخراً بالسعادة، قادراً على بث روح التفاؤل والجمال بين الناس جميعًا.

المدخل إلى هذا الكتاب

يتناول هذا المدخل، تحديد المفهوم اللغوى للجمال، وإلقاء ضوء على المفهوم العام للجمال، والتعريف ببعض مصطلحات الجمال والجمالية والفن ومذاهبهما.

أولاً : المفهوم اللغوى للجمال :

الجيم والميم واللام؛ أصلان :

أحدهما : تجمُّع، وعِظَم خَلْق، ويجوز أن يكون الجَمَل من هذا؛ لعظم خلقه.

والآخر : الحُسْن وهو ضد القبح.

قال ابن قتيبة : أصله من الجميل وهو : الشحم المذاب.

ويراد به أنّ ماء السِّمَن يجرى فى وجهه (١).

– والجمال : الحُسْن فى الخَلْق وفى الخُلُق، ومن هذا المعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ [النحل : ٦].

أى لكم فيها بهاء وحسن.

ويجوز أن يكون الجَملَ قد سمى بذلك لأنهم كانوا يعدون ذلك جمالاً لهم.

– والجملاء : الجميلة من النساء، وأنشد الكسائى :

فهى جملاءُ كبدرٍ طالعٍ ... بذَّتْ الخَلْق جميعًا بالجمال

– وتجمَّل : تزيَّن.

– وتجمل : أكل الشحم المذاب – وهوالجميل– ومنه قول امرأة لبنتها : تجمَّلى وتعفّفى أى : كلى الشحم واشربى العفافة وهى ما بقى فى الضرع.

– وجامله : أحسن عشرته وعامله بالجميل، ويقال : عليك بالمداراة والمجاملة.

– وجامله : أى لم يُصْفه الإخاء، بل ماسحه بالجميل.

– وجمالَك : أى لا تفعل كذا، بل الزم الأمر الأجمل ولا تفعل ذلك.

---

(١) ابن فارس : معجم مقاييس اللغة : تحقيق عبد السلام هارون.

ـ وجَمَّل الشحم: أذابه ومنه الحديث النبوى: «**لعن الله اليهود حرمتْ عليهم الشحوم فجمَّلوها وباعوها**» أى أذابوها.

ـ وأجمل الصنعة: حسنها وكثرها.

ـ وأجمل فى الطلب: أى اتَّأد واعتدل فلم يفرط، وفى الحديث: «**أجملوا فى طلب الرزق فإن كلاً ميسر لما خلق له**».

ـ وأجملَ الشىءَ: جمعه عن تفرقة.

ـ وأجمل الحساب والكلام: ردّه إلى الجملة ثم فصَّله وبيّنه.

ـ وجمَّله: زيَّنه، ومنه قولهم: إذا لم يزينك مالك لم يجد عليك جمالك.

ـ والتجمُّل: تكلف الجميل، قالوا: إذا أُصِبْت بنائبة فتجمل، أى تصبر.

■■■■

ثانيًا: المفهوم العام للجمال

بعد أن اطلعت على عدد من الموسوعات وبعض دوائر المعارف، وعلى كثير من الكتب والدراسات ذات الصلة بموضوع الجمال، أمكنني أن أعثر على عدد من المفاهيم التي يدل عليها الجمال، فآثرت أن أسردها جميعًا معترفًا بأني لم أستوعب ولم أصل إلى كل ما قيل في المفهوم العام للجمال.

وتلك هي المفاهيم العامة للجمال:

– الجمال هو: رمز الكمال الإلهي.

– أو هو: التعبير عن المثاليّ من كل شيء، فكل شيء مثالي أو أنموذجي فهو جميل.

– الجمال هو: الحق، أو المظهر المحسوس للخير.

– أو هو: الحُسْن في الخَلْق والخُلُق.

– أو هو: الحُسْن الكثير، وذلك ضربان:

أحدهما: جمال يختص الإنسان به في نفسه أو بدنه أو فِعْله.

والآخر: ما يوصل منه إلى غيره.

والجمال على هذا التفسير هو مطابق لما روى عن النبي ﷺ أنه قال: **«إن الله جميل يحب الجمال»** تنبيهًا على أن الخيرات كلها تفيض من الله تعالى؛ فهو المختص بذلك.

– أو هو: الصدق والواقعية.

– أو هو: نوع من القيمة، والقيمة: كل ما يعتبر جديرًا باهتمام الفرد وعنايته ونشدانه لاعتبارات دينية أو اجتماعية، أو نفسية، أو اقتصادية.

والقيم الجمالية هي التي توضح الجميل والقبيح، وتحدد معايير الجمال والقبح، وتبين متى تكون الفنون جميلة ومتى تكون غير ذلك.

– والجمال: قيمة عالية إيجابية تستطيع أن تضم جميع القيم الإنسانية.

– أو هو: قيمة إيجابية نابعة من طبيعة الشيء، جعلنا نحن عليها وجودًا موضوعيًا، أي أن قيمة الجمال في ذاته.

- أو هو: خير مطلق، يرضى وظيفة طبيعية، أو حاجة أو ملكة جوهرية فى العقل البشرى.

- والجمال: له وظيفة لم يختلف عليها الباحثون هى: «المنفعة» أى الإحساس بالسعادة أوالرضا.

- أو هو: الذى يستطيع أن يحول اللذة بالشىء إلى موضوع.

- أو هو: ما يتعلق بالرضا واللطف من سائر الصفات.

- أو هو: ما يحبب الحياة للناس، لأنه يظهرها لهم فى صورة تبعث فى نفوسهم الرجاء فيها والاغتباط بها.

- والجمال هو: التناسب بين أجزاء الشىء أو الإنسان الجميل.

- أو هو: يُعتبر موضوعًا كامنًا فى الشىء الجميل نفسه.

أو هو: مرهون بالإدراك الذاتى عند الإنسان الذى يدرك الجمال.

- والجمال هو: الذى لا يوصف به شىء أو أحد من الناس إلا ويجد الناس قد أقبلوا عليه وأحبوه وسعدوا بالقرب منه.

- والجمال: توصف به الفنون جميعًا؛ وذلك أن الفن إبداع وتعبير عن جميل، وتعبير عن إحساس المبدع نحو ما تأثر به ورآه من زاوية جميلة، ولذلك جاز أن توصف الفنون كلها بانها: «الفنون الجميلة».

وهذه الفنون الجميلة تعتبر ضرورية على مستوى الأمة، وإن كانت كمالية على مستوى الفرد.

- والجمال هو: الحرية عند بعض المفكرين.

● وعملاً بالحكمة التى تقول: «بضدها تتميز الأشياء» نرى من الضرورى أن نوضح مفهوم القبح الذى هو ضد الجمال، فنقول:

- القبح: ضد الجمال والحُسْن.

- والقبيح: ضد الجميل والحَسَن.

- والقبيح هو: ما نفر منه الذوق السوى.

- والقبيح هو: من اتصف بصفة يكرهها الشرع ويرفضها العرف.

- والقبيح من الأشياء والصفات والناس هو : ما يكون متعلق الذم فى الدنيا ومتعلق العقاب فى الآخرة.

- والقبيح هو : ما ينبو عنه البصر من الأعيان، وما تنبو عنه النفس من الأعمال والأحوال.

- والمقبوح من الناس هو : الموصوف بحالة منكرة، إشارة إلى ما وصف الله تعالى به الكفار من الرجاسة والنجاسة فى الدنيا وما وصفهم به فى الآخرة من سواد الوجوه وزرقة العيون، وسحبهم بالسلاسل والأغلال، كما يفهم ذلك من قوله تعالى : ﴿ ... **وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ** ﴾ [القصص : ٤٢].

■■■■

ثالثا: التعريف ببعض المصطلحات

نُعرِّف بهذه المصطلحات من وجهة نظر فلسفية، لما بين الجمال والفلسفة من ارتباط وثيق منذ أقدم العصور فى تاريخ الفلسفة، وعلى أيدى مشاهيرها، وبخاصة «أفلاطون» (٤٢٧ – ٣٤٧ ق.م) وإلى فلاسفة العصر الذى نعيشه الآن حيث يجد الجمال والجمالية وعلم الجمال ونظريته وقيمه وما يحدثه من لذة اهتماماً كبيراً – كما سنوضح ذلك فى الباب الأول من هذا الكتاب تحت عنوان: «الجمال والفن قديماً وحديثاً».

وتعريفنا بالمصطلح إنما يكون بإلقاء ضوء على مفهومه يكفى لإزالة الغموض ورفع الالتباس، وسوف نختار المصطلحات التى لها صلة بالجمال وعلمه ونظريته وقيمه، تاركين الاستقصاء لهذه المصطلحات لمن يكتبون فى الجمال، أما نحن فنكتب فى التربية الجمالية لا الجمال.

● ومن هذه المصطلحات التى عالجت الفلسفة توضيح مفهومها؛ ما اخترنا منه هذه المصطلحات:

١ – الجمال:

من المنظور الفلسفى لكلمة الجمال ومفهومها نجد الفلاسفة يؤكدون تعلق الإنسان بالجمال منذ زمن قديم يسبق عصور الفلسفة، أى فى زمن الحضارات القديمة.

– ففى الحضارة اليونانية «الإغريقية» كان اليونانيون يقدسون مظاهر الجمال فى: الفن، وفى الطبيعة، ويتخيلون لكل جميل فى الفن أو فى الطبيعة إلهًا يعبدونه ويقدمون إليه القرابين إجلالاً له، حتى تعددت عندهم الآلهة التى تصوروا أنها تسكن فى جبل الأولمب».

– والجمال، أو الإحساس بالجمال بوصفه شعوراً يشعر به الإنسان نحو الطبيعة، كان سابقًا على إحساسه بجمال الفن، وفى كلا المظهرين للجمال كان إحساس الإنسان نحوه تابعًا لعمل حواسّه السمعية والبصرية واللمسية... فكان الجمال شعوراً بالراحة واللذة نحو الشىء الجميل.

غير أن تاريخ الجمال له أحاديث ضافية ليس من غرضنا أن نتحدث عنها فى هذا الكتاب.

٢- الجلال :

الجلال : مصدر للفعل : جلَّ أى عظم وكبر، والجليل : اسم من أسماء الله تعالى .

- وفى الفلسفة : الجلال هو الموضوع الأول للجمال .

ويقول «أدموند بورك (١٧٥٧م)» : «إن الشعور بالجلال يتولد من مشاهدة المرء ما يروعه، والأشياء التى تروع الإنسان هى التى يتوفر فيها قسط كبير من العظمة والفخامة» .

وكذلك فعل «كانت» (١٧٩٠م) فى التفريق بين الجمال والجلال .

- وإذا كان الجمال من الصفات هو ما يتعلق بالرضا واللطف؛ فإن الجلال من الصفات هو ما يتعلق بالقهر والغضب .

والجليل فى علم الفلسفة هو : ما جاوز الحد من نواحى الفن والفكر والأخلاق .

- ويقول الفيلسوف محيى الدين بن عربى الملقَّب بالشيخ الأكبر : (٥٦٠- ٦٣٨هـ) فى كتابه : «الجلال والجمال» : «الجمال والجلال وصفان لله تعالى، فالجمال ظاهرة الرحمة والجلال ظاهرة القهر الإلهى»[١] .

٣- الجمالية :

مصطلح يعنى توضيح ما يتصل بالجمال الفنى دون الجمال الطبيعى . ويستهدف كشف الجمال فى العمل الفنى .

- والجمالية وظيفتها الربط بين الممكن والمعقول - وتلك من المعرفة العقلية - والإنتاج الفنى، والجمالية بعيدة عن النقد الفنى ووظيفته .

- يمكن أن تُعرَّف الجمالية بأنها : «علم الفن أو فلسفة الفنّ» .

- ومما كان سائداً ومعروفًا أن النظرية الجمالية محكومة بوهم مؤداه أنها نهائية، ولكن الحقيقية غير ذلك؛ لأن التفلسف حول الجمال والجميل من شأنه أن يوسع مدارك النظر، فلا تصبح نظرية من النظريات نهائية .

---

(١) قيل عن محيى الدين بن عربى الفيلسوف المتكلم ما قيل من مدح فى علمه ومعرفته وكثير من كتبه أو قدح لشطحاته عندما جاء إلى مصر فاحفظ علماءها فاغروا به الحاكم فحبسه ثم خلصه من سجنه على بن فتح البجائى بمسعاةٍ منه فنجا وسافر إلى دمشق واستقر بها وتوفى فيها .

- وقد تناول أصحاب الفلسفة النقدية الحديثة موضوع الجمالية والجماليات فكانت لهم رؤى عديدة، من أراد أن يعرف كثيراً عنها، فليقرأ ما قاله فيها:

- «عمانويل كانت» (١٧٢٤ - ١٨٠٤م).
- «هيجل» (١٧٧٠ - ١٨٣١م).
- «شوبنهور» (١٧٨٨ - ١٨٦٠م).
- «نيتشه» (١٨٤٤ - ١٩٠٠م).

- ولقد ظل للفلسفة اهتمام بتوضيح معنى الجمالية، حتى منتصف القرن العشرين الميلادى، مما يؤكد أن من سبقوهم فى الحديث عن الجمالية لم يكتمل بالنسبة لهم، ومن أردا معرفة ذلك فليقرأ فى ذلك ما كتبه:

- «هنرى برجسون» (١٨٥٩ - ١٩٤١م).
- «ريمون باير» (١٨٥٩ - ١٩٥٩م).
- «أندريه مالرو» (١٩٠١ - ١٩٧٦م).

٤- علم الجمال:

هو علم يعنى بدراسة طبيعة الجمال، ودراسة الفن، ودراسة المبادئ التى يقوم عليها التعبير الفنى من خلال وسائله المتعددة.

- تلك كانت بداية الحديث عن علم الجمال، أى البحث فى فلسفة الجمال متمثلاً فى الفن والقيم الفنية التى تحكم التعبير من جانب، وتثير فى الناس الإحساس بالجمال من جانب آخر، وبذلك يمكن اعتبار علم الجمال فرعًا من فروع الفلسفة.

- وفى مرحلة تالية أخذ علم الجمال فى الابتعاد عن الفلسفة نوعًا من الابتعاد؛ وذلك عندما أخذ يهتم بدراسة الأعمال الفنية، والاهتمام بعمليات الإنتاج الفنى، وبمظاهر الفن وأشكاله وأنواعه.

- وعلى الرغم من هذا التباعد بين علم الجمال والفلسفة؛ فإن الفيلسوف لا يستطيع أن يتجاهل الفن والفنان، ولا الفنان يستطيع أن يظل بعيداً عن الفلسفة.

- وقد اشتهرت فى علم الجمال مدرستان:

إحداهما: تقوم على جعل الجمال موضوعيًا أى كائنًا مستقرًا فى الشيء الجميل نفسه.

والأخرى: تقوم على جعل الجمال مرهونًا بالإدراك الذاتى عند الإنسان الذى يدرك هذا الجمال.

٥ – نظرية الجمال:

النظرية – كما هو معروف عند العلماء – هى: إطار فكرى يفسِّر مجموعة من الفروض العلمية، ويضعها فى نسقٍ علمى مترابط، وتظل النظرية دائمًا أقل تأكيداً من القانون العلمى، لأنها تحتاج دائمًا إلى تطوير وتغيير على مر الزمان واختلاف المكان.

– وبناء النظرية يحتاج إلى جهد عقلى تركيبى وإلى نظرة كليّة إلى الحقائق الجزئية، مع تنظيم الأجزاء فى نطاق موحد، والنظرية بهذه الصفات من أعلى مستويات المعرفة، ولا يمنع ذلك من دعوة إلى تطويرٍ وتغييرٍ كلما تقدم العلم واتسعت آفاقه.

– ونظرية الجمال تقوم على استجماع عناصر بعينها فى الشىء من أجل أن يكون جميلا، فيصبح مثالاً للجمال.

– وهذه العناصر أو الأجزاء التى تقوم عليها نظرية الجمال هى:

- معنى الجمال وموضوعه.
- والمواد التى يتكون منها الجمال.
- والهدف الذى يستهدفه الجمال.
- وطريقة التعبير عنه.

من مجموع ذلك تتكون نظرية الجمال – فى تصورنا من خلال ما أتيح لنا من قراءة وإعادة قراءة – وبهذا نقول: إن نظرية الجمال لا تختلف من زمان إلى آخر، ولا من مكان إلى غيره، بل لا تختلف أمام قيم خلقية أو نفعية مع ما بين الجمال وتلك القيم من فروق معروفة.

٦ – القيم الجمالية:

القيم الجمالية هى التى تتضمن أحكامًا جمالية إيجابية – كما أوضحنا ذلك آنفًا وكما سنزيده إيضاحا فى هذا الباب الأول من الكتاب – أى أن القيم الجمالية ينبغى أن تنطوى دائمًا على إدراك ما هو خير.

- والأحكام الجمالية تنبع بالضرورة من موضوع الجمال، ومن طبيعة التجربة المباشرة.
- والقيم الجمالية تقابل القيم الخلقية؛ لأن القيم الخلقية تهتم بإدراك ما هو شر ليجتنب الناس الوقوع فيه والهروب منه، بينما القيم الجمالية لا تعنى بتوضيح الشرور ولا بكيفية الهروب منها.
- والقيم الجمالية لا تستهدف المنفعة التى تحدث للفرد عندما يدرك الجمال، بينما القيم الخلقية - فى جانبها الإيجابى - تستهدف المنفعة والفائدة التى تترتب على التجربة.
- وإذا كانت القيم الخلقية تقيد السلوك الإنسانى فى حدود ما يجب أن يمارسه الإنسان من أنواع السلوك، وما يجب أن يجانبه من أنواع الشر، لكى يعيش آمنًا سعيدًا؛ فإن القيم الجمالية لا تعتنى بقضية الخير والشر، وإنما عنايتها واهتمامها بالإحساس بجمال الطبيعة، وجمال الناس والأشياء، وما يمكن أن يحققه ذلك من سعادة.

٧ - اللذة الجمالية:

هى لذة معنوية تقابل اللذة المادية أو الحسية، وكل منهما من القيم الإيجابية الذاتية.

- واللذة الجمالية تعتمد على نشاط الحواس من عين وأذن وذوق وشم ولمس، كما تعتمد على الذاكرة، وما تختزنه، وعلى جميع التصورات الذهنية، بينما ترتبط اللذة المادية الحسية بشكل مباشر بجسد الإنسان وما فيه من شهوات أولاً، ثم بصور الوعى والإدراك من بعد ذلك.
- ومعنى ذلك أن اللذة الجمالية لا ترتبط بالضرورة باللذة الجسدية للإنسان بقدر ما ترتبط بالروح والعقل والسّمُو والتحليق بحرية فى أبعاد المكان وأمداء الزمان.
- وفى اللذات المادية يُشبع الإنسان حواسه وانفعالاته ورغباته، ولكن الإنسان يجد فى اللذة الجمالية سموًا على الذات وسعادة بالإحساس بالخير من غير حرص على امتلاك لما يحرك لذته، أى أن اللذة الجمالية تتنزه عن الهوى الشخصى، لأنها تقوم على التأمل وما يستتبعه التأمل من متعة.
- واللذة الجمالية عامة شاملة يستطيع كل إنسان أن يحس بها، فى حين أن اللذة المادية شخصية لا يحس بها الإنسان إلا إذا تعرض لها.

ومعنى ذلك أن اللذة الجمالية ليس ضروريًا أن يدركها كل أحد، وإنما ينبغى أن يدركها

من يعلم ما لها من صلة بموضوع الجمال؛ لأن الجمال فى جوهره له وجود موضوعى؛ فالجمال لذة إيجابية نابعة من طبيعة الشىء الذى يضفى عليه الإنسان وجوداً موضوعياً.

– وعلى فرض أننا استبعدنا من الحياة الإنسانية كل ما فيها من شرور – كما تخيل ذلك بعض المفكرين – فإنه لن يبقى فى الحياة حينئذ إلا اللذات الجمالية، لما تحققه من سعادة خالصة.

٨ – الفن:

الفن مصطلح له تعريفات عديدة منها:

– أنه: العمل الذى يتميز بالصنعة والمهارة.

– أو هو: إنتاج جمالى ينتجه الإنسان الواعى، ويضيفه إلى الطبيعة.

– أو هو: تلك المناشط الإنسانية التى تميل إلى التوجه صوب النزعة الجمالية.

– أو هو: الفنون الجميلة كلها.

إلى غير ذلك من التعريفات.

ويمكن أن يستخلص تعريف للفن من النقاط التالية:

- يتكون الفن من شكل ومضمون مترابطين.
- والفن يحمل رؤًى إنسانية.
- وللفن مضمون ورسالة اجتماعية.
- وليس الفن مجرد لهو ومتعة.
- كما أنه ليس مجرد إبداع لأشياء جميلة.

– وبالنسبة للهدف الذى يستهدفه الفن، فإن هناك تيارين متعارضين حول هدف الفن ورسالته، وإن كانا متفقَيْن على أهمية الفن وأثره فى التطور الحضارى، وفى حياة الإنسان.. هذا التياران هما:

- تيارٌ: يرفض أن يجعل للفن أى رسالة تخرج به عن قيمته الذاتية، وهو تيار يعبِّر عنه أصحابه بقولهم: «الفنُّ للفنِ» أى أنه فن غير موظف.

● وتيارٌ: يُصِر على أن يكون للفن رسالة اجتماعية تلتزم بتحقيق هدف وفائدة للإنسان والمجتمع، وهو ما يعبِّر عنه أصحابه بقولهم: «الفنّ للمجتمع» أى أن الفن له وظيفة اجتماعية.

٩ - الإبداع:

مصطلح يعني: ابتداء الشيء أو صنعه أو استنباطه على غير مثال سابق، ومن يستطيع القيام بذلك فهو المبدع أو البديع، وعند التأمل والتدبر في الإبداع على غير مثال سابق، فقد وجد الفلاسفة، بل أجمع المفكرون على أن الإنسان لا يستطيع أن يبدع شيئًا على غير مثال سابق، فقالوا: إن قصارى ما يستطيعه الإنسان هو: إنتاج شيءٍ مَّا على أن يكون جديداً في صياغته، وإن كانت عناصره موجودة من قبل، كإبداع عمل من الأعمال العلمية أو الفنية أو الأدبية.

- وكل إبداع على هذا النحو في العلم أو في الأدب أو في الفن؛ يرتبط ارتباطًا وثيقًا بشخص المبدع أى الذى يصوغ الجديد.

- ولابد للإنسان من قدرات تمكنه من الإبداع على هذا النحو، وأن لهذه القدرات مظاهر ثلاثة هى:

أ - مظهر استقبالى:

أى تكون لديه قدرة على استقبال المنبهات التى يتلقاها من خبراته وتجاربه.

ب - ومظهر إنتاجى:

أى أن تكون لديه القدرة على إنتاج إبداعى له صفات تميزه ليكون إبداعًا على النحو الذى حددوه، وهذه الصفات هى:

● الطلاقة: أى الإنتاج الكثير فى الزمن المحدود.

● والمرونة فى التفكير: أى القدرة على تغيير زاوية التفكير وعدم الجمود على فكر معين.

● والأصالة: أى الجدَّة والطرافة، والمناسبة للهدف الذى استهدف الإنتاج المبتكر.

جـ - ومظهر تقويمى:

أى قدرة على الوعى بإتقان شيء مُبْدَع تتوافر فيه الجودة وفق معاييرها المعروفة، وذلك

هو القدرة على التقويم، سواء أكان التقويم منطقياً يعتمد على إدراك العلاقات المنطقية، أم كان تصورياً يتصل بمواد إدراكية، أم كان راجعاً إلى الخبرة فى المواقف الاجتماعية.

١٠ - الفنون الجميلة:

يطلق هذا المصطلح على عدد من الفنون:

- منها ما يُدرَك بالقراءة أو السماع كالأدب؛ شعره ونثره والخطابة والموسيقى.
- ومنها ما يُدرك بالرؤية والمشاهدة كالمسرح و«الأوبرا» والسينما و«التليفزيون» ونحوها.
- ومنها ما يسمى الفنون التطبيقية مثل: الرسم والنحت وتصميم النسيج، والعمارة والخزف ونحوها.

● إن الفنون الجميلة تمثل الفن، بل تنفرد بتمثيله فى رأى بعض الفلاسفة والمفكرين، حيث قالوا: إن تمثيلها للفن إنما يرجع إلى أسباب غرضية بحتة؛ لأن فنون الرسم والنحت والموسيقى والشعر تنطوى على تحقيق غرض هو الانتفاع الواضح بالمواد التى صيغ منها الفن.

- وبعض المفكرين قالوا: إن هناك فرقًا بين الفنون الجميلة وما هو مجرد نافع أو مفيد أو صناعى؛ ذلك الفرق هو أنّ الفنون الجميلة تقدم للإنسان إحساسًا بالرضا بشكل مباشر، أما الفنون الصناعية فإنها تقدم الوسائل لمباهج أخرى مُرْضية بشرط أن تكون مؤدية لوظائفها موفية بأغراضها التى صنعت من أجلها، وعلى سبيل المثال: فإن الجِسْر لابد أن يكون معبراً آمناً فوق النهر، والسفينة لابد أن تضمن لمن يركبها سفراً آمنًا فى البحر، ثم يأتى من بعد ذلك - أى بشكل غير مباشر - النظر إلى ما فى هذه الفنون الصناعية من جمال.

١١ - الجماليات التجريبية:

هذا المصطلح يعنى - كما يرى كثير من النُّقَّاد والفنانين المحدثين - اكتشاف طبيعة الاتفاق ومداه بين الثقافات المختلفة فى الأحكام الجمالية لدى كل ثقافة من هذه الثقافات.

- كما يعنى مصطلح الجماليات التجريبية بيان مظاهر الاتفاق والاختلاف بين الأفراد المختلفين فى النوع ما بين رجل وامرأة، أو المختلفين فى العمر، أو فى السمات الشخصية، أو غير ذلك من المتغيرات، فى الأحكام الجمالية لدى كل واحد منهم.

– ومن المعروف لدى المهتمين بالجماليات، أن مكتشف الجماليات التجريبية هو : «فجنر» (١٨٠١ – ١٨٨٧م).

وأن رائدها هو: «برلين» (١٩٢٢ – ١٩٧٦م).

وأن أكثرهم نقداً للجماليات التجريبية هو: «لنداور» الذى عَمَّم نقده للدراسات النفسية التى أجريت من وجهة نظر تجريبية حيث قال: «إنها استخدمت موادّ ومثيرات مختلفة مصطنعة وبسيطة بشكل أبعدها عن واقع الخبرة الجمالية، وأنها أكدت على الطبيعة الانفعالية للفن، وأهملت الطبيعة المعرفية له...»[1].

١٢ – الجماليات المعرفية:

هذا المصطلح يعنى – فى مجال علم النفس –: أن الجماليات تتأثر بمفردات المعرفة وخطواتها ومراحلها، التى تتمثل فى:

– الإدراك.

– وترميز المعلومات – أى وضع رموز لها –.

– وتخزين للمعلومات فى الذاكرة.

– وتكوين للمفاهيم.

– وتفكير بالصور.

– وإنتاج للغة.

– واستدعاء للمعلومات من الذاكرة.

– والحكم، وغير ذلك من العمليات.

● وهذه العمليات تترك آثارها فى المعلومات الواردة إليها من المدخلات الحسِّيَّة، ومن ثم فى الاستجابة النهائية.

وإدراكنا الجمالى للوحة فنية أو مقطوعة موسيقية، أو عمل أدبى... كل هذا يبدأ بمدخلات حسية؛ سمعية أو بصرية أو تنتمى إلى حواس أخرى كالتذوق والشم واللمس، هذه المدخلات تعالج من خلال بعض المعلومات المعرفية كالإدراك والتفكر والتفكير

(١) د. شاكر عبد الحميد: التفضيل الجمالى ص ١٩٠ العدد رقم ٢٦٧ من عالم المعرفة الكويت مارس ٢٠٠١م.

بالصور... ثم تكون الاستجابة النهائية اللفظية أو الحركية أو التعبيرية أو الانفعالية هى المحصلة النهائية لهذه المعالجة الداخلية (أى فى المخ) لهذه المدخلات الحسية الأولى»[1].

١٣ - الجماليات البيئية:

مصطلح - فى علم النفس أيضًا - يعنى: «علم الجمال البيئى».

والجماليات البيئية تهتم بالجمع بين: الاهتمام بالقيمة الجمالية والأحكام التفضيلية من ناحية، والاهتمام بالأماكن المختلفة التى يعيش فيها الناس ومدى تأثير البيئة فى التفكير والوجدان والسلوك من ناحية أخرى. ثم ترجمة النتائج الخاصة بهذا الفهم إلى تصميمات بيئية جديدة؛ يحكم عليها الناس بأنها مفضَّلة أو محببة لديهم جماليًا...»[2].

وقد أكد الباحث أولريك Urlich فى سنة ١٩٨٤م على قوة أثر البيئة فى الإنسان بقوله:

«إن زمن النقاهة، وسرعة الشفاء - فى أى مستشفى - يتأثر بنوعية المنظر العام الذى يشاهده المريض من غرفته، أى أنه كلما كان المنظر جميلاً كان الشفاء أسرع».

ويرى بعض الباحثين أن الشعور الجمالى ببيئة جميلة، يؤثر على الإحساس بالمواطنة، بل على معدلات الجريمة أيضًا، بمعنى أن الشعور بالمواطنة يزداد ويقوى، وأن معدلات ارتكاب الجرائم يَقِل، كلما كان المكان جميلاً.

١٤ - التربية الجمالية:

وهو أهم مصطلح من المصطلحات فى كتابنا هذا لأننا سمينا الكتاب: «التربية الجمالية الإسلامية».

لذلك سوف نتوسع فى التعريف بهذا المصطلح بعض التوسع سائلين الله التوفيق.

- للغربيين مفهوم حديث للتربية الجمالية.

- ولبعض العرب والمسلمين المعاصرين تعريفات بهذه التربية الجمالية.

● وسوف نستعرض هذا وذاك فى إيجاز، قبل حديثنا عن التربية الجمالية فى الإسلام التى استوحينا وظائفها وأبعادها وأهدافها من المرجعية العليا للإسلام وهى القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة - وهى صلب هذا الكتاب -.

---

(١) د. شاكر عبد الحميد: التفضيل الجمالى ص ١٩١ - ١٩٢ العدد رقم ٢٦٧ من عالم المعرفة الكويت مارس ٢٠٠١م.

(٢) السابق: ٣٨١.

أولاً: التربية الجمالية عند الغربيين:

يؤكد الباحثون الغربيون على قولهم: ينبغى أن تقوم عمليات التربية الجمالية بتكوين اتجاه جمالى لدى الأفراد.

وهذا الاتجاه – كما أشار «أسبورن» H.osborne عالم الجماليات البريطانى – هو: «حالة خاصة من الانتباه والاهتمام تشتمل على نوع خاص من الابتعاد النسبى عن الانشغالات أو الاهتمامات العملية».

ويقوم هذا الاتجاه على تفهم الانفعال والشعور بالموضوع الجمالى. والاهتمام الطويل الأمد، بالإضافة إلى عمليات أخرى لازمة مثل:

– المعرفة.

– والاستدلال.

– والتحليل.

– والمقارنة.

– والتصنيف.

– وتكوين المفاهيم.

لأن ذلك كله لازم لحدوث الفهم أو التفهُّم للعمل الفنى أو الجمالى.

غير أن الرأى الذى ساد عندهم هو: أن التربية الجمالية ينبغى أن تقوم على أساسين اثنين هما:

– التفكير المنطقى.

– والتفكير الإبداعى.

● وعندما نأخذ هذين الأساسين فى الاعتبار نستطيع – بعد قراءات متعددة فى التربية الجمالية عندهم – أن نتصور أهمية كبرى للتربية الجمالية فى حياة الإنسان، تحقق له الأهداف التالية:

١ – تسهم بشكل قوى فى تحريك الإنسان عن النمط السائد، لكى يدخل فى مجال الاستكشاف، والفضول المعرفى، والتجديد والتنويع، بل الإضافة.

٢ – وتُعين على التجريب أو التدريب من خلال استخدام المواد والوسائل المناسبة، لأن التجريب يكسب المهارات ويطورها نحو الأحسن والأرقى، ما دام تدريبًا هادفًا موجهًا نحو حل مشكلة معينة.

٣ – وتعين على مزج التجريب أو التدريب الجمالى بالعمل على حل بعض المشكلات التى تلائم عمر المتعلم أو المتدرب من جانب، وتتيح له أن يختار ويفضل شيئًا جميلاً على آخر، لتتولد لديه حاسة التفضيل الجمالى من جانب آخر.

٤ – والتربية الجمالية تعين على تنمية سلوك الاستكشاف عند الإنسان، أى حب الاستطلاع وتكوين عاداته، وتنمية الخيال، وكل هذه أمور يحتاج إليها المتعلم فى حياته العامة، لكى تزداد ملاحظته لما حوله من الأشياء عمومًا، وللأعمال الفنية الجمالية على وجه الخصوص.

٥ – وتعين على تكوين الملاحظات حول الأعمال الفنية الجمالية ذاتها، من خلال الملاحظات السمعية والبصرية، مع توليد القدرة على استيعاب الرموز، والربط بين الوسائل والغايات.

٦ – والتربية الجمالية تضع فى اعتبارها الميول الفردية فى التفضيلات القائمة على التعرف والمتابعة، لبعض الفنون التشكيلية من حيث التكوين والشكل واللون، ومن أجل ان يكون التفضيل الجمالى مبنيًا على أساس صحيح.

٧ – وهى تنمى عند المتعلم طرق التعبير الفكرى والمعرفى والانفعالى فيما يخص الذات والبيئة من خلال التعبيرات اللفظية أو الانفعالية أو الحركية، ويستوى فى هذه التعبيرات الصغار والكبار من الناس.

٨ – وهى تعين على تنشيط العقل والوجدان، بما تحدثه من متعة وجدانية خيالية، ومن متعة الاستثارة المعرفية، وهى بذلك تسهم فى تحقيق الذات، وفى الصحة النفسية وفى الإبداع.

٩ – والتربية الجمالية – من خلال الأعمال الفنية أو الفنون الجميلة – تحقق للمتأمل فيها استمتاعًا بالجمال الذى تحمله، وربما يظل هذا الاستمتاع معه داخل عقله ووجدانه فترة طويلة من الزمن فتثرى خياله، وتدفعه إلى الإبداع الفنى، لأن هذا

الإبداع يقوم على الخيال بأكثر مما يقوم على مسلمات العقل والمنطق، وإن كان الإبداع لا يستغنى عن العقل والمنطق.

١٠ - وتنمى فى الإنسان الانجذاب نحو الأعمال الفنية، وهذا من شأنه أن يحدث تكاملاً فى نفس مَنْ انجذب لهذه الأعمال الفنية الجميلة، تكاملاً وانسجامًا بين الأبعاد الداخلية فى نفسه؛ البعد العقلى، والبعد الإدراكى، والبعد الانفعالى. وهذا التكامل بين تلك الأبعاد يمكن الإنسان من الاستجابة لما يستثيره العمل الفنى فيه، وهذا بدوره يصقل خبرته الفنية، ويجعلها أكثر عمقًا.

١١- والتربية الجمالية تعين على تكوين علاقة بين من يتأمل العمل الفنى وموضوع هذا العمل، وتلك العلاقة بين الذات والموضوع من شأنها أن تحدث متعة وسرورا فى نفس من يتأمل فى الجمال، وهذا أمر يؤدى إلى ارتقاء التفكير المنطقى والتفكير الجمالى.

١٢- وكما أسهمت التربية الجمالية فى تنمية الحواس من سمع وبصر ولمس فأسهمت فى تنمية الخيال والإبداع، فإنها كذلك تنمى الإدراك والوجدان، فتنقل المتأمل للجمال من العيانى المجسد إلى العقلى المجرد، ومن القريب المألوف إلى البعيد غير المألوف، وذلك من شأنه أن يعمق لدى الإنسان إحساسه بالجمال ويعمق خبرته الجمالية.

● ومن أجل أن تحقق التربية الجمالية هذه الأهداف وتؤدى تلك الوظائف فإنها تحتاج إلى دعائم تقوم عليها، ومن أهم هذه الدعائم:

١ - الأفق الواسع المرِن الذى يخلو من الجمود على أسلوب واحد لا يتغير مهما تغيرت الظروف.

٢ - والتقبل للتنوع والتعدد، ورفض أحادية النظرة أو تقليديتها التى تُضَيِّع على الإنسان فرصًا طيبة.

٣ - والاستعداد لتقبل الاختلاف والمغايرة تمشيًا مع سنة الحياة والأحياء.

٤ - والتعامل مع الآخر وتقبله، واحترام خصوصياته فى كل مجالات التعبير عن الحياة.

٥ - والرغبة فى التعديل كلما بدت الحاجة إليه، مع نبذ الجمود والتحجر أمام التعبير الفنى عن الحياة.

٦ - والرغبة في الاستفادة من تجارب الآخر وخبراته دون تعالٍ عليه أو تهوين من شأن إنتاجه الفني.

٧ - والرغبة في الإضافة والتجديد في الأعمال الفنية تجاوبًا مع المتغيرات المحيطة بالإنسان، وبتعبيره عن حياته.

● هذه الدعائم إن توافرت أدت إلى أحسن النتائج النفسية والمعرفية والاجتماعية على مستوى الأفراد والجماعات والمجتمع كله، كما تعين على الوصول إلى مستوى أفضل للحياة الإنسانية.

وبعد، فتلك هي التربية الجمالية وهذه وظائفها وأهدافها وتلك دعائمها التي ترتكز عليها، كما يراها باحثو الغرب ومفكروه في عصرنا هذا؛ فماذا عن العرب والمسلمين وغيرهم من دول العالم الثالث في نظرتهم إلى التربية الجمالية؟

ثانيًا: التربية الجمالية عند العرب والمسلمين اليوم:

نهض الغرب نهضته الحديثة في عصر التقدم العلمي، وجاءت نهضته بعد تراجع العرب والمسلمين حضاريًا عما كانوا عليه أيام التزامهم بالإسلام دينا ومنهجًا ونظام حياة(١).

ولا شك أن الغرب بنهضته العملية قد ساد العالمين العربي والإسلامي فعمل ما وسعه على استيطانهما والسيطرة عليهما والاستيلاء على مقدراتهما الاقتصادية، وحاول بكل وسيلة أن يحول بين هذه المستوطنات التي وضع يده عليها وبين التقدم أو الرقي في أي مجال من مجالات الحياة، إذ الغرب هو المسيطر والغالب والمتقدم علميًا وسياسيًا واقتصاديًا، ولا يزال كذلك حتى يومنا هذا، كما أن العرب والمسلمين لا يزالون على جانب غير قليل من التراجع الحضاري، مما أدى بهم إلى يكونوا دائمًا في حاجة إلى الغرب في العلم والتقنية أولاً ثم في الاقتصاد، وفي معظم الاحتياجات في السلم والحرب. وحسب الغرب نكاية وسوء نيَّة نحو العرب والمسلمين أن جاء بإسرائيل فزرعها في قلب العالم العربي شوكة دامية تحول بينه وبين أي تقدم، وتجد من الغرب الدعم الذي يجعلها أقوى من العرب مجتمعين، وقد حيل بينهم وبين أن يكونوا أقوياء بإسرائيل وبغيرها من الحيل والضغوط السياسية والاقتصادية...

---

(١) انظر للمؤلف: التراجع الحضاري في العالم الإسلامي.. وطرق التغلب عليه - نشر دار الوفاء بمصر عام ١٤١٤هـ - الموافق ١٩٩٤م.

- وعند التحليل الدقيق النزيه نجد بلدان العالمين العربى والإسلامى كلها تابعة تبعية منظورة أو غير منظورة للغرب لا تستطيع أن تخرج عن نطاق سياسته، وإن ادعت دول العالمين العربى والإسلامى غير ذلك.

- وعلى قدر اعترافنا ويقيننا بما يضمره الغرب من إفساد لمستقبل العالمين العربى والإسلامى وفق خطط وضعها، فإننا نعترف كذلك بأن العالمين العربى والإسلامى قد أفادا بعض الفائدة من احتكاكهما بالغرب وإن كان احتكاك مغلوب بغالبه.

- ولندع جانبًا الحديث فيما عاناه العالمان العربى والإسلامى من الغرب وإسرائيل سياسيًا وعسكريًا واقتصاديًا وثقافيًا وتعليميًا واجتماعيًا، فإن لهذا الحديث دراساته الخاصة به، ولنهتم بالتربية الجمالية فى العالمين العربى والإسلامى، وكيف تأثرت بالتربية الجمالية عند الغرب سلبًا وإيجابًا؛ لأن ذلك من صميم موضوع كتابنا هذا. فنقول:

- أما الجانب السلبى فى تأثر العالمين العربى والإسلامى بالتربية الجمالية الغربية، فإنه ترك آثارًا عميقة فى حياتنا العربية والإسلامية، ومن ذلك:

١ - اكتفاء العرب والمسلمين بتقليد الغرب فى التربية الجمالية تقليدًا يكاد يكون بالغ الضرر فى تربيتنا وفى فنوننا الجميلة، إذ حال بيننا وبين الإبداع والابتكار، وفى ذلك خسارة علمية وفنية وسياسية وقومية، فضلاً عن الخسارة فى الابتعاد عن ديننا.

٢ - ونَقْلُ العرب والمسلمين لفنون الغرب التشكيلية وأعمالهم الفنية، نقلاً يعود بالضرر عليهم علميًا وفنيًا وقوميًا، للفروق الحادة بيننا وبينهم فى كثير من الخصائص، ونتيجة هذا النقل أن يكون الغرب أكثر ربحًا وسعادة، لأن كل شيء بثمن، وبالتأكيد الذى لا يقبل الجدل فإن العرب والمسلمين بهذا النقل عن الغرب وتقليدهم لفنونه قد خسروا كثيرًا لانصرافهم عن الإبداع والابتكار وتجاهلهم خصائص مجتمعاتهم وحضارتهم وقيمهم الجمالية التى تخصهم.

٣ - ومن سلبيات هذا النقل عن الغرب فى الفنون الجميلة تأثرهم بمدارس الغرب ومذاهبه التى قد لا تصلح مع المجتمعات العربية والإسلامية، مما أدّى إلى عجزهم عن التعبير عن أصالتهم وتراثهم ومظاهر حضارتهم، فظل كل ذلك محجوبًا بظلمات التقليد والنقل وانبهار المغلوب بالغالب.

ولا يزال هذا التقليد باقيًا فى حياتنا الفنية على الرغم من أن لدينا اليوم كليات ومعاهد للفنون الجميلة.

إن هذا النقل والتقليد أذهلنا عن أصالتنا وتراثنا وقيمنا، وجعلنا ننسى أن ما يصلح للغرب من فنون جميلة قد لا يصلح كله أو كثير منه فى مجتمعات عربية إسلامية.

٤ – ويمكن القول دون تردد: إن التربية الجمالية المعاصرة فى عالمينا العربى والإسلامى هى صورة لما أعطته التربية الجمالية الغربية دون مراعاة للفروق بين مجتمعاتنا وفنونها ومجتمعاتهم وفنونهم، مما أدّى إلى تقليص تأثير التربية الجمالية فى نفوس العرب والمسلمين، وفى عقولهم، وقيمهم، لأنها لم تنبع من مجتمعاتنا ولم تكن استجابة لقيمنا.

● وأما الجانب الإيجابى فى تأثر العرب والمسلمين بالتربية الجمالية الغربية، فنعترف به وإن كنا نؤكد أنه أقل من الجوانب السلبية التى ذكرنا بعضها آنفًا.

هذا الجانب الإيجابى تمثل فيما نجمله فيما يلى:

١ – أن العرب والمسلمين أفادوا من نقل التربية الجمالية الغربية فى مجال العلم والمعرفة والتقنية والاطلاع على نماذج للفنون الجميلة الجيدة، فأثرى ذلك تذوقهم للفن وشجعهم على إنتاج كثير من هذه الفنون فاكتسبوا خبرة ومهارة.

٢ – وأن العرب والمسلمين فى نقلهم للفنون الجميلة الغربية قد وضعوا أيديهم على الجيد منها فحاكوه، وعلى الردئ منها فلم يحاكوه، فكانت الفنون الجميلة الغربية مدرسة تعلم فيها العرب والمسلمون أسباب الجودة وأسباب الرداءة، فكان ذلك محققًا لفائدة فنية.

٣ – وأنهم وضعوا أقدامهم على أول الطريق فى مجال استخدام التربية الجمالية الغربية فأفادوا فيما يلى:

– مجال التعليم والدراسة.

– ومجال المعرفة والثقافة.

– ومجال النقد والتذوق الفنى.

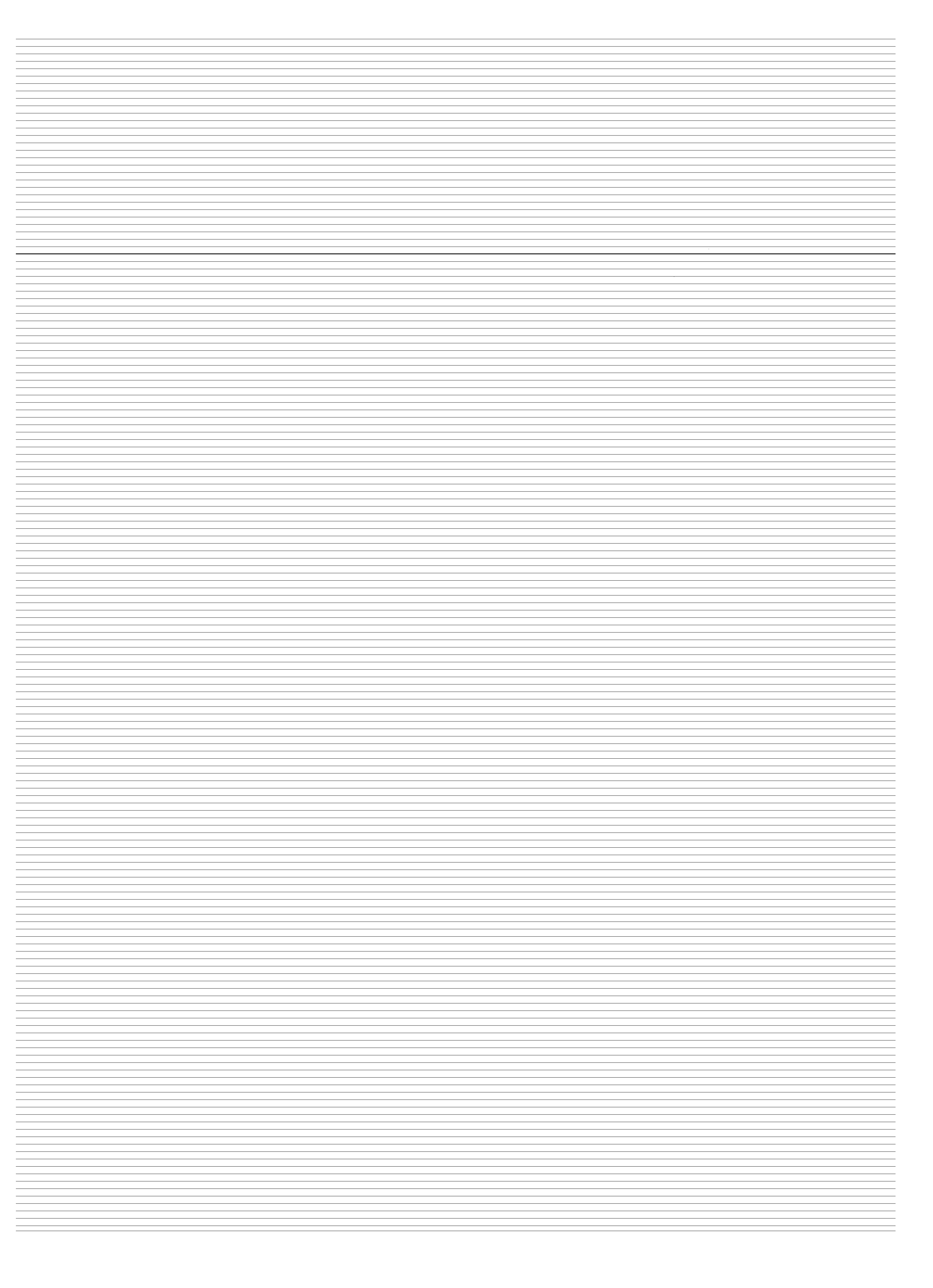
نعم كان كل ذلك محاكاة للتربية الجمالية الغربية لكنه وضع أقدامنا على الطريق، وإن كان غير طريقنا لكن العدول عنه إلى طريقنا يُعَد الآن أيسر من ذى قبل.

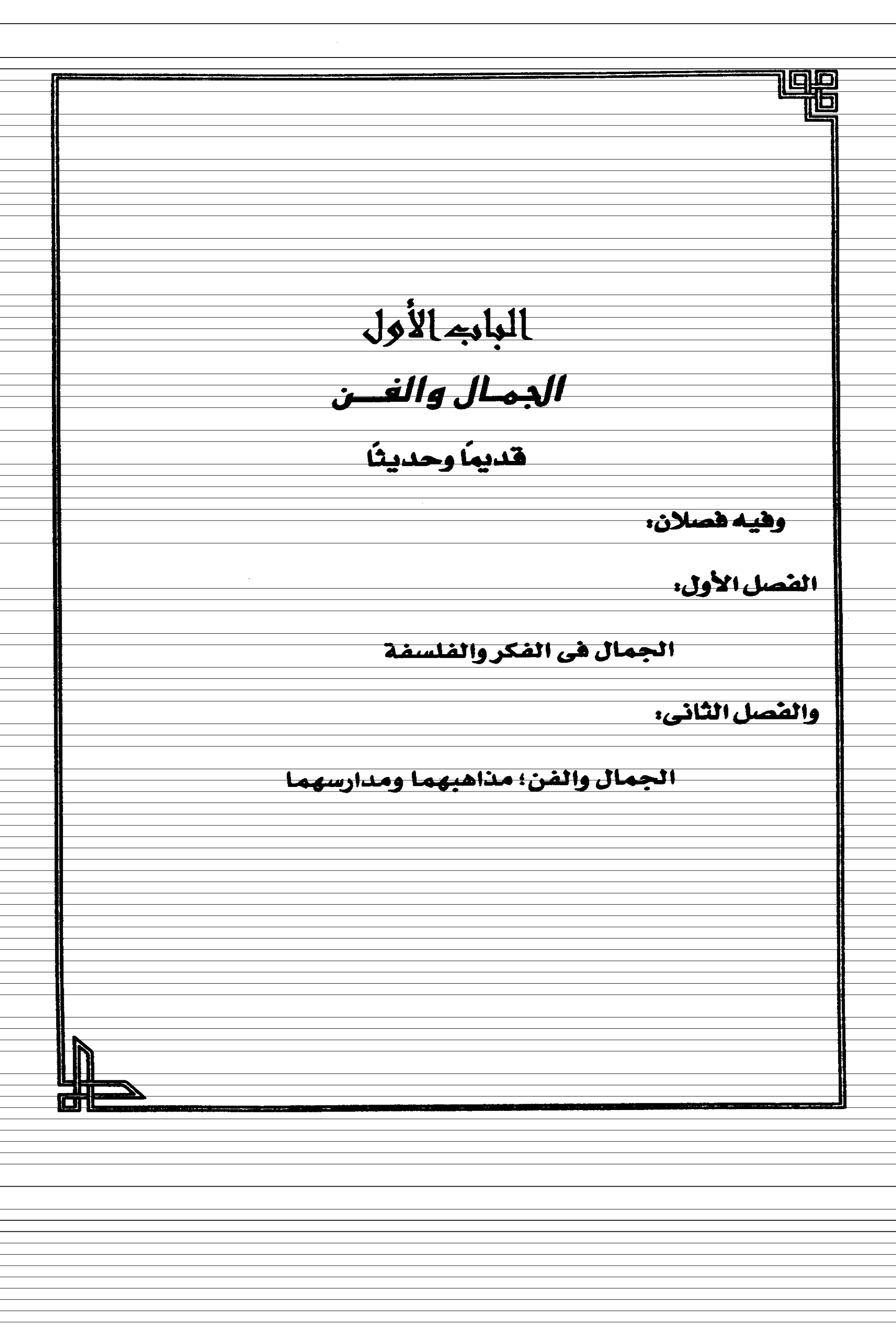
- وهذه الجوانب الإيجابية قد تعود – بل هى لابد عائدة – علينا بالضرر فى قيمنا العربية والإسلامية، إذ تحول بيننا وبين التعبير عنها بأصالة وموضوعية.

- إن التربية الجمالية الإسلامية – كما سنوضح فى الباب الثانى من هذا الكتاب – هى التى تمد المجتمعات العربية والإسلامية بزاد وفير يمكنهم من التعبير عن هذه القيم الإسلامية.

والتربية الجمالية الإسلامية مفردة من مفردات التربية الإسلامية تسهم فى صياغة الأفراد والجماعات والمجتمعات صياغة إسلامية ينفعهم الالتزام بها فى دينهم ودنياهم، كما سنوضح ذلك فى الباب الثانى من هذا الكتاب بإذن الله تعالى.

■■■■





الباب الأول

الجمال والفن

قديماً وحديثاً

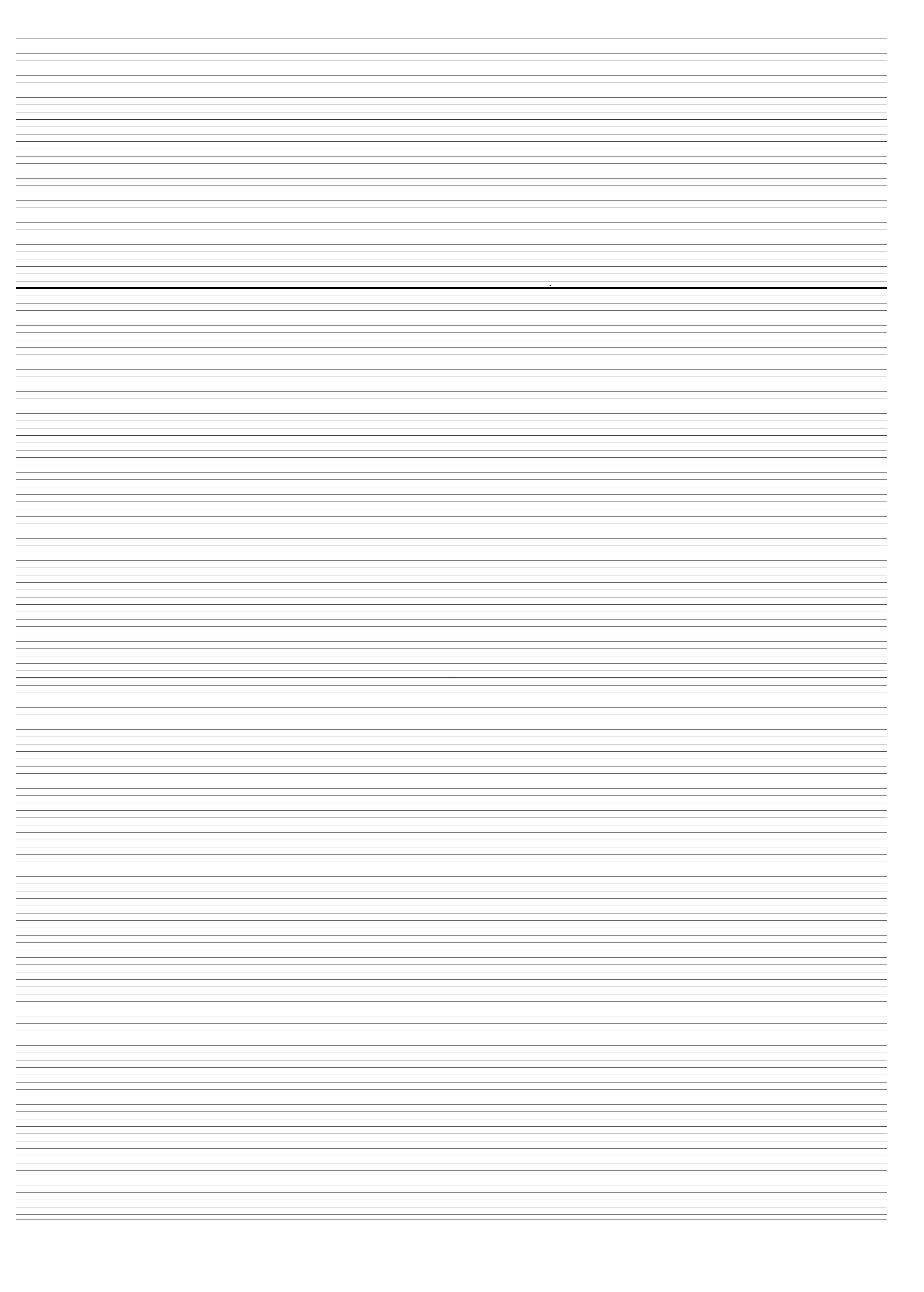
وفيه فصلان:

الفصل الأول:

الجمال فى الفكر والفلسفة

والفصل الثانى:

الجمال والفن؛ مذاهبهما ومدارسهما



الجمال والفن.. قديمًا وحديثًا

الجمال من الكلمات المواكبة لحياة الإنسان منذ خطا خطواته الأولى فى دروبها، ومعناه لصيق بالإنسان قديم، قدم الإنسان نفسه فى الحياة.

وحب الجمال فطرة فى الإنسان فطره الله عليه حين خلقه وسواه وعدله وركبه فى أحسن صورة، والإنسان يحب الجمال منظوراً أو مسموعًا أو ملموسًا؛ متمثلاً فى الإنسان الجميل أو الطبيعة الجميلة أو الفنون الجميلة.

والفن أو الفنون الجميلة صورة من جمال الحياة يعبر بها الإنسان عن هذا الجمال، والإنسان مشوق إلى الفن كما هو مشوق إلى الجمال، أى أن فكرة الجمال فى الحياة هى بذاتها فكرة الجمال فى الفن أى الفنون الجميلة كلها التى نسميها اليوم الفنون التشكيلية.

- وإذا كان للجمال صفات عديدة تظهر للإنسان فى الأشكال والألوان والأصوات والمعانى؛ فإن الفن هو الذى يُعبر عن هذا الجمال فى الأشكال والألوان والأصوات التى يفضلها من أراد أن يعبر عن الجمال.

- والإحساس بالجمال راحة ومتعة للإنسان لا ترتبط برغبته فى الاستيلاء على الشىء الجميل وإنما مجرد التمتع بجماله والارتياح لمشاهدته.

- وليس الجمال مجرد فكرة لسرورنا بالجمال دون سبب أو منفعة - كما يرى ذلك الفيلسوف الألمانى: «شوبنهور» - وإنما الجمال صفة فى الجميل ينجذب إليها الناس بسبب نقل حواسهم لها وبسبب ما فيها من جمال.

- كما أن الجمال ليس وليد الغريزة الجنسية والرغبة فى حفظ النوع بانجذاب الرجل إلى جمال المرأة وانجذاب المرأة إلى جمال الرجل لحاجة كل منهما إلى الآخر جنسيًا - كما يقول: «ماكس نوردو»[1] - ولكن الجمال شىء والعاطفة الجنسية شىء آخر، وليس حب الرجل المرأة ولا حب المرأة الرجل وانجذاب أحدهما للآخر هو أصل الجمال كما زعم «ماكس نوردو».

---

(١) ماكس سيمون نوردو (١٨٤٩ - ١٩٢٣م) طبيب إسرائيلى من دعاة الصهيونية ولد فى بودابست ورحل إلى كثير من بلاد أوربا ثم أمريكا داعيًا إلى الفكرة الصهيونية بكل ما أوتى من قوة وقدرة على العنصرية والعرقية.

● وتعلق الإنسان بالجميل وإقباله عليه كان منذ زمن بعيد ربما يواكب في بعده موكب الإنسان ودبيبه على الأرض وممارسته للحياة، واستمتاع الإنسان بالجمال الطبيعي أي بكل مظاهر الطبيعة واكب أقدم تاريخ معروف للإنسان على هذه الأرض، كما تنبئنا بذلك تلك الحضارات الممعنة في القدم كالحضارة المصرية القديمة، والحضارة الأترورية في إيطاليا، والحضارة الإيجية حول بحر إيجة، والحضارة المينوئية، والحضارة الإغريقية، والحضارة الهيلينستية.

● والعلاقة بين الجمال الطبيعي والجمال الفني ما كانت يومًا موضع اتفاق بين المفكرين القدامى أو المحدثين، وهذه العلاقة مع هذا الاختلاف ذلك هو الذي دعا بعض المفكرين إلى بحث موضوع: علم الجمال، وفلسفة الجمال، بعد أن قام بعضهم بتفسير بعض الظواهر الجمالية، ومحاولة تصنيفها تصنيفًا لم يحدث عليه اتفاق كذلك.

● والفن هو بكل تأكيد مغاير للجمال، إذ هو التعبير عن الفكر أو الشعور أو الجمال في صورة تبدو جميلة، لما في هذه الصورة من تناسق، أو تماثل، أو رضا بالوانها، أو بما فيها من حذق ومهارة في محاكاة الطبيعة الجميلة.

– وهذه الصورة الفنية نابعة من حواس الإنسان المتعددة:

● فقد تكون نابعة من الإحساس السمعي «الأذن» كالإيقاع الذي يحاكي صياح الحيوانات أو تغريد الطيور أو حفيف أوراق الشجر، أو صوت المطر، أو صوت المياه المتدفقة من علو، أو نحو ذلك.

● وقد تكون نابعة من الإحساس البصري «العين» كتصوير بعض عناصر الطبيعة، أو النحت، أو الخزافة، أو البناء، سواء أكان المبنى عمارة لسكنى الأحياء أو مقبرة لدفن الأموات.

● وقد تكون نابعة من الإحساس الذوقي «اللسان» كالتمييز بين المذوقات لتبين حلاوتها أو مرارتها، وعذوبتها أو ملوحتها، سواء أكان المذوق مطعومًا أم مشروبًا.

● وقد تكون نابعة من الإحساس بالشم «الأنف» كالتمييز بين الأشياء ذوات الرائحة الزكية أو الكريهة، حيث يقبل الإنسان ويستريح إلى الروائح الزكية، وينفر من الروائح الخبيثة، بتدخل من القيم الخلقية المحيطة بالإنسان التي تدعوه دائمًا إلى الإقبال والتقبل للأحسن والأجمل.

● وقد تكون نابعة من الإحساس باللمس « اليد » أو نحوها من أعضاء الإنسان التي يمكنه أن يميز بها بين الملموسات، الناعمة أو الخشنة أو الشائكة أو قد تلحق ضرراً بلامسه، وعندئذ تقبل النفس على الشيء الناعم وتسميه جميلاً، وتنفر من الشيء الشائك أو الضار وتسميه قبيحاً.

● على أن التمييز بين الجميل والقبيح نِسْبِي بين الناس، يختلف عندهم باختلاف البيئة التي يعيشون فيها، وما في هذه البيئة من مخلوقات وأشياء تبعث في النفس إحساساً بالجمال أو بالقبح.

ولقد بلغ الاختلاف بين المفكرين حول الجمال والقبح حداً جعل بعضهم يقول: إنه لا جميل لذاته ولا قبيح لذاته، وإنما لما يحيط بكل منهما ولإحساس الناس بهما.

– وعلماء الأخلاق يرون: أن الجميل هو ما حَكَم بجماله العقل، والقبيح هو ما حكم بقبحه العقل.

أما الفلسفة فلها ارتباط وثيق بالفن والجمال كما ألمحنا إلى ذلك من قبل؛ لأن الفلسفة إذا كانت تقوم على دراسة موضوعية للمبادئ الأولى للوجود، والفكر، بحيث تهدف إلى نشر الحق، مستهدية بالعقل ومنطقه؛ فإن الفن الذي يعبر عن الجمال عمل فكري عقلي معروف.

● وكل فروع الفلسفة لها صلة بالجمال، فمثلاً:

– فلسفة ما وراء الطبيعة « الميتافيزيقا » تبحث في مطلق الوجود أي في الوجود مجرداً من كل صفة فيما عدا الوجود نفسه؛ فإن الذي لاشك فيه أن هذا الموجود لن يخلو من الجمال الذي عبروا عنه بأنه جمال الإله.

– ومن فروع الفلسفة: المنطق أي البحث في صورة الفكر مجردة عن مادته، كما تبحث في مبادئ استدلالها ومعاييرها، والجمال بكل تأكيد له معاييره وله دلالاته.

– ومن فروعها: نظرية المعرفة أي البحث في علاقة الذات العارفة بالشيء المعروف، والجمال جمال ذاتي في الأصل، ثم يتعلق بموضوع.

– ومن فروعها: الأخلاق أي البحث في المبادئ التي تجعل السلوك خيراً، والجمال والفن ليسا بمعزل عن الخير.

- ومن فروعها: علم الجمال أى البحث فى المبادئ التى تجعل الجميل جميلاً.

● ومن هنا كان الجمال أحد فروع الفلسفة، وكانت الفلسفة بابًا للتعرف على الجمال، بل على نقيضه وهو القبح.

- وبعض المفكرين يقولون: إن الجميل هو ما حقق نفعًا للناس، والقبيح ما جلب إليهم الضرر أو أدى إلى وقوعهم فى الشر.

- والأديان السماوية الصحيحة تنادى بأن الجميل لذاته هو الله تعالى وحده لا يشركه فى ذلك غيره، الله سبحانه وتعالى الآمر بكل خير الناهى عن كل شر، هو الجميل لذاته.

- وعلماء الإسلام يقولون: إن الجميل من أعمال الناس هو ما حاكَى صفات الله العليا كالرحمة والعدل والإحسان، وغيرها من صفاته سبحانه وتعالى التى شرع لعباده أن يتصفوا بها.

ويرون أن القبيح هو ما ناقض صفات الله تعالى، أو خالف أمر الله تعالى ونهيه.

● وسوف يشتمل هذا الباب الأول من الكتاب على فصلين:

الأول فى: الجمال فى الفكر والفلسفة.

والثانى فى: الجمال والجمالية؛ مذاهبهما ومدارسهما.

■■■■

الفصل الأول
الجمال فى الفكر والفلسفة

ويتناول

أولاً: لمحة فى تاريخ ثقافة وادى النيل.

ثانياً: لمحة فى ثقافة غربى آسيا:

١ - الشرق الأدنى القديم وحضاراته.

٢ - الشرق الأقصى القديم وحضاراته.

ثالثاً: مظاهر الجمال عند أهل الشرق الأدنى:

١ - السومريون.

٢ - البابليون والآشوريون.

٣ - المصريون.

٤ - اليهود.

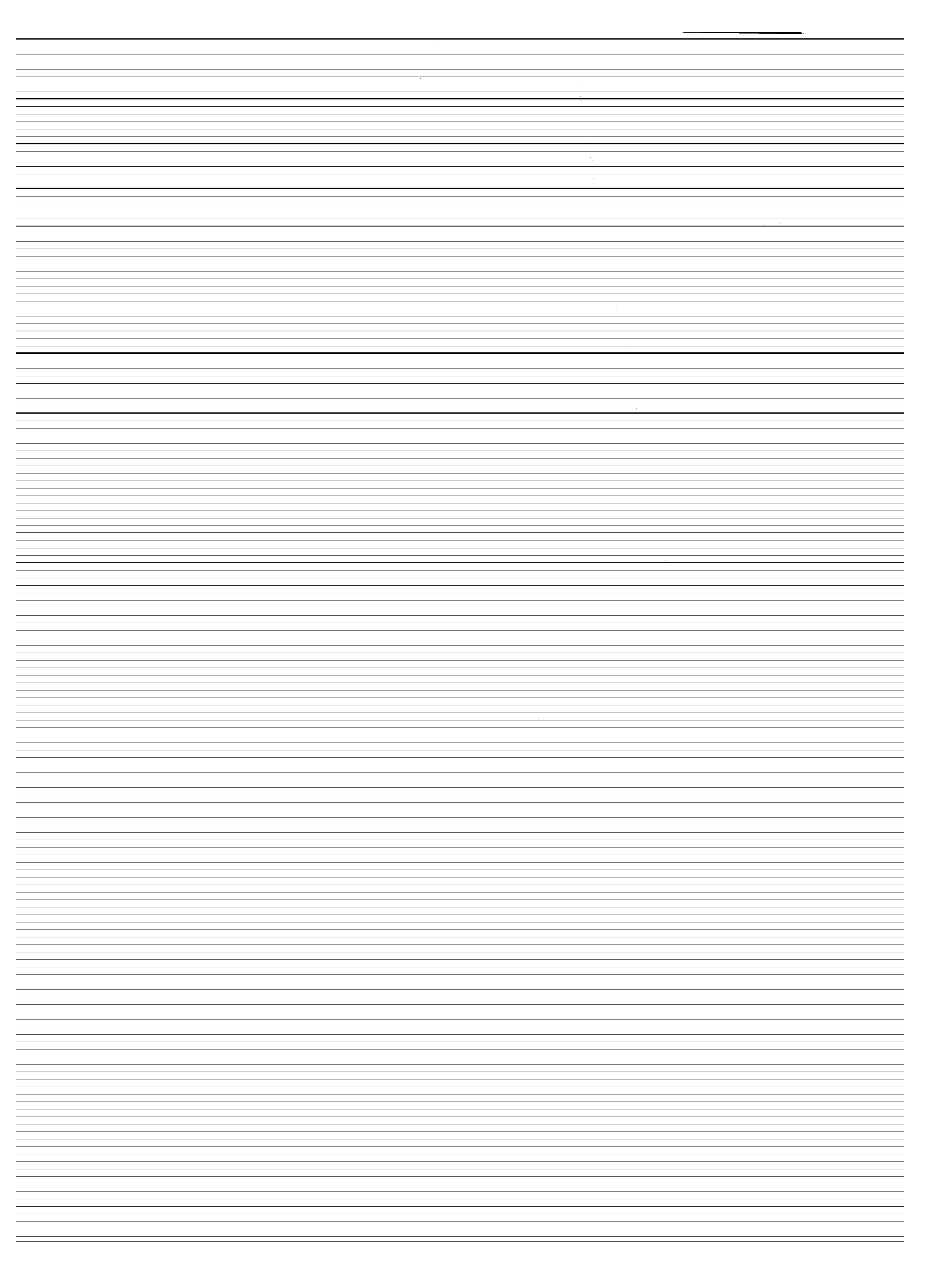
٥ - الفرس.

رابعاً: مظاهر الجمال عند أهل الشرق الأقصى:

١ - الهند.

٢ - الصين.

٣ - اليابان.



أولاً: لمحة فى ثقافة وادى النيل

ثقافة وادى النيل أقدم الثقافات الإنسانية التى عرف تاريخها، والتى اعترف بها بل أكدها كثير من المؤرخين للحضارة الإنسانية، ومن أجل أهمية هذه الثقافة أعطاها المؤرخون اهتماماً فى كتبهم ودراساتهم، نشير إلى بعضها فى السطور التالية:

● يقول: «ول ديورانت» فى كتابه الذائع الصيت «قصة الحضارة»(1):

– إن ثقافة وادى النيل فى العصر الحجرى القديم بدأت فى الألف الثامن عشر قبل الميلاد تقريباً.

– وإن ثقافة وادى النيل فى العصر الحجرى الحديث، بدأت فى الألف العاشر قبل الميلاد تقريباً.

– وإن ثقافة وادى النيل فى العصر البرونزى، بدأت فى الألف الخامس قبل الميلاد تقريباً.

– وإن ظهور التقويم المصرى عرف منذ سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد تقريباً.

● ويوضح أن أنظمة الحكم المصرية اشتهر منها ثلاثة أنظمة هى:

– الدولة المصرية القديمة.

– والدولة الوسطى الملكية.

– والإمبراطورية المصرية.

أ – الدولة المصرية القديمة:

حكمت واستقر نظام الحكم فيها على النحو التالى:

– من الأسرة الأولى إلى الأسرة الثالثة أى من سنة ٣٥٠٠ ق. م إلى سنة ٣١٠٠ ق. م.

– وأن الأسرة الرابعة – أسرة بناء الأهرام – حكمت من سنة ٣١٠٠. ق. م إلى سنة ٢٩٨٨ ق. م، ومن ملوكها:

● خوفو الذى حكم من سنة ٣٠٩٨. ق.م إلى سنة ٣٠٧٥. ق. م.

---

(١) «ول ديورانت» قصة الحضارة: ٢/ ٩، ١٠ ط إدارة الثقافة بالجامعة العربية.

- وخفرع وقد حكم من سنة ٣٠٦٧ . ق . م إلى سنة ٣٠١١ . ق . م.
- ومنقورع الذى حكم من سنة ٣٠١١ . ق . م إلى سنة ٢٩٨٨ . ق . م.

- والأسرتان الخامسة والسادسة حكمتا من سنة ٢٩٦٥ . ق . م إلى سنة ٢٦٣١ . ق . م.
- وأن «بيبى» الثانى أحد ملوكها حكم أطول فترة حكم فى التاريخ من سنة ٢٧٣٨ . ق . م إلى سنة ٢٦٤٤ . ق . م أى أكثر من مائة عام.
- وأن عصر الإقطاع بدأ من سنة ٢٦٣١ . ق . م ولم ينته إلا فى سنة ٢٢١٢ . ق . م حيث بدأت الأسرة الثانية عشرة فى عهد الدولة الوسطى الملكية.

ب - الدولة الوسطى الملكية:

وقد حكمت من سنة ٢٣٧٥ . ق . م إلى سنة ١٨٠٠ . ق . م. ومن أسرها وملوكها:

- الأسرة الثانية عشرة التى حكمت من سنة ٢٢٦٢ . ق . م إلى سنة ٢٠٠٠ . ق . م.
- والملك امينمحيت الأول حكم من سنة ٢٢١٢ . ق . م إلى سنة ٢١٩٢ . ق . م.
- وسنسوسريت (سيزوستريس) الأول حكم من سنة ٢١٩٢ . ق . م إلى سنة ٢٠٩٩ ق.م.
- وسنوسريت الثالث حكم من سنة ٢٠٩٩ . ق . م إلى سنة ٢٠٦١ . ق . م.
- وامينحيت الثالث من سنة ٢٠٦١ . ق . م إلى سنة ٢٠١٣ . ق . م.

ثم سيطر «الهكسوس»[1] على مصر من سنة ١٨٠٠ . ق . م إلى سنة ١٦٠٠ . ق . م.

جـ - الإمبراطورية المصرية:

وقد حكمت من سنة: ١٥٨٠ . ق . م إلى سنة ٥٢٥ . ق . م ومن أشهر أسرها:

- الأُسَرمن الثالثة عشرة إلى الأسرة الحادية والعشرين وقد حكمت هذه الأسر من سنة ١٥٨٠ . ق . م إلى سنة ١١٠٠ . ق . م.
- ثم الأُسَرمن الثانية والعشرين إلى السادسة والعشرين وقد حكمت من سنة ١٢٠٥ . ق . م إلى سنة ٥٢٥ . ق . م.

---

(١) الهكسوس تسمية يونانية أطلقت على قدماء العرب الذين فتحوا مصر باسم: «الشاسو» أى البدو أو الرعاة، ويقال لهم العمالقة وإن كان هذا الاسم مجهولاً، ولكن يغلب ان يكون منحوتا من اسم قبيلة عربية كان موطنها بجهة العقبة أو شماليها، كان البابليون يطلقون عليهم اسم ماليق فاضاف اليهود إليها لفظ عم بمعنى الشعب فقالوا: عماليق.

- ثم فتح الفرس مصر سنة ٥٢٥ . ق . م وقامت ثورة مصرية على الفرس، ثم تغلب الفرس فأعادوا فتحها سنة ٤٨٥ . ق . م .

- ثم انضمت مصر إلى الفرس فى حربهم ضد اليونان سنة ٤٤٢ . ق . م .

- ثم فتح اليونان مصر سنة ٣٣٢ . ق . م وتأسست مدينة الإسكندرية .

- ثم خضعت مصر لملوك البطالمة من سنة ٢٨٣ . ق . م إلى سنة ٣٠ . ق . م .

- ثم أصبحت مصر جزءاً من الدولة الرومانية من سنة ٣٠ . ق . م إلى أن دخلها الإسلام على يد عمرو بن العاص رضى الله عنه سنة ١٦ هـ - ٦٣٧ م أو سنة ٢٠ هجرية أو سنة خمس وعشرين هجرية، قال ابن الأثير[١] : «وبالجملة فينبغى أن يكون فتحها قبل عام الرمادة[٢] لأن عمرو بن العاص حمل الطعام فى بحر القلزم (الأحمر) من مصر إلى المدينة والله أعلم» .

- ولا شك أن هذه الثقافة كان لها صلة بالجمال وتذوقه، كما سنوضح ذلك فى حديثنا عن المصريين عند حديثنا عن مظاهر الجمال عند أهل الشرق الأدنى .

■■■■

---

(١) عز الدين ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ - ١٢٣٢ م : الكامل فى التاريخ ٢ / ٣٩٤ ط دار الكتاب العربى - بيروت - لبنان : ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .

(٢) كان عام الرمادة (المجاعة) عام ١٨ هجرية ٦٣٩ م .

ثانياً: لمحة فى ثقافة غربى آسيا

ثقافة غربى آسيا متنوعة وضاربة فى أعماق التاريخ الإنسانى، وإن كان المعروف منها أقل من المعروف من ثقافة وادى النيل لدى ثقات المؤرخين، ومن خلال الوثائق والحفائر والآثار المتروكة الباقية شاهد عيان عليها.

● ولقد تصدى «ول ديورانت» فى كتابه قصة الحضارة للحديث عن ذلك بقوله(١):

– إن ثقافة العصر الحجرى القديم فى آسيا بدأت من سنة ٤٠٠٠٠ق.م فى فلسطين.

– وإن ثقافة عصر البرونز بدأت فى تركستان منذ سنة ٩٠٠٠ق.م.

– وإن الحضارة فى السوس وكيش بدأت منذ سنة ٤٥٠٠ق.م.

وإن الحضارة فى كريت (إقريطش) بدأ منذ سنة ٣٨٠٠ ق.م.

– وإن الأسرة الثالثة فى كيش بدأت منذ سنة ٣٦٣٨ ق.م فى «سومر».

– وإن الحضارة فى «سومر» بدأت منذ سنة ٣٦٠٠ق.م.

– وإن «سرجون» الأول وحّد «سومر وآكِد» منذ سنة ٢٧٧٢ – ٢٨١٧ ق.م.

– وإن عصر «أور» الذهبى امتد من سنة ٢٤٧٤ إلى ٢٣٩٨ق.م.

– وأنه فى هذا العصر الذهبى وضع كتاب القوانين الأول.

– وإن العيلاميين نهبوا «أور» سنة ٢٣٥٧ق.م.

● وعن دولة بابل يقول:

– إن الأسرة الأولى البابلية بدأت سنة ٢١٦٩ ق.م، وأنها استمرت سائدة، وكان من أهم ملوكها «حمورابى» الذى فتح «سومر وعيلام» (السوس) ووضع القانون.

– وإن الحضارة «الحيثية» ظهرت فى فلسطين سنة ١٩٠٠ ق.م.

● وعن دولة «آشور» يقول:

– إن دولة «آشور» نهضت فى عهد «شمشى أداد» الثانى سنة ١٧١٦ق.م.

---

(١) «ول ديورانت» قصة الحضارة: ٢/١٠ – ١٣. مرجع سابق.

– وإن مصر استولت على فلسطين وسوريا وحكمتهما من سنة ١٦٠٠ ق.م إلى سنة ١٣٦٠ق.م.

– وإن «سلما نصر» وحّد دولة آشور سنة ١٢٧٦ ق.م.

● وعن اليهود يقول «ول ديورانت»(١):

– إن اليهود استولوا على كنعان سنة ١٢٠٠ ق.م.

– وإن «تغلث فلاصر» الأول وسع دولة «آشور» وقضى على نفوذ اليهود من سنة ١١١٥ق.م إلى سنة ١٠٢٥ق.م.

– وإن ملوك اليهود:

● شاءول.

● ونبى الله داود عليه السلام.

● ونبى الله سليمان عليه السلام.

قد استعادوا ملك اليهود من سنة ١٠٢٥ق.م إلى سنة ٩٣٧ق.م.

● ويقول عن الحضارة الفينيقية:

– إن الحضارة الفينيقية قد دخلت عصرها الذهبى منذ سنة ١٠٠٠ق.م إلى سنة ٦٣٠ ق.م.

– وإن عصر «أرمينية» الذهبى بدأ سنة ٧٨٥ ق.م واستمر إلى سنة ٧٠٠ ق.م.

– وإن حضارة «عيلام» (السوس) سقطت سنة ٦٣٩ ق.م.

– وإن «نبوخذ نصر» أعاد إلى بابل استقلالها سنة ٦٢٥ ق.م واستولى على «أورشليم» سنة ٥٩٧ ق.م، وأسر اليهود فى بابل من سنة ٥٨٦ ق.م إلى سنة ٥٣٨ق.م أى ثمانية وأربعين عاماً.

● وعن دولة الفرس يقول:

– إن «قورش» الأول ملك الميديين والفرس من سنة ٥٥٥ق.م إلى سنة ٥٢٩ ق.م قد قام بأعمال هامة منها:

---

(١) السابق ٢/٢٠ – ٢١ ويلحظ ان المؤلف يهودى الهوى والتوجه كما يدرك ذلك اى قارئ فى كتابه قصة الحضارة.

- استيلاؤه على «سرويس» سنة ٥٤٦ ق.م.
- واستولى على بابل سنة ٥٣٩ ق.م.
- وهو الذى أنشأ الامبراطورية الفارسية.

– وإن ملك الفرس قد استمر من «قورش» من ٥٥٥ إلى ٥٢٩ ق.م، و«قمبيز» من ٥٢٩ إلى ٥٢٣ ق.م، و«دارا» الأول من ٥٢١ إلى ٤٨٥ ق.م إلى «خشيرشا» الأول ٤٨٥ إلى ٤٦٤ ق.م إلى «أخشو برش (أردشير)» الأول ٤٦٤ إلى ٤٢٣ ق.م إلى «دارا» الثانى ٤٢٣ إلى ٤٠٤ ق.م إلى «أخشوبرش» الثانى ٤٠٤ إلى ٣٥٦ ق.م إلى «أوكس» ٣٥٩ إلى ٣٣٨ ق.م إلى «دارا» الثالث ٣٣٨ إلى ٣٣٠ ق.م.

– وإن الإسكندر دخل «أورشليم» سنة ٣٣٤ ق.م وانه استولى على بابل سنة ٣٣١ ق.م، وانه منذ عام ٣٣١ ق.م أصبح الشرق الأدنى جزءاً من دولة الإسكندر.

١ – الشرق الأدنى القديم وحضاراته:

اتجهت الدراسات الحديثة إلى إطلاق مصطلح الشرق الأدنى سياسيًا وجغرافيًا على مفهومين:

أحدهما:

مجموعة بلدان ما يسمى بالهلال الخصيب (لبنان وسورية وفلسطين والعراق).

والآخر:

مجموعة البلدان التى يطلق عليها اليوم الشرق الأوسط، وذاك مفهوم أوسع من سابقه؛ إذ يضم البلدان الواقعة فى الجهة الشرقية للبحر المتوسط، بما فيها مصر وإيران وافغانستان.

– الشرق الأدنى – تاريخيًا – مصطلح يشمل جميع بلاد آسيا الجنوبية الغربية الممتدة جنوب روسيا والبحر الأسود، كما يشمل غربى الهند وافغانستان، كما تدخل فيه مصر لسببين:

أولهما: أنها كانت شديدة الاتصال بهذا الجزء من العالم.

والآخر: أنها كانت مركز إشعاع حضارى انتشرت منها الحضارة الشرقية إلى معظم بلدان العالم.

● ويتميز الشرق الأدنى - الذى يدخل فيه «الشرق الأوسط»[١] بأنه كان مركز الشئون البشرية، الآهل بالسكان وبالثقافات المتباينة، حيث نشأت الزراعة والتجارة، والخيل المستأنسة، والمركبات، وسُكّت النقود، وكتبت خطابات الاعتماد، ونشأت الحرف والصناعات، والشرائع والحكومات، وعلوم الرياضة والطب والحقن الشرجية، وطرق صرف المياه، والهندسة والفلك، والتقويم والساعات، وصُوِّرَت دائرة البروج، وعرفت الحروف الهجائية والكتابة، واخترع الورق والحبر، والفت الكتب، وشُيدت المكتبات والمدارس ونشأت الآداب والموسيقى والنحت وهندسة البناء، وصنع الخزف المصقول والأثاث الدقيق الجميل، ونشأت عقيدة التوحيد، ووحدة الزواج واستخدمت أدوات التجميل والحُلِيّ، وعرف النرد والداما[٢]، وفرضت ضريبة الدخل، واستخدمت المرضعات، وشربت الخمور.

ثم يواصل «ول ديورانت» قائلاً:

عرفت هذه الأشياء كلها، واستمدتْ منها أوربا وأمريكا ثقافتهما على مدى القرون عن طريق كريت واليونان والرومان، بل أخذتها عن بابل ومصر.

وأن اليونان لم ينشئوا الحضارة إنشاءً؛ لأن ما ورثوه منها أكثر مما ابتدعوه، وكانوا الوارث المدلَّل المتلاف لذخيرة من الفن والعلم مضى عليها ثلاثة آلاف من السنين، وجاءت إلى موانئهم مع مغانم الحرب والتجارة.

ثم يواصل قائلاً:

فإذا درسنا الشرق الأدنى وعظَّمنا شأنه فإنا بذلك نعترف بما علينا من دَيْن لما شادوا

---

(١) الشرق الأوسط مصطلح غربى استعمارى أشاع الغرب استعماله أثناء الحرب العالمية الثانية وجعلوه يضم: سوريا ولبنان وفلسطين والأردن والعراق والخليج العربى ومصر وتركيا وإيران وأفغانستان وليبيا وقبرص، والهدف من إطلاقه أن تدخل فيه إسرائيل من ناحية، وأن يقاوم مصطلح العالم العربى من ناحية أخرى.
وليس لهذا المصطلح ما يبرره تاريخيًا أو قوميًا أو اجتماعيًا، وإنما يدل على مركزية أوربا فى العالم، لأنه شرق أوسط بالنسبة لها.
والأولى عدم استعماله.

(٢) من الألعاب المتوارثة عنهم حتى يومنا هذا.

بحق صرح الحضارة الأوروبية والأمريكية، وهو دَيْن كان يجب أن يُؤَدى من زمن بعيد »[1].

● وإنما كان الشرق الأدنى كذلك – كما وصف « ول ديورانت » – لأنه اشتمل على حضارات عديدة قديمة منها:

* حضارة السومريين.

* وحضارة مصر القديمة.

* وحضارة بابل.

* وحضارة آشور.

* وحضارة الحيثيين.

* وحضارة الأرمن.

وكل هذه الحضارات تُعزَى إلى شعوب « هندأوربية » تسكن الأجزاء الشمالية من الشرق الأدنى، أما الأجزاء الوسطى والجنوبية منه، من آشور إلى شبه الجزيرة العربية فتسكنها شعوب سامية ذات حضارات متفاوتة مثل:

● حضارة العرب فى الجزيرة العربية.

● وحضارة الفينقيين فى سوريا وما جاورها[2].

■■■■

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة جـ ٢ من المجلد الأول صفحات ٩ – ١٤، عبارات وفقرات عديدة.

(٢) السابق.

ثالثا: مظاهر الجمال عند أهل الشرق الأدنى القديم

١ - السومريون:

عاش السومريون فى مدينة السوس القديمة التى يسميها بعض المؤرخين «عيلام» أى الأرض العالية(١).

وهذه المدينة أو هذه المنطقة تحد من شرقها بهضبة إيران، وفى هذه المنطقة كون السومريون حضارة يدعى بعض المؤرخين أنها تمتد إلى عشرين ألف سنة.

وقد عثر بعض العلماء على شواهد تدل على قيام ثقافة راقية فيها يرجع عهدها إلى سنة ٤٥٠٠ ق.م.

ولم يستطع المؤرخون الاهتداء إلى أصل السومريين أو جنسهم، وإنما أجمعوا على أنهم كانت لهم نظم تدل على حضارة من مفرداتها: الكتابة والوثائق التجارية، والتجارة التى تجوب الأقطار من مصر إلى الهند، وعجلات المركبات، وعجلات الخزَّاف، وقد سبقوا بهذه المركبات غيرهم من الشعوب.

- وقد امتلك السومريون بابل إلى جانب سومر، وعاشوا فى ظل هذه الحضارة ستة آلاف عام، حتى استولى على بلادهم البابليون.

- وقد أقام السومريون امبراطورية لا تقل عن امبراطورية مصر وبابل وآشور وفارس واليونان ورومة.

وظلت عاصمتهم «السوس» مدينة مزدهرة تعرف باسم: «شوشان» حينًا طويلاً من الزمان يعود بها بعض المؤرخين إلى ألوف السنين، ثم استمرت إلى القرن الرابع عشر الميلادى.

- وكان السومريون - وتلك حضارتهم - على مستوى رفيع من الإحساس بالجمال، ومن المهارة فى الفنون التى عبروا بها عن هذا الإحساس بالجمال.

---

(١) ذلك بلغة اليهود.

ومن مظاهر الفن والجمال عندهم:

- الكتابة:

حيث كتبوا على ألواح من الطين الطرىّ شأنهم فى ذلك شأن سكان ما بين النهرين، فلم يكتبوا بالمداد لأنه سريع الزوال ولم يكتبوا على الورق لأنه سريع العطب.

وقد كتبوا كل ما يعنيهم تسجيله كالعقود والشروط، والوثائق الرسمية، وسجلوا الممتلكات والأحكام القضائية والبيوع.. والسومريون هم الذين ابتدعوا الخط المسمارى.

- وابتدعوا الأشكال الأساسية للبيوت والهياكل والأعمدة والقباب والعقود التى تزين المبانى وتزيدها قوة وصلابة.

- وكانوا مغرمين ببناء القصور على الروابى، وكانوا يحصنونها بحيث يصعب الوصول إليها، لشدة ارتفاعها من ناحية، ولقوة بنائها من ناحية أخرى، فكانت قصوراً وحصوناً فى وقت واحد.

- واهتموا ببناء الهياكل حتى كانوا يستوردون حجارة بنائها من الأقطار البعيدة، وكانوا يقيمون الأعمدة والأفاريز، مصنوعة من النحاس ومطعمة بالأحجار الكريمة.

ومن أشهر هذه الهياكل هيكل «ناتاء» فى مدينة «أور»، وقد ظل طرازهم الطراز الجميل الدقيق الذى يحتذى به مَنْ يقيمون الهياكل فى أرض الجزيرة كلها، إذ كانت الهياكل تقام على الروابى وتعلوها أبراج قد تصل إلى سبعة أبراج فى الهيكل الواحد، فكانت من أكبر الهياكل وأجملها فى المدائن السومرية.

- وبرع السومريون فى صناعة الخزف لأنهم عرفوا آلة لصناعته هى العجلة عجلة الخزَّاف، كما برعوا فى صناعة مشغولات الذهب والفضة، فشكلوا منها: حُلِيًّا، ومزهريات، والأختام، والخناجر، وبعض صور الحيوان والطيور.

- واهتموا بجمال أثاث بيوتهم فجاء على درجة عالية من الجمال؛ فكانت بعض الأسرة مطعمة بالمعادن النفيسة، أو بالعاج، كما كان للكراسى أرجل تشبه أرجل السباع فى شكلها حيث صنعوا لها ما يشبه المخالب - وذلك على نحو ما كان يصنع المصريون القدماء.

٢ - البابليون والآشوريون :

عاش البابليون فى الألف الرابع قبل الميلاد، واستمروا فى ازدهار إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد .

- وكانت عقيدتهم تقوم على عبادة عدد من الآلهة؛ حيث عبدوا إلهًا للسماء واعتبروه أبًا للآلهة وملكًا عليهم، وعبدوا إلهًا للأرض، وإلهًا للبحر، وإلهًا للقمر، وإلهًا للشمس، وإلهًا للعدالة .

وهذه الآلهة عندهم لها علاقة قوية بالقيم السائدة فيهم، ومنها بالقطع القيم الجمالية .

- ومن الباحثين من قالوا : إن البابليين عبدوا « حمورابى » ملكهم ويقولون : إنه عاش ما بين سنتى ١٧٩٢ ق.م إلى سنة ١٧٥٠ ق.م .

- وقد أوتى البابليون حظًا وافرًا من الإحساس بالجمال على الرغم من انهماكهم الشديد فى الأعمال التجارية .

وللتعبير عن إحساسهم بالجمال لجأوا إلى الفن يعبرون به عن هذا الإحساس، وقد أخذ الفن عندهم أشكالاً وموضوعات نشير إلى بعضها فيما يلى :

- أنشأوا المسلَّة القانونية، ونقشوا على جوانبها بالخط المسمارى جميع الشرائع السومرية القديمة .
- وصنعوا قطع القرميد وطلوها طلاء جميلاً بعد صقلها بعناية فائقة .
- وصنعوا قطع الأحجار التى لها بريق ثم استعملوها فى مبانيهم قصوراً وقبوراً .
- وطرّزوا الثياب تطريزاً جميلاً مما أكسبها رونقًا وبهاء .

- وبرعوا فى صناعة السجاجيد الوثيرة، المصنوعة على درجة عالية من الإتقان والجمال والشكل، والأحجام المتنوعة .

- كما برعوا فى صناعة الأقمشة وزركشتها، وعلقوها على الجدران إشادة بها وبما هى عليه من الجمال .

- وتفننوا فى صناعة المناضد المرتكزة على قواعد جميلة والمستعملة فى أغراض عديدة، وكذلك كان شأنهم فى صناعة الأَسِرَّة والكراسى زركشةً ومتانةً وجمالاً .

- وهاموا بالمقتنيات الجميلة المصنوعة من الذهب أو الفضة أو الأحجار الكريمة، أو البرونز أو النحاس أو الحديد، واهتموا كثيراً بدقة صنعها وجمالها مع نفعها فى احتياجاتهم المعيشية، إضافة إلى تجميل الأمكنة والحوائط بها.

- وصنعوا التماثيل لمعبوداتهم ولما يقدسون ويحبون، واتخذوها من الذهب على اعتبار أنه عندهم أنفس المعادن.

- وتفننوا فى صناعة آلات الطرب كالناى والقانون والقيثار ومزامير القِرَب، والطبول والقرون، ومزامير الغاب، والصنوج والدفوف، وزركشوها وحلّوها بحُلًى عديدة، وقد ظل بعضها موجوداً لفترات طويلة بعدهم.

وكانت تلك الأدوات تستعمل فى الهياكل والقصور وفى مناسبات عديدة.

- كل هذه المظاهر للجمال فى تلك الفنون تؤكد إحساس البابليين بالجمال، وتؤكد حسن تقدير للجميل من الأشياء التى حاكوها بفنونهم الجميلة.

هذا عن البابليين.

أما الآشوريون:

فهم منسوبون إلى إلههم «آشور» الذى ميزوه عن سائر الآلهة بأنه لم يلد ولم يولد، ولا قرينة له.

- ولهم فى أصل نظرية الحياة رؤية تخصهم إذ يعتبرون الماء أصل كل شىء ومنشاه، سواء أكان ذلك الشىء حيًّا أم ميتاً.

- وقد تضمن قانون ملكهم «حمورابى» كثيراً من القيم الخلقية، والاجتماعية بل السياسية، وكل هذه القيم أخلاقية ذات علاقة وثيقة بالقيم الجمالية التى كانت تبدو فى آنيتهم وحليهم ومبانيهم، وتمثل مظهراً للجمال.

- وفى مجال الفنون حذا الآشوريون حذو سابقيهم ومعلميهم البابليين فى البداية، ثم لم يمض طويل وقت حتى فاقوا البابليين فى النقوش وفى الحُلِىّ، وفى صهر المعادن.

- وكان لإحساسهم بالجمال أثر بارز فى فنونهم التى عبروا بها عن هذا الإحساس بالجمال.

- **ومن مظاهر الجمال عندهم ما عبرت عنه فنونهم فى:**

- صهر المعادن والبراعة فى تشكيلها والتفنن فى صناعتها، وقد تمثلت فنونهم المعدنية فى

الحلى التى صنعوها للملوك والأشراف رجالاً ونساءً، وللكهنة، التى عمروا بها القصور والهياكل.

- وبناء الهياكل والقصور بالحجارة البالغة الروعة والجمال.
- وصناعة الأثاث الفخم من أحسن الأخشاب وأثمنها، وتقوية هذه الأخشاب بالمعادن، وترصيعها بالذهب والفضة والبرونز، والأحجار الكريمة.
- والتفنن فى كل ما يحلُّون به الأبواب من معادن، مما لا يزال بعضه باقيًا حتى اليوم.
- وبراعتهم فى التصوير بالطلاء الممزوج بالغِراء وصفار البيض، مما يجعله قويًا زاهى اللون، وقد كان التصوير عند الآشوريين مما يميزهم عن سواهم ممن مارسوا التصوير.

على أن التصوير كان فى الغالب فنًا تابعًا للحرب، يسير فى ركابها دائمًا ويصور آلاتها من حراب وسيوف ونحوها، كما يعنى بتصوير الحصان والفارس الذى يمتطيه.

- وتفوقهم فى فن النقش القليل البروز، وبخاصة فى أيام ملكوهم: سرجون الثانى، وسنحريب، وعسرهدن، وآشور بانيبال، مما لا يزال باقيًا إلى اليوم، ومما هو موجود فى المتحف البريطانى اليوم[1].
- وبراعتهم فى فن نحت الحيوان مما جعلهم فى ذلك متفوقين على من سواهم، وبخاصة: الأسود، والخيول، والحمير، والكلاب، والدببة، والظباء، والطيور، والجنادب، ونحوها.

● كل تلك مظاهر وتعبيرات عن إحساسهم بالجمال وقدرتهم على تذوقه، وعلى التعبير عنه فى فنون جميلة.

٣ - المصريون:

كان الإحساس بالجمال والتعبير عنه بالفنون العديدة صفة ثابتة عند المصريين منذ عهودهم الثلاثة المعروفة: عهد الدولة القديمة، وعهد الدولة الوسطى، وعهد الامبراطورية.

---

(١) لا ننكر مجهود علماء الآثار الغربيين الذين نقبوا عن الآثار وكشفوا كثيراً من المكنونات والكنوز فى باطن الارض، بل نقدم إليهم الشكر والعرفان.
لكن وجود هذه الآثار فى متاحف الغرب؛ أوربا وبخاصة الدول التى مارست الاستعمار، ومتاحف أمريكا له دلالة مخجلة للغربيين إذ كيف انتقلت إليهم هذه الآثار وهى ليست من تاريخهم ولا من تراثهم؟ هل انتقلت عن طريق السرقة أو الاغتصاب؟ كلا الأمرين أسوأ من الآخر!!

– وفى عهد الملوك الساويين كان الفن عند المصريين من أعظم عناصر الحضارة إذ كان فنًا ناضجًا راقيًا.

ومن مظاهر هذا الفن فى عهد هؤلاء الملوك الساويين ما نشير إليه فى الأعمال الضخمة التالية:

- تشييد المعابد الضخمة.
- ونحت التماثيل القوية من أحجار متينة.
- وبناء المقابر بالأحجار وتزيينها بالنقوش.
- والتفنن فى بناء الأعمدة والأقواس والعقود.
- والتفنن فى نقوش الزينة الذى بلغ حداً لم يبلغه غيرهم فى تاريخ كثير من دول العالم أو فى كل دول العالم كما ذهب إلى ذلك بعض المؤرخين.
- وإنشاء الحدائق العامة فى الحواضر، والحدائق الخاصة فى منازل الموسرين، مع الإبداع فى تنسيقها وتنوع ما يزرع فيها.

– ومما قرره علماء تاريخ مصر القديمة أن إحساس المصريين بالجمال كان عميقًا وراقيًا؛ بدليل هذه الثروة فى الأعمال الفنية التى تركوها، والتى كشف عنها مؤخراً.

– وأن ظهور الأعمال الفنية عندهم بدأ مبكراً جداً فى العصر الطينى (عصر ما قبل الأسرات) أى حوالى سنة ٣٤٠٠ ق.م.

وأن هذه الأعمال الفنية قد تمثلت فى تاريخ مصر بعهوده الثلاثة فيما يلى:

- مصنوعات متقنة متنوعة صنعت من الفخار أو الحجر بأنواعه العديدة مثل: الديوريت، والشيست، والمرمر، وغيرها.
- ومبانٍ ضخمة فخمة من المعابد وقصور الحكام، ومدافنهم، مع حسن اختيار لمواقعها على حافة الصحراء لبعدها عن مياه فيضان النيل مما ضمن لها البقاء الوفًا من السنين.
- وأهرامات ضخمة تطور بناؤها وهندستها على عهد الملك خوفو والأسرة الرابعة كلها، حيث بدأ المهندسون المعماريون يستعملون حجر الجرانيت وحجر البازلت الشديدى

الصلابة، بدلاً من الحجر الجيرى فى البناء وفى كساء الجدران وإقامة الأعمدة والمسلات.

- وصنع بعض الأعمدة من الجرانيت على شكل سيقان النخل وغيرها من الأشكال النباتية الجميلة مع صقلها صقلاً جميلاً، ورصف المداخل إلى المعابد والقصور بحجر المرمر.
- وإقامة المصاطب ونقش جدرانها بصلوات دينية مع نقش اسم المتوفى وألقابه، وأحيانًا أسماء أقاربه.
- وإقامة الأسوار العالية ذات الشرفات، حول المدن وحول القصور أو الجبانات، مع النقش عليها.
- وصناعة التماثيل بل التفنن فى صنعها وفى نقوشها، وتنوع مادة صناعتها فهى من الخشب حينًا ومن الحجر أحيانًا، ومن المعدن أو العاج حسب أهمية من تمثله.

وكان النقش على التماثيل بارزاً فى كثير من الأحيان حتى يطاول الزمان، وغير بارز فى أحيان أخرى.

وكان موضوع التماثيل هو: الملك أو الملكة، أو بعض مشاهير الأسرة المالكة، والكاهن، وشيخ البلد، والكاتب، وبعض الطيور.

- وقد أبدعوا فى النقوش على جدران المقابر لاعتقادهم بحياة بعد الموت، فكانوا ينقشون على جدران المقابر كل ما يتصورون أن الميت فى حاجة إليه فى الآخرة.
- وبرعوا فى الكتابة، حيث اعتمدوا فيها على فنى الرسم والنقش، فكانت ترسم أولاً ثم تنقش.
- كما أبدعوا فى صناعة الحُلِىّ والمجوهرات وبخاصة فيما يستعمله الملوك والملكات والأمراء والأميرات.
- كل هذا التفنن فى هذه المصنوعات والمنشئات، الذى بقى حتى اليوم يدل دلالة واضحة على إحساسهم بالجمال وتقديرهم للجمال فى كل شىء يحيط بهم، أو يحاكونه.

٤ - الإسرائيليون:

ينسبون إلى إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام والد يوسف عليه السلام.

وهم أهل توحيد يعبدون الله وحده، ربهم ورب آبائهم الأولين إسحق وإبراهيم عليهما السلام، كما جاء ذلك فى قول الله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

ولكنهم بعد ذلك ضلوا وكفروا بعيسى وزعموا أنهم قتلوه: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ..﴾ [النساء: ١٥٧] كما كفروا بمحمد ﷺ وحاربوه وحاولوا اغتياله أكثر من مرة، ثم حرفوا وبدلوا فى التوراة حتى جاءت على نحو ما هى عليه اليوم.

ويقول «ول ديورانت» ما ننقله عنه بنصه: «وفى التوراة فكرة فريدة عن الخلق، خلق العالم القديم، إذ تقول: إن الله خلق العالم فى ستة أيام، إذ خلق النور، ثم قال: ليكن جَلَدٌ وسط المياه، وليكن فاصلا بين مياه فوقه ومياه تحته، وسماه سماءً، ثم ظهر اليبس أى الأرض بتجمع المياه فى مكان واحد، وقال الله لتنبت الأرض نباتًا عشبًا وشجرًا، ولتكن نيرات فى جَلَد السماء لتفصل بين الليل والنهار، ولتَفِضْ المياه زحَّافات وطيورًا، ولتخرج ذوات نفس حية بحسب أصنافها، ثم قال الله فى اليوم السادس: لنصنع الإنسان على صورتنا ومثالنا»(١).

ثم يعلق «ول ديورانت» على هذا الكلام بقوله:

وهذا التعاقب والترتيب فى الخلق ملحوظ فيه المنطق والفن فى آن واحد:

أما عن المنطق فإن الأشياء يَظْهر كل منها بعد خلق ما يعتبر ضروريًا لوجوده.

وأما عن الفن؛ فإن الأيام الثلاثة الأولى موضوعها تمييز الأشياء بعضها من بعض، والثلاثة الأخرى موضعها تزيين الأشياء.

ثم يواصل قائلاً:

– وقد أخذ الفن عند اليهود على عهد سليمان (عليه السلام) شكلين أو عملين لا ثالث لهما هما:

● الهيكل.

(١) نص التوراة مختلف كثيراً عما نقل «ول ديورانت» ولا ادرى لماذا فعل «ديورانت» ذلك؟ انظر النص فى التوراة: الإصحاح الأول من سفر التكوين – الكتاب المقدس – العهد القديم ط القاهرة: ١٩٦٢م.

● وقصر سليمان نفسه.

- أما الهيكل فأول من فكر فى بنائه سليمان (عليه السلام) وقد جمع له من أهل الثراء وأعلن فيهم عزمه على بنائه، وخصه بكميات كبيرة من الذهب والفضة والشبَّة والحديد والخشب والحجارة الكريمة من مخازنه الخاصة.

ثم جمع له التبرعات.

وشيده فوق الربوة وقامت جدرانه كأنها امتداد للمنحدرات الصخرية.

وكان اليهود يعتقدون أنه إحدى عجائب الدنيا؛ وذلك أنهم لم يروا هياكل طيبة، وبابل، ونينوى التى لا يعد هيكلهم إلى جوارها شيئًا مذكوراً.

وشيدت جدران الهيكل من حجارة مربعة كبيرة، وكان سقفه وأعمدته من خشب الأرز والزيتون المنقوشة.

وقد بنى عن طريق السخرة، كما كانت العادة فى تلك الأيام، وقد بنى فى سبع سنوات.

- وأما قصر سليمان (عليه السلام) أو صرحه، فقد شيد فى ثلاثة عشر عامًا، وكان أكبر من الهيكل، بل إن جناحًا واحداً من أجنحته كان أكبر من الهيكل، بل أربعة أمثال الهيكل.

وكان صرح سليمان (عليه السلام) مزينًا بالتماثيل المنحوتة والنقوش المحفورة، والصور المرسومة على الطراز الأشورى.

ويقول المؤرخون: إن هذا القصر الضخم لم يبق منه حجر واحد بل إن موضعه نفسه لا يعرفه أحد على وجه التحديد.

٥ - الفُرْس:

أوضح ما يميز الفرس أنهم أمة محاربة همُّها الفتح والتوسع، وإقامة امبراطورية عظيمة، وقد نجحوا فى ذلك إلى حد كبير، على يد «قورش» و«دارا» الأول، وغيرهما من ملوكهم وقادتهم.

- وكان اهتمام الفرس بالفن يأتى فى الدرجة الثانية بعد الحرب، فلم يبدعوا فيه إبداع قدماء المصريين مثلاً، إذ كانوا يوجهون اهتمامهم بالفنون التى تفِد إليهم من البلاد التى فتحوها.

- وليس معنى ذلك أن الفنون عندهم فى الدرجة الثانية وأنهم لم يتذوقوا الجمال فى الأشياء التى تحيط بهم، أو أنهم لم يحسوا به الإحساس المرهف، وإنما كان لهم فى التذوق الجمالى قدم راسخة، وعبروا عن ذلك الإحساس فى المجالات(١) التالية:

● القصور والمعابد والمقابر التى شادوها فى عهود ملكوهم العظام مثل «قورش» وابنه «قمبيز» و«دارا الأول».

● والأعمدة السامقة الارتفاع التى لم يصل إلى ارتفاعها معظم الأعمدة فى البلاد الأخرى، إذ كان يبلغ ارتفاع الأعمدة فى فارس أربعة وستين قدمًا، وفى جذوع هذه الأعمدة حزوز بلغ عددها ستة وأربعين حزًا.

● والدرج الحجرية والأرصفة والأعمدة التى كشفت عن «برسبوليس»، تلك التى تميزت بالارتفاع والسعة وتزيين جوانبها بالتماثيل والنقوش على جدرانها نقوشًا بارزة.

● والجدران المصنوعة من الآجُرّ المغطاة بالقرميد المصقول الذى رسمت عليه صور أزهار وحيوانات.

● والبيوت الجميلة، والحدائق الغناء التى تتسع أحيانًا لتكون بساتين، صالحة للصيد لأنها مسارح للحيوان.

● والأثاث المنزلى القيم الذى تمثل فى:

* النُضُد المصفحة برقائق الذهب والفضة أو المطعمة بهما.

* والطنافس اللينة التى جمعت عديداً من الألوان، وكانت هذه الطنافس تغرس بها أرض حجراتهم.

● والمزهريات الرائعة النقش التى يزينون بها نضدهم ورفوفهم، وآنية الذهب والفضة التى تستعمل للطعام والشراب، وكانت فى غاية الإتقان فى الصنع.

● والجواهر الكثيرة المتنوعة التى يزينون بها تيجانهم، وكانت جيدة الصنعة قد أحسنوا اختيار نوعها. والخلاخيل والأحذية المذهبة، وأحيانًا يزين بها الرجال أعناقهم وآذانهم وأذرعتهم، والحُلى ذات الأشكال الغريبة التى تمثل عندهم ملامح تخيلوها للشياطين.

---

(١) يرى بعض الباحثين ومنهم «ول ديورانت» أن الفرس لم يعبروا عما أحسوا به من جمال وإنما عَبَّر لهم عن ذلك الفنانون الذين يعيشون فى بلادهم وإن كانوا أجانب عنهم، وهذا رأى لا يُسلَّم به..!!

– وكان الفن الفارسى متأثراً بالفنون فى البلاد المحيطة بهم، شأنهم فى ذلك شأن سائر الناس، الذين يستعيرون الفنون بعضهم من بعض.

– وما من شك فى أن الفن الفارسى قد ارتكز – عند الفنانين – على إحساسهم العميق بالجمال المحيط بهم، وبالقيم الجمالية السائدة لديهم حيث ذخرت بلادهم ألوف السنين بالجمال بكل أنواعه وأشكاله.

حتى عندما هزمت فارس ووقعت فى قبضة الإسكندر الأكبر بعد قتال عنيف بينه وبين «دارا الثالث» ظلت بلادهم حافلة بالفنون العديدة التى تعبر عن إحساسهم بالجمال، وتنم عن تذوقهم للجمال والفن.

■■■■

رابعًا: الشرق الأقصى القديم وحضاراته

يقصد به من حيث المكان رقعة فسيحة بل مترامية الأطراف تضم: الصين، واليابان، وكوريا، وفيتنام، ولاوس، وكمبوديا، وتايلاند، والملايو، وأندونيسيا، والفلبين، والهند، كما تشمل شرقى سيبيريا.

والحضارات القديمة فى الشرق الأقصى أشهرها ثلاث:

حضارة الهند.

وحضارة الصين.

وحضارة اليابان.

وتلك هى التى سنتحدث عنها وعن إحساس أهلها بالجمال، وعن فنونهم التى عبروا بها عن هذا الإحساس بالجمال.

مظاهر الجمال عند أهل الشرق الأقصى القديم:

أ - الهند:

الهند شبه جزيرة فسيحة الأرجاء تبلغ مساحتها مليونى متر مربع تقريبًا، يعيش فيها خمس سكان العالم تقريبًا.

- وفى الهند كثير من المعابد الضخمة لآلهة الهندوس التى تنتشر من التبت إلى سيلان، ومن كمبوديا إلى جاوة.

- وربما كانت الهند أغنى بالفلسفة والفلاسفة من كثير من البلدان التى أخذت الشهرة بالفلسفة والفلاسفة كاليونان؛ ذلك ما ردَّده كثير من مؤرخى الفلسفة والفكر، حيث قالوا: إن الهند أمة فلسفية قبل كل شىء، واستدلوا على ذلك بأن الهند لها من الألفاظ «السنسكريتية» لغتهم القديمة النموذجية، التى تعبر عن الفكر الفلسفى والدينى أكثر مما فى اليونانية واللاتينية والجرمانية مجتمعةً.

- والهنود قد عبروا عن إحساسهم بالجمال من خلال فنون عديدة تمثلت فى:

● طَرْق المعادن وتطويعها لكى يصنعوا منها ما يشاءون من الأشياء.

● والتفنن فى صناعة الحُلىّ وأدوات الزينة.

● والإبداع فى الرسوم الزخرفية.

● ونحت العاج والخشب بصور الحيوان والنبات، واختصاص العاج بأن ينحتوا منه الآلهة التى يعبدون.

● ونحت الأوانى الصغيرة من النحاس وغيره لحفظ الدهون والعطور، والكحل ومواد التزين والعلاج.

● والتفوق فى صناعة العقود والخرزات والأمشاط، والمشابك، مع زخرفة ذلك بصور النبات والحيوان.

● والتفوق فى طلاء الذهب بألوان الميناء.

● والإبداع فى نسج الأقمشة ببراعة لم يساوهم فيها أهل حضارة أخرى، مما جعل منسوجاتهم مضرب المثل فى الجمال والدقة وجودة الصباغة.

● والتنوع الجميل فى نسج الشيلان، وتوشيتها توشية دقيقة مما جعل الشيلان الكشميرية أكثر انتشاراً من سواها.

ب – الصين:

بلاد الصين تضم أقوامًا مستنيرين كما قال الفيلسوف: «ديدروا»[1] عنهم: «أولئك قوم يفوقون من عداهم من الآسيويين فى قدم عهدهم، وفى فنونهم وعقليتهم وحكمتهم وحسن سياستهم، وفى تذوقهم للفلسفة، بل إنهم فى رأى بعض المؤلفين ليضارعون فى هذه الأمور كلها أرقى الشعوب الأوربية وأعظمها استنارة».

– ويقول بعض المؤرخين: إن الصينيين مجمعون إلا قليلاً منهم، على أن أهل أمريكا وأوربا برابرة همج، وظل ذلك رأيهم حتى سنة ١٨٦٠م، حتى إن بعض معاهدات الغرب معهم حديثًا اشترطت عدم إطلاق اسم الهمج أو البربر على الغربيين.

– وقد تميزت الصين وأهلها منذ ما يقرب من ثلاثة آلاف عام بصفتين:

● طلب الحكمة؛ أى الفلسفة.

(١) «ديدروا» فيلسوف مادى فرنسى موسوعى وناقد أدبى وكاتب مسرحيات (١٧١٣ – ١٧٧٤ م).

● والهيام بالجمال.

– وطلب الحكمة عندهم لم يكن متجهًا إلى ما وراء الطبيعة كما فعل غيرهم، وإنما كانت فلسفتهم متجهة إلى النواحى العملية الموظفة لخدمة الفرد والمجتمع وترقيتهما.

– وحبهم للجمال لم يكن مجرد إحساس كامنٍ فى نفوسهم، وإنما كان رباطا بين الجمال والمنفعة، وتزيينا للحياة اليومية.

– وكان التعبير عن الإحساس بالجمال عندهم متمثلاً فى كثرة ما لديهم من أدوات جميلة تستخدم فى الحياة اليومية دعمًا لفكرة ارتباط الجمال والفن بالمنفعة، ومن مظاهر ذلك:

● الإبهار فى تجميل الأجسام والأشياء.

● والتفنن فى صناعة آنية الطعام والشراب وتجميلها.

● والبراعة والجمال فى بناء المعابد.

● والدقة والجمال فى النقش على الخشب وعلى الأحجار.

● والمهارة فى صناعة الأثاث المنزلى، وبخاصة المراوح الخشبية التى يبردون بها وجوههم.

● والبراعة فى صناعة الأوانى من البرونز، الذى صنعوا منه بعض آلهتهم وعديداً من أسلحتهم، وأنواعًا من المرايا والنواقيس والمزهريات والمباخر والطبول وغيرها.

● وابتكار فن الطلاء باللبن الذى يسقط من أغصان بعض الأشجار، أو يعصر منها، ثم يغلى ويصفَّى ثم يطلى به الخشب الرقيق والمعادن والخزف، ثم يجفَّف.

● ومن مظاهر الفن عندهم حروف الكتابة.

– هكذا عبَّر الصينيون عن إحساسهم بالجمال فى هذه الفنون الجميلة والصناعات الدقيقة والصور والتحف وغيرها.

جـ – اليابان:

اتفق أكثر المؤرخين على أن الأصول التاريخية لليابان قد ضاعت كما ضاعت الأصول التاريخية لكثير من الأمم.

كما اتفق معظم المؤرخين على أن الجنس اليابانى مزيج من ثلاثة عناصر هى:

● عنصر بدائى أبيض وفد إلى اليابان من منطقة نهر أمور فى العصر الحجرى الأخير.

- وعنصر أصفر وفد إلى اليابان من كوريا.
- وعنصر قاتم اللون وفد إلى اليابان من الملايو وأندونيسيا متسربًا من الجزر الجنوبية.

– واتفق المؤرخون على أن معظم ما عرف عن اليابان عرف بعد ميلاد المسيح عليه السلام.

– وقد تمكنت الديانة البوذية من اليابانيين، حتى اعتبرت أشهر ديانة عندهم على الرغم مما وفد عليهم من ديانات.

– واشتبكت اليابان مع كوريا، فهجموا عليها وحاربوها حربًا ضارية.

– كما اشتبكوا فى حرب مع «الجزويت» الذين يمثلون المسيحية ويعملون على نشرها فى اليابان، فانتصروا عليهم وطردوهم بعد أن أعطوهم مهلة للمغادرة والرحيل.

أما الفن عندهم كوسيلة من وسائل التعبير عن الإحساس بالجمال فقد انتقل إليهم معظمه من الصين والهند وآشور واليونان، كما يرى ذلك بعض الباحثين.

ومن مظاهر التعبير بالفنون عن الإحساس بالجمال ما نشير إليه فيما يلى:

- الإكثار من بناء المعابد والأضرحة والقصور الضخمة المتقنة البناء، الباهرة الجمال والجلال على الرغم من أن بعضها كان مبنيا من المعادن أو الأخشاب.
- والبراعة فى صناعة الخزف وروعه تلوينه.
- والتفنن فى صناعة السيوف وتزيينها بزينة ساحرة الجمال.
- والتفوق فى فن التصوير، وبخاصة فى مجال الصور المحفورة، مع ألوان جميلة لكل تلك المصوَّرات.
- والأناقة والجمال فى بناء البيت وجماله ونظافته، ودقة كل شىء فيه.
- والبراعة فى الرسم والنقش على الخشب أو العاج فى مساحة منهما صغيرة لا تزيد على بوصة مربعة أو أقل من ذلك، مما جعل فى اليابان تراثًا من الزخارف الخشبية التى لا يوجد له نظير فى القارة الآسيوية معظمها.
- والإقبال على الموسيقى والغناء فى المعابد وفى حفلات تنصيب الملوك والحكام والقادة.

وهذا التعبير عن الإحساس بالجمال فى هذه الفنون يؤكد أن لدى اليابانيين من

الإحساس بالجمال ومن القيم الجمالية، ما جعلهم يحسون بجمال ما فى الكون من ناس وأشياء.

وبعد هذه الجولة السريعة فى الحضارات الشرقية قديمها ووسيطها أو ما كان حديثًا نسبيًا منها كاليابان مثلاً؛ يتبين لنا أن الإحساس بالجمال وتقديره ومحاكاته فى فنون عديدة – تحدثنا عن معظمها – يكاد يكون قاسمًا مشتركًا بين شعوب تلك الحضارات جميعًا، مع تفاوت بينهم فى القدم والعراقة، ومع اختلاف يلحظ فى درجة جمال التعبير عن هذا الجمال، ومع اقتناع بأن الخلف من أهل تلك الحضارات قد أخذوا عن السلف من أهل الحضارات التى سبقتهم.

● ويصح لنا – بعد هذه الجولة – أن نقول: إن الإحساس بجمال مخلوقات الله العديدة هو فطرة ركزها الله فى طباع الناس، لم يحرم منها من عاشوا فى أزمان سحيقة البعد التاريخى، أيام كانت الحضارات الإنسانية تخطو خطواتها الأولى فى تاريخ الجمال والفن، نقول ذلك ونحن مطمئنون إلى صوابه وصدقه.

■■■■

الفصل الثانى

الجمال والفن.. مذاهبهما ومدارسهما

ويتناول :

أولاً: الجمال والفن.

ثانياً: الجمالية:

١ – المدارس الجمالية:

- السفسطائية.
- السقراطية.
- الأفلاطونية.
- الأرسطية.
- الأفلوطينية.

٢ – الجمال والجمالية فى أوربا فى عصور الظلام (القرون الوسطى).

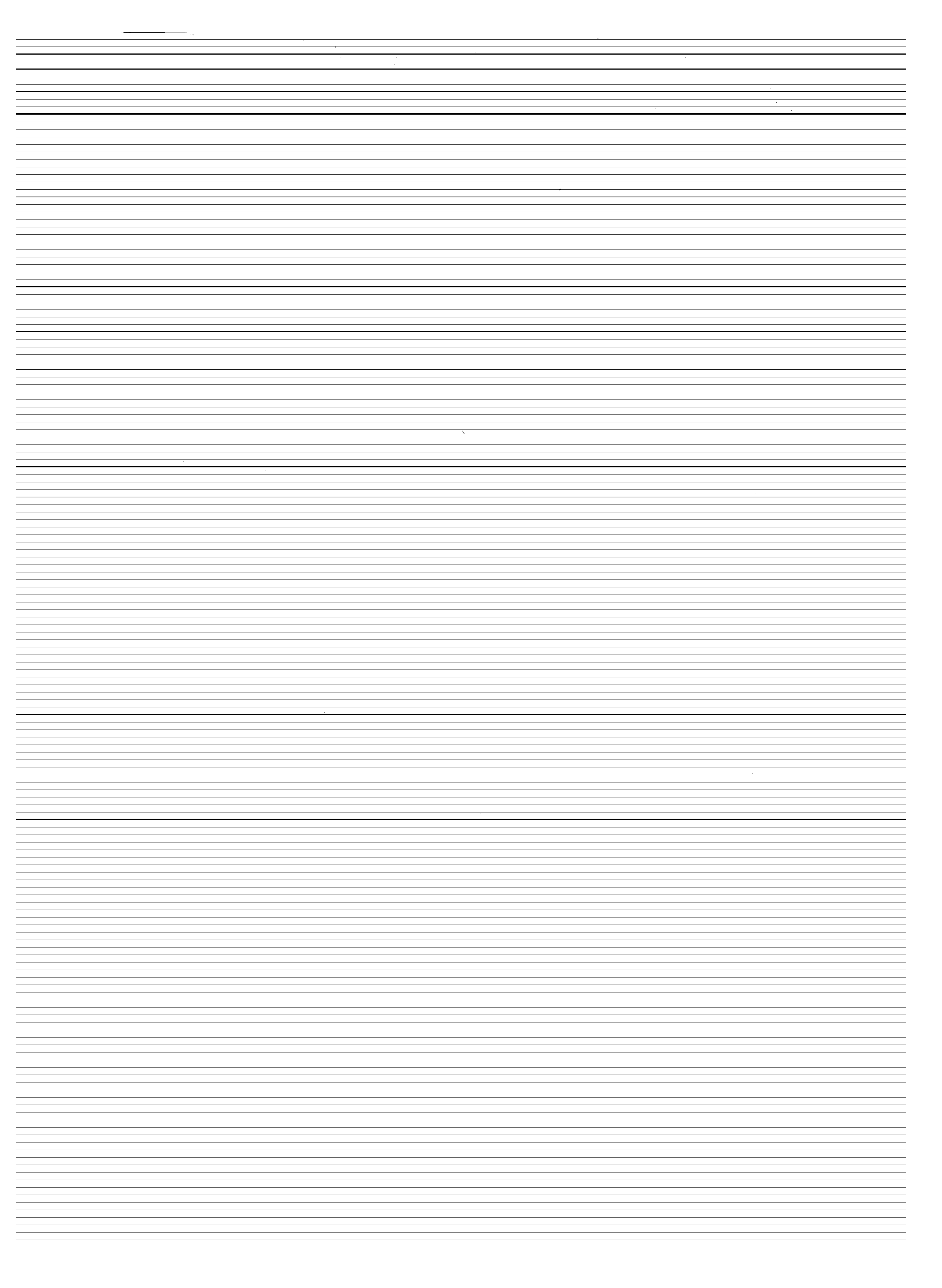
٣ – الجمال والجمالية فى عصر النهضة الأوربية:

أ – أعلام النهضة الأوربية فى القرون الثلاثة قبل القرن العشرين.

ب – أعلام النهضة الأوربية فى القرن العشرين.

٤ – الجمال والجمالية فى العالم العربى فى القرن العشرين.

ثالثاً: الفن ومدارسه فى العالم العربى المعاصر.



الجمال والفن كالروح والجسد بالنسبة للإنسان، الجمال فكرة ومعنى، والفن عمل يدرك بإحدى الحواس يتجلى فيه الجمال.

- الجمال يُحَسُّ ويتذوق عن طريق العين فى المرئيات الجميلة، وعن طريق الأذن فى المسموعات الجميلة وعن الطرق الأخرى فى كل ما هو جميل، لكن هذه الحواس لا تدرك الجمال إلا من خلال العقل.

والجمال يتجسد فى الفنون الجميلة ابتداء من الكلام أدبا وشعراً، ومروراً بالموسيقى، والرسم والنحت، وسائر الفنون الجميلة.

والجمال - كما يقول بعض الفلاسفة - خير مطلق، أى أنه دائماً يرضى فى الإنسان وظيفة طبيعية، أو يحقق له حاجة، وإذا أرضى هذه الوظيفة أو تلك الحاجة فقد حقق للإنسان لذة وجلب له منفعة.

- الفن تعبير عن الجمال أو الإحساس بالجمال من خلال أنواعه العديدة التشكيلية التى تشمل الرسم والنحت والهندسة المعمارية أو الفنون الإيقاعية التى تشمل الموسيقى والشعر وغيرهما.

والفن عند كثير من الفنانين لا يكتفى بالتعبير عن الواقع وتصويره وإنما يستطيع أن يعبر عن غير المرئى بإشارات طبيعية متجلية، وهو - كما سنوضح بعد قليل - ظاهرة اجتماعية تعبر بل تجيب عن كثير من التساؤلات فى المجتمع، وتدل على المهارة والصنعة والإتقان فى الجهد الذى يبذل لإنتاج كل ما هو جميل.

ومن المتفق عليه عند المفكرين عموماً والفلاسفة خصوصاً أن الجمال قيمة، بل قيمة إيجابية، والفنون الجميلة كلها إنما هى ترجمة لهذه القيم، وتعبير عنها تعبيراً عملياً - لا نظرياً - جميلاً.

- وإذا كان الخير فى الحياة الإنسانية هو قوام الأخلاق، فإن هذا الخير يحقق وجوده عن طريق الفنون.

وإذا كانت وظيفة الأخلاق تهذيب الحياة الإنسانية وتنسيقها والملاءمة بين مفرداتها، فإن الفن الجميل هو إحدى وسائل هذا التهذيب وهذا التنسيق وتلك الملاءمة.

● والتجارب الإنسانية طريق لاحب إلى تغذية الفنون ونمائها، والفنون هى التى تنشىء الصور الجمالية فى حياة الإنسان.

● والمذهب: الطريقة، أو المعتقد الذى يُذْهَب إليه، أو التوجه إليه، فيقال: ذهب مذهبًا حسنًا.

والمذهب يعنى مجموعة الآراء والنظريات العلمية والفلسفية التى ارتبط بعضها ببعض ارتباطًا وثيقًا يجعل منها وحدة منسقة، وهو يعنى فى الثقافة العامة ما تعنيه كلمة مَدْرسة مع بعض الفروق بينهما.

فالمدرسة: جماعة من المفكرين أو الفلاسفة أو الباحثين تعتنق مذهبًا معينًا أو تقول برأى مشترك، وهى بهذا التعريف قريبة فى المعنى من المذهب، ويقال: هو من مدرسة فلان أى على رأيه ومذهبه.

● وللجمال والجمالية، وللفنون كذلك مذاهب ومدارس نرجو أن نوضحها فى هذه الصفحات، والله المستعان.

■■■■

أولاً: الجمال والفن

الجمال:

الجمال قيمة من قيم ثلاث تعارف عليها العلماء والمفكرون والفلاسفة، ولازموا بينها بحيث لا ينفك بعضها عن بعض فى نظرهم إلا ويحدث نقص أو قصور.

هذه القيم الثلاث هى: الحق والخير والجمال.

وهذه الثلاثة مجتمعة أو متفرقة لابد منها ومن كل منها لكى تكون حياة الإنسان الدنيا والأخرى ذات جدوى، إذ لا تتصور حياة الإنسان وقد فقدت واحدة من هذه القيم الثلاث:

- فإذا فقدت حياة الإنسان الحق حَلَّ محله الباطل والضلال والهوى والظلم والخلل والاضطراب.

- وإذا فقدت الخير، حلّ محله الشر والفساد والتعادى وأكل القوى الضعيف، وظلم الغنى الفقير.

- وإذا فقدتْ حياة الإنسان الجمال، حَلَّ محله القبح والكآبة وجمود القلب وكسل الروح والعقل، وتأذَّتْ الحواس بالمناظر الرديئة، وجاء الضيق والاكتئاب، ووجدت التعاسة طريقها إلى حياة الإنسان.

● وإذا كان الحق ينتمى إلى عالم الواقع والعقل والطبيعة الملموسة المدركة بسائر الحواس الإنسانية؛ فإن الخيْر والجمال ينتميان إلى عالم الروح والعقل، عالم الخيال والتأمل، على أن الفرق بين الخير والجمال موجود وهو:

- أن الخير ينتمى إلى القيم الخلقية والفضائل، ويجتنب الرذائل والشرور والآثام والإضرار بالناس.

- وأن الجمال ينتمى إلى القيم الفنية الجمالية، التى تضفى على حياة الإنسان تقبلاً وتشيع فى نفسه الرضا واللذة.

وقد يحدث بين أحد الفنانين والخير والخُلُق تنازع وخصام حين لا يتقيد فى فنه بالخير والخلق الحميد، وذلك لا يضر الخير ولا القيم الخلقية الفاضلة، ولا يؤيد الشر والقيم الخلقية

الراذلة ولكنه يسىء إلى الفنان نفسه حين لا يتجاوب بفنه مع الخير، وفى هذه النقطة حوار طويل ليس هنا محل الحديث فيه.

– ومن المعروف أن القيم الجمالية أساسها الإعجاب والنشوة، فى حين أن القيم الخلقية أساسها التفضيل.

– وإدراك الجمال فى شىء لابد أن تصحبه إضافة إلى حقيقة ذلك الشىء وواقعه، وأن هذه الإضافة لا ينبغى أن تستمد من عالم الواقع، وإنما يجب أن تستمد من عالم الجمال.

● ومن المقرَّر بين المفكرين والفلاسفة أن الجمال قيمة، وأنه قيمة إيجابية، وبيان ذلك:

– أن الجمال قيمة ويعتبر جديراً باهتمام الفرد وعنايته ونشدانه، لاعتبارات اجتماعية أو اقتصادية أو نفسية، وذلك أن القيمة حكم مكتسب من الظروف المحيطة بالإنسان يتشربها ويحكم بها وتحدد مجالات تفكيره، بل تحدد سلوكه وتؤثر فى تعلمه وثقافته.

● وهذه القيمة قد تكون إيجابية كالتمسك بمبدأ، وقد تكون سلبية كاحتقار مبدأ والرغبة فى الابتعاد عنه.

– وأما أن الجمال قيمة إيجابية فذلك يعنى أنها إحساس بشىء حسن له وجود فى الواقع، أو انعدام شىء قبيح فى عالم الواقع.

فالجمال إذن قيمة إيجابية بمعنى أنه يجلب لذة يحملها إلى الناس موضوعه، وأن قيمته فى ذاته.

– ولكل قيمة جانبان:

أحدهما: موضوعى، أى يجعل القيمة الجمالية جديرة بأن يرغب فيها وأن تحترم.

والآخر: ذاتى، أى أن الجمال يرغب فيه إنسان ولا يرغب فيه آخر، كل بحسب ما يحيط به من ظروف.

● وهناك فروق بين القيم من حيث وظائفها.

– فالقيم الجمالية وظيفتها: تبين الجميل من القبيح، بل رسم معالم الجمال والقبح، وتوضيح أسباب جمال الفنون وأسباب خلوها من الجمال.

– والقيم الخلقية وظيفتها: بيان معالم الخير والشر، وتوضيح أسباب الفعل؛ خيره أو شره.

– والقيم المنطقية أو العقلية وظيفتها: توضيح الصواب والخطأ فى المعتقدات والأفعال.

● والإحساس باللذة الجمالية يعتمد على ما هو أكثر من التصور الذهنى، لأنه يتوقف على نشاط الحواس المتعددة فى الإنسان من رؤية وسمع ولمس وتذكر، لأن هذه الحواس هى التى تغذى التصور الذهنى.

– وتختلف اللذة الجمالية عن اللذة المادية من حيث سمو اللذة الجمالية ورحابتها وتجاهلها لما يربطها بالجسد – مصدر اللذات المادية – من روابط عديدة، وهذا هو سموها، كما يستطيع من يحس باللذة الجمالية أن يحلّق فى آفاق رحبة تتناول من شاء من أرجاء العالم كله، وما شاء من أبعاد الزمان كله، بغض النظر عن المكان والزمان اللذيْن يعيش فيهما.

– واللذة الجمالية تفسح لروح من يحس بالجمال مجال أنها تحررت من اللذات الجسدية، لأن اللذة الجسدية عند الانغماس فيها من خلال عضو من أعضاء الجسد، يهيئ للإنسان إحساساً بالأنانية والفظاظة وربما بالجلافة.

– واللذات المادية تشبع الحواس والرغبات والانفعالات، بينما اللذة الجمالية تفسح المجال للإنسان أن يسمو على ذاته، فتهدأ انفعالاته، ويكون سعيداً لمجرد هذا الإحساس دون تملك أو انغماس فيما تلذذ به، فاللذة الجمالية تتنزه عن الأهواء الشخصية.

هذا عن الجمال فى إيجاز وتركيز.

والفنّ:

هو التعبير الجمالى عن المدركات والعواطف، ونقل المعانى والمشاعر للآخرين عن طريق العمل الذى يتميز بالصنعة والمهارة، هذا تعريف كثير من المفكرين للفن.

– والفن عند الفنانين تعبير عن الأشياء غير المرئية بإشارات طبيعية متجلية، وليس مجرد تصوير للواقع.

– وعند علماء الاجتماع: الفن إبداع وابتكار لعلاقات جديدة بين عناصر مستمدة من الحياة والمجتمع والطبيعة، وليس مجرد تمثيل للواقع ولا تقليد للطبيعة.

● والفن ظاهرة اجتماعية طبيعية تحاول أن تجيب بالرموز على كثير من غوامض الحياة

الإنسانية والغازها، وهو فى الوقت نفسه دليل على المهارة التى بذلت أو تبذل لإنتاج كل ما هو جميل، أى محبب إلى الإنسان.

● وللفنون الجميلة تركيب يمكن تفصيله كما يلى:

– الأدب بجميع أجناسه، والموسيقى.

– والفنون المرئية كلها كالسينما ونحوها.

– والفنون المركبة كالمسرح و«الأوبرا».

– والفنون التطبيقية كالرسم وتصميم النسيج والخزف.

● والعلم الذى يعنى بتعريف هذه الفنون الجميلة وبتفسيرها، وتصنيعها، وتوضيح أثر الفنانين على المجتمع أو تأثرهم به هو: «علم اجتماع الفن».

● ولقد تطور مدلول كلمة الفن تطوراً كبيراً على مر العصور، غير أن القدر المشترك لمدلولها فى معظم العصور وعند معظم الناس ولغاتهم هو:

– العمل الذى يتميز بالصنعة والمهارة.

– أو الإنتاج الجمالى الذى ينتجه الإنسان الواعى ويضيفه إلى الطبيعة.

– أو هو مجموع الطرق والوسائل التى تستعمل للوصول إلى نتيجة معينة حسْب أصول معينة.

● وكل مدلولات الفن تكمن فى الهدف الذى يجب أن يحمله، ومن أجل ذلك تنازَعَ الفنَّ تياران:

أحدهما: تيَّار «الفن للفن» دون أن يحمل أى رسالة خارجة عن قيمته الذاتية.

والآخر: تيار «الفن للمجتمع» فالفن ملزم بهدف معين، لأنه فى الواقع يعبر عن علاقات، وعن وسائل إنتاج معينَّة فى فترة زمنية معينة، وفى مرحلة تاريخية معينة.

● والفن عند الفلاسفة قُدامَى ومحدثين له تعريفات عديدة:

– فهو عند «أفلاطون»:

طريقة فى التعبير عن عالم المُثُل بوساطة أشياء حسية، فعالم الفن عنده عالم أشباح وأوهام ترمز إلى عالم آخر هو عالم المثل والحقائق.

وعندما يرى الإنسان أى عمل فنى فإن النفس تتذكر العالم الذى كانت فيه قبل أن تسقط فى الجسد، فالفن عمل مهم على صعيد تذكير النفس بالعالم الذى كانت فيه، ويحرضها على العودة إليه.

– والفن عند «أرسطو»:

له عمل مزدوج من: محاكاة الطبيعة، والتسامى عنها.

والفن يقدم للإنسان نماذج وصوراً مشتقة من القوانين العامة التى تحكم الطبيعة.

– والفن عند «توما الإكوينى» (القرن الثالث عشر الميلادى):

هو التعبير عن صراع النفس وعن الآلام التى تعانيها عندما تبتعد عن الله، وجميع فروع الفن من موسيقى وشعر ورسم ونحت... يجب أن لا تخرج عن هذا الهدف.

– والفن عند «عمانويل كانت» (القرن الثامن عشر الميلادى):

هو طريقة جمالية فى إظهار الشىء، وليس مجرد إظهار الشىء الجميل.

والفنان عنده ليس رسولاً ولا مبشراً ولا محرضاً على قيمة خلقية أو فلسفية، وإنما يعتبر بقيمة عمله الجمالية الذاتية، ومعنى ذلك أنه يردد نظرية «الفن للفن».

– والفن عند هيجل (القرن التاسع عشر الميلادى):

له عمل وهدف يجب أن يحققه فى المجتمع، ومعنى ذلك، القول بنظرية «الفن للمجتمع» إذ الفن عنده حركة جدلية، وتعبير أصلى عن «الفكرة المطلقة» والعمل الفنى مرحلة من مسيرة هذه الفكرة المطلقة من أجل تجسيدها.

● **والنظرة المادية للفن هى ماتبنَّاها الشيوعيون من بعد ذلك وأصلوها، بل بالغوا فيها على عادتهم فى المبالغة وفى فرض رؤاهم بالقوة والإرهاب الفكرى والمادى!!!**

■■■■

ثانياً: الجمالية ومدارسها

تعنى هذه الكلمة: المعرفة الخاصة بالجمال الفنى دون الجمال الطبيعى.

فالجمالية إذن تُعْنَى بتوضيح القوانين التى تكشف عن الجمال الفنى فى العمل الفنى أى فى الفنون الجميلة كلها.

– والجمالية بهذا المعنى معرفة عقلية أى ذات نزعة فلسفية، فيجوز بناءً على ذلك أن يطلق عليها: علم الفن، أو فلسفة الفن، أو دراسة أسلوب الحساسية الجمالية وتقنياتها، ومعنى ذلك أن الفن نفسه أو الإنتاج الفنى؛ يسبق علم الفن أو فلسفته أو الجمالية.

– وعلى الرغم من أن الإنتاج أو الإبداع الفنى أو الجمالية تسبق الفن نفسه، فإن الجمالية والجمال لا ينبغى الفصل بينهما.

● ومن الجدير بالذكر، بل الجدير بأن يلحظ، أن كل نظرة جمالية تقوم بها الفلسفة، كانوا يدعون أنها نظرة نهائية، ثم يتبين أنها ليست نهائية، وإنما يأتى بعدها نظرات عديدة؛ مما يؤكد أن التفلسف حول الجمال والجميل يعود على النظر الفلسفى بفائدة هو توسيع المدارك وتعدد النظرات وتجددها.

– والجمال له مساران عند الفلاسفة:

* فمنهم من يقول: إن لدى الفنان نظر ينطلق من الواقع إلى المثال، وذلك نظر اجتماعى موضوعى، وهو رأى الفلاسفة الواقعيين.

* ومنهم من يقول: إنه ينطلق من المثال إلى الواقع العيانى، وهو رأى الفلاسفة المثاليين.

– ومن المعروف – كما أوضحنا ذلك فى حديثنا عن الجمال – أن نقيض الجمال ليس هو البشاعة أو القبح، وإنما هو الرداءة والإسفاف والتفاهة؛ ومن أجل ذلك تقل الأشياء – أو تندر – التى يطلق عليها أنها قبيحة أو بشعة لذاتها.

● وهناك بعض الحقائق التى لها صلة بالجمالية لابد من ذكرها قبل الحديث عن مدارسها، ومن هذه الحقائق:

أ – الجميل عقلاً لا يتنافى بالضرورة مع الجميل حِسّاً، أو مع الجميل نفعًا؛ لأن غاية الجمال

قد تتناسب أحياناً مع غايات اللهو والنفع، إذ إن غاية الجمال وغاية النفع قد تلتقيان بل قد تتكاملان.

ب – وهناك تنوع جمالى غير محدود، نتيجة لتنوع الفنانين المبدعين وتنوع بيئاتهم ومجتمعاتهم وثقافاتهم، مع تنوع المتذوقين لهذا الجمال تنوعاً غير محدود أيضاً، وهذا وذاك أمر ينعكس على صعوبة الفصل بين الموضوعية والذاتية فى العمل الفنى.

جـ – وفلسفة الجمال تعنى بتوضيح ماهية الفن من خلال هذا التنوع الجمالى فى المبدعين والمتذوقين والبيئات الاجتماعية وتوضيح قدرة الفن على تخطى الزمان والمكان، وقدرته على أن يتذوقه من تفصلهم عنه ألوف السنين.

د – وأن المتعة الجمالية متداخلة دائماً بين متعة بذات الفن، ومتعة خاصعة لموضوعية الفن لأسباب أوجبتها، كالقيم الدينية والقيم الاجتماعية والقيم الثقافية.

هـ – وأن الخير الذى يوصف به العمل الفنى هو كمال العمل نفسه، بغض النظر عما يعبر عنه الفن، أى العمل الفنى لا يشترط فيه لكى يكون خيراً أن يعبر عن أشياء جميلة، بل يمكن أن يعبر عن أشياء غير جميلة، ومع ذلك يحقق متعة لمبدعه ومتذوقه.

و – والعمل الجمالى يستمد قيمته من كونه حقيقياً ونافعاً، وهو بذلك يتمتع بقدرة على جذب المتذوق نحو عالم خاص قائم بذاته، لأن المتعة الجمالية لا يشترط أن تكون دائماً فى داخل ما هو مألوف أو مُعَاش للإنسان، وإنما تستطيع تجاوز ذلك فى كثير من الأحيان.

● وهذه الجمالية لها مدارس خضعت للفلسفة خلال تاريخها وبخاصة التاريخ اليونانى.

ومن هذه المدارس – التى نشير إليها فى عجالة تناسب المقام –:

مدارس الجمالية:

١ – السفسطائية: (حوالى سنة ٥٠٠ قبل الميلاد):

– أكَّدَتْ السفسطائية إنسانية الظاهرة الجمالية باعتبارها وليدة تحولات زمانية ومكانية.

– كما أبرزتْ السفسطائية قيمة الإدراك الحسِّى والانطباعات التى ترافقه.

– وطالبت بحرية الفرد فى التعبير عن مكنوناته العاطفية وسائر انفعالاته.

– وغاية العمل الفنى عند السفسطائيين هو إرضاء المتذوق، إنْ خالط ذلك بعض التمويه والبعد عن الحقيقة أو الواجب.

– وحولت السفسطائية الفكر والاهتمام بالطبيعة إلى الاهتمام بالإنسان، وجعلت من الإنسان موضوعًا أساسيًا.

– وأُنزلتْ قيمة الجمال فى نظر السفسطائيين عن مكانتها الأصلية بالنسبة لنظرتهم إلى القيم الإنسانية.

– ونظر بعض السفسطائيين إلى الجمال نظرة بعيدة عن ربطه بفكرة الحقيقة.

– والسفسطائيون خطابيون جَدَليون يتجاوزون بقدراتهم الخطابية مرحلة الإقناع العقلى إلى مرحلة إثارة الانفعالات والعواطف وسلب إرادة الإنسان.

٢ – السقراطية: (حوالى سنة ٥٠٠ ق.م):

سقراط[١] (٤٦٩ – ٣٩٩ ق.م) كان معاصرًا للسفسطائيين، وقد عارضهم فى مذهبهم الجدلى الخطابى، واصطنع سقراط أسلوبًا جدليًا خاصًا به، لا يقوم على المغالطة والرغبة فى غلبة الخصم – كما فعل السفسطائيون – وإنما يقوم على التهكم والتوليد.

- التهكم بالخصم لإقناعه بجهله.
- وإلقاء الأسئلة المتعاقبة التى تساعد الطرف الآخر على الوصول إلى الحقيقة، مستخدمًا أسلوب الحوار.

– وقد قام رأى سقراط فى الفن والجمال على عدد من الحقائق التى نادى بها وأهمها:

- أن الجميل هو ما يحقق الخير والنفع.
- وأن الجمال له غاية هادفة.
- وأن الفن يقوم على النظر العقلى، لا على إثارة الانفعالات، وهذا يعارض السفسطائيين.
- ورفض أى نظرية تجعل الفن غاية لذاته.

---

(١) اتهم سقراط بانه ينكر آلهة أثينا وينادى بآلهة أخرى، ويفسد الشباب بحواراته، فحوكم وحكم عليه بالإعدام وسيق إلى السجن ومكث فيه شهراً كان يزوره فيه تلامذته، وقد هيا له بعضهم سبيل الهرب ولكنه رفض، فلما حل أجل تنفيذ الحكم، بادر هو إلى الانتحار بشرب السم.

● ورفض أى نظرية تقيم الفن على المعيار الحسّى وحده.

٣ - الأفلاطونية:

تنسب هذه المدرسة فى الفن والجمالية إلى أفلاطون (٤٢٣ - ٣٤٧ ق. م) وقد أفاد أفلاطون من الفيثاغوريين والسقراطيين ليصوغ أكثر النظريات الجمالية تماسكا وقوة.

- وفى محاورات المأدبة وضع أفلاطون رؤيته الفلسفية للجميل فى ذاته، وصوّر على لسان أستاذه سقراط رؤيته للجمال - حيث يقول سقراط فى ذلك: «هذا الجمال الإلهى الذى لا يتولد عن شىء ولا يفنى، ولا يزول، ولا ينحط ولا ينمو، والذى يضفى على الحياة معنى».

ثم يعلق أفلاطون على رأى أستاذه سقراط بقوله: «هذه الروح الأزلية المشعة بجمال فائق للطبيعة التى يتصورها سقراط لن تُعايَن إلا بالحب، فالحب يوصلنا إلى الجمال بذاته، ثم يتدرج حب الجمال من:

حب الأشكال المحسوسة الجميلة.

إلى حب الأجسام الجميلة.

إلى حب النفوس البشرية الجميلة.

إلى حب الجمال الروحى.

إلى حب الجمال الأخلاقى.

إلى حب العلم، أى الجمال العقلى.

إلى نهاية المطاف وهو حب المثال، وهو حب الجمال المطلق».

- ويرى أفلاطون أن الفنان الراغب فى الإبداع لإحدى الروائع الفنية غير مضطر إلى أن يبدع رائعته الفنية من عدم؛ لأن القيم موجودة قبل أى عمل فنى، والقيم لا تُبْتَدع ولا تُخلق، فالمطلوب البحث عنها، ثم محاكاتها.

والمحاكاة ليست تمويها أو خداعا، وإنما هى تقوم على المعرفة الفلسفية، والصدق فى التعبير.

وهذه المحاكاة تقتضى أن يعبر الفنان عن فنٍّ محقِّقٍ، للحق، والخير والجمال.

– ويدعو أفلاطون كل فنان يبدع فنًا، أن يقترب ما وَسعَه من الأقدمين؛ لأنهم فى نظره أقرب إلى المثال المطلق، ولأنهم خيرُ مَنْ فهم معنى الجمالَ المطلق.

٤ – الأرسطية:

ولد أرسطو سنة ٣٨٥. ق. م أو ٣٦٤. ق. م ومات سنة ٣٢٢. ق.م، وكان والده طبيبًا للملك المقدونى امنتاس الثانى جد الإسكندر الأكبر.

وتعلم أرسطو فى أكاديمية أفلاطون، وامتاز بين أقرانه امتيازًا جعل أستاذه أفلاطون يطلق عليه: «العقل»؛ لفرط ذكائه، كما أطلق عليه: «القرَّاء» لسعة اطلاعه.

وظل أرسطو فى الأكاديمية حتى مات أفلاطون، ثم سافر أرسطو إلى آسيا الصغرى، ومن هناك استقدمه «فليب» والد الإسكندر وعهد إليه بتثقيفه، فظل معه أربع سنوات، ثم عاد أرسطو إلى أثينا أخريات سنة ٣٣٥. ق. م.

وأنشأ أرسطو مدرسة، وكان يلقى فيها دروسه وهو يتمشى هو وتلاميذه فلقبوا بالمشائين.

وبعد اثنى عشر عامًا أراد الوطنيون الأثينيون الإيقاع به فاتهموه بالإلحاد، فغادر أثينا سنة ٣٢٣. ق. م ومات سنة ٣٢٢. ق. م:

– وقد دافع أرسطو عن نظرية أن الجمال ليس صفة مفارقة للجميل، وإنما هى كامنة فى الواقع.

– وقال أرسطو بأن مفهوم المحاكاة يشمل بعض الفنون دون بعض، ولا يشمل النظر الفلسفى.

– كما أكّدَ أن الفن ليس محاكاة الجميل فى ذاته، وإنما هو محاكاةٌ جميلةٌ لأى موضوع يختاره الفنان حتى لو كان غير جميل.

– ونادى بأن محاكاة الطبيعة لا تفيد محاكاة الواقع كما هو، أو محاكاة الطبيعة على نحو ما هى عليه، بل يفيد أن الفنَّ مكمل للطبيعة.

– وقال بأن المحاكاة غريزة فى الإنسان، ولذلك رأى أرسطو أنه لابد من إرواء الحسّ الجمالى، وتنمية التذوق الفنى.

– وفرّق أرسطو بين النقد الأخلاقى، والنقد الجمالى لأى إنتاج فنى.

٥ – الأفلوطينية:

أفلوطين (٢٠٥ – ٢٧٠م)[1].

– يرى أفلوطين أن الجمال هو موضوع محبة النفس، لأنه مثلها ينتمي إلى عالم الحقائق العقلية، فالنفس ترتاح إلى الجمال وتحبه وتندفع نحوه لأنه من طبيعتها.

أما القبيح فإن النفس تنصرف عنه لأنه مادىّ مغاير لطبيعتها.

– وأفلوطين مثل أفلاطون في قولهما: إن الجمال يصدر عن الصورة أو المثال الذى ينتقل من المبدأ الخالق إلى المخلوق.

– ومجمل آراء أفلوطين فى الجمال هى:

- أن الجمال لا يرجع إلى المادة وإنما يرجع إلى الصورة والمثال. وعلى الفنان إن أراد بلوغ الغاية فى عمله الفنى الجمالى ألا ينقل عن الطبيعة، بل عليه أن ينقل عن عالم العقل والمثال..
- وأن الجمال يوجد فى الفن أكثر مما يوجد فى الفنان، إنه يوجد فى الفنان أكثر مما يوجد فى أعماله الفنية.
- ويرى أن الجمال هو الخير، وأن العقل يستمد من الخير جماله، ومن العقل تستمد النفس جمالها، بل تستمد أنواع الجمال كلها، مثل:

الأعمال والنوايا، فجمالهما مستمد من النفس، لأن النفس (أى الروح) إلهية، تستطيع أن تجعل ما تمسه أو تسيطر عليه جميلاً، فى حدود قدرة ما تمسه على تقبل الجمال.

- ويؤكد أفلوطين أن النفس تصير جميلة على قدر ما تتشبّه بالله فى صفاته.
- ويُرجِع أفلوطين الجمال إلى علة أو سبب عقلانى أو معقول، وذلك فى نظرة توحِّد بين الوجود والخير والجمال.

---

(١) ولد فى أسيوط بمصر، وتتلمذ على «أمونيوس سكاس» وألم بفلسفة فارس والهند، وهو مؤسس الأفلاطونية الحديثة، وتأثرت فلسفته بفلسفة أفلاطون ولكنها اختلفت عنها بنظرية الفيض التى تفسر الخلق بأن الله (الواحد) فاضت عنه المخلوقات، وقال: بأن كمال الإنسان يتحقق بتجرده من الجسد واندماجه مع الواحد ومعرفته بالشهود المباشر.

● ويُشبِّه الجمال بالنور الداخلى الذى تستضىء به النفس، ثم يستضىء به كل شىء من حولها.

● والجمال عنده مرتبط بالوجود، بل بقدر ما فى الجمال من وجود؛ لأن الوجود الحق هو الخير، ولأن الوجود غاية كل الكائنات.

– والمثل الأعلى للجمال عند أفلوطين هو: الجمال الإلهى، أى الوجود الإلهى، الذى إن لم يره الإنسان يظل يتطلع إليه، فإذا رآه فسوف يعجب أو يبهر بما هو عليه من جمال، ويحتقر ما كان يظنه جميلاً فيما مضى.

وإذن فليبدأ الإنسان بأن يكون إلهيًا وجميلاً إن أراد أن يتأمل الله والجمال.

وبعد: فهذه مذاهب الجمالية ومدارسها فى أوربا فى عصورها القديمة إلى عصر أفلوطين فى القرن الثالث الميلادى (٢٠٤ – ٢٧٠م) فماذا عن نظرتهم إلى الجمال والجمالية فى العصور الوسطى لديهم المسماة عصور الظلام؟

ذلك ما نرجو أن نوضحه فى الصفحات التالية، والله تعالى هو الموفق المعين.

■■■■

ثالثاً: الجمال والجمالية فى أوربا فى

«القرون الوسطى» المسماة عندهم بعصور الظلام

أقرب التواريخ إلى تحديد الوعاء الزمنى للعصور الوسطى أنها كانت بين سنتى ٤٧٦م عند سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية، و١٤٩٢م عند اكتشاف «كولمبس» لأمريكا(١). وهو تاريخ مناسب لبدايتها ونهايتها وإن كان فى ذلك اختلاف بين الباحثين والمؤرخين.

يقول: «ول ديورانت»:

.. وكانت الكنيسة فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى إقطاعية ذات حكومة دينية بحيث «أصبحت الكنيسة جزءاً لا يتجزأ من النظام الإقطاعى، فألفتْ نفسها منظمة سياسية واقتصادية وحربية، لا منظمة دينية وكفى.

وكانت أملاكها الزمنية أى المادية، وحقوقها والتزاماتها الإقطاعية وصمة تجلل بالعار كل مسيحي متمسك بدينه، وأصبحت سُخريةً تلوكها الألسنة من كل الخارجين عن الدين، ومصدراً للجدل العنيف بين الأباطرة والبابوات.

وهكذا أصبحت الكنيسة جزءاً لا يتجزأ من نظام الإقطاع»(٢).

ثم يواصل «ديورانت» قائلاً: «وكان الملك هو الذى يعين رؤساء الأساقفة، ورؤساء الأديرة، وكان رجال الدين يقسمون يمين الولاء كغيرهم من الملاك الإقطاعيين، ويلقبون بألقاب: «الدوق» و«الكونت» وغيرهما من الألقاب الإقطاعية..

وكان الأساقفة ورؤساء الأديرة المرتدون الزَّرَد والدروع والمسلحون بالحراب؛ من المناظر المألوفة فى ألمانيا وفرنسا.

وكان «رتشاد» «أمير كور نوول» فى عام ١٢٥٧م يجهر بأسفه لخلوّ إنجلترا من الأساقفة ذوى الحمية المتوقدة والروح الحربية القوية»(٣).

«وكانت الكنيسة تدعو إلى الرأفة، ولكن المحاكم الكنيسة كانت تعاقب على الجرائم

---

(١) ذلك التاريخ الميلادى يقع بين سنتى ١٤٧ قبل الإسلام و٨٩٩ من الهجرة النبوية تقريباً.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة جـ٣ المجلد الرابع ص ٤٢٨ – ٤٢٩ بتصرف، مرجع سابق.

(٣) السابق: ٤٣٨.

بنفس العقوبات التى توقعها المحاكم المدنية، ومن ذلك أن محكمة دير «سانت جنيفيف» حكمت بدفن سبع نساء وهن على قيد الحياة؛ عقابًا لهن على السرقة»(١).

ثم يواصل قائلا:

«ثم نشب الصراع بين الامبراطورية الرومانية والكنيسة بسبب رغبة كل منهما فى السيطرة على الآخر، وتقليص أثره، وكانت الحرب غير المنظورة بينهما سجالاً، ولكن الكنيسة انتصرت وسيطرتْ على كثير من الأمراء والنبلاء، وقادت الحروب الصليبية على مدى قرنين من الزمان.

ثم مُنيت بالفشل، فالجلاء عن القدس والشام، ثم جلت عن سائر البلدان التى كانوا قد استولوا عليها فى الحملات الصليبية وما بعدها.

ثم قام نزاع بين الكنيسة والإمبراطور هنرى الخامس عام ١٢٢٣م ثم قبل الإمبراطور بأن يكون من حق الكنيسة تعيين كل من يتمتعون بالخاتم والعصا، وكانت مثل هذه الاتفاقات قد عقدت من قبل مع إنجلترا وفرنسا.

ثم يواصل: «واستطاعت الكنيسة أن تستعيد مكانتها وهيبتها، حتى ساغ للبابا «أنوسنت» أن يقول: «إن المسيح لم يترك لبطرس حكم الكنيسة فحسب، بل ترك له حكم العالم بأجمعه»(٢).

«ولقد كانت الكنيسة فى واقع الأمر دولة أوروبية فوق الدول جميعها؛ تضطلع بشئون العبادات والأخلاق والتعليم والزواج والحرب العامة، والحروب الصليبية، والموت، والوصايا، لنصف سكان قارة من القارات، وتشترك اشتراكًا فعلياً فى تصريف الشئون الزمنية، وتقيم أكثر الصروح نفقة فى تاريخ العصور الوسطى، ولهذا كله لم تكن تستطيع أن تقوم بهذه الوظائف كلها إلا باستغلال مائة مصدرٍ من مصادر الإيراد.

وكانت العشور أكبر مصادر الإيراد؛ ذلك أن قانون الدولة فرض بعد «شارلمان» على جميع الأراضى التى يمتلكها غير رجال الدين أن تؤدى عشر مجموع غلتها أو ريعها عينًا أو نقداً إلى الكنيسة المحلية..»(٣).

---

(١) السابق: ٤٣٨.

(٢) السابق: الجزء الخامس من المجلد الرابع. ص ٦٢.

(٣) السابق: ٦٨.

وقد حسب دخل الكرسى البابوى فى عام ١٢٥٠م فكان أكثر من دخل رؤساء الدول الأوروبية الزمنيين مجتمعين..»[١].

ثم يواصل «ول ديورانت» قائلاً:

«ومهما تكن ثروة الكنيسة متناسبة مع اتساع وظائفها، فقد كانت هذه الثروة أهم أسباب الإلحاد فى هذا العصر.. وإنا لنجد فى جميع آداب ذلك الوقت؛ فى الأقاصيص الخرافية، وفى الأغانى، وفى قصة الوردة، وفى قصائد الشعراء الجائلين، وأشعار شعراء الفروسية الغزليين، وفى قصائد دانتى، وفى أقوال مؤرخى الأديرة الإخباريين أنفسهم شكاوى من بخل رجال الدين أو ثرائهم..»[٢].

«وكان فى ميلان وحدها سبعة عشر دينًا جديدًا، وكان أهم الشِّيَع الملحدة فيها شيعة «البتريائيين» وقد بدأت حركة مجتمعة على الأغنياء ثم استحالت حركة ضد رجال الدين وأخذت تندد بالرِّشا، وبيع المناصب الكهنوتية، وثراء رجال الدين وزواجهم وانتشار التسرى بينهم، واقترحت كما قال أحد زعمائها: أن تصادر أموال رجال الدين، وأن تباع أملاكهم بالمزاد، فإذا قاوموا فلتُبحَ بيوتهم للنهب، وليطردوا هم وأبناؤهم غير الشرعيين من المدينة»[٣].

ولقد وجهت طائفة «الكاثارى»[٤] المنشقة على الكنيسة سهام النقد للكنيسة «فقد أنكرت أن الكنيسة كنيسة المسيح، وقالت إن القديس «بطرس» لم يأت قط إلى رومة، ولم يؤسس البابوية، وإن البابوات خلفاء الأباطرة لا خلفاء الرسل، وإن المسيح لم يجد مكانًا يضع فيه رأسه، أما البابا فيسكن قصرًا منيفًا، وإن المسيح لم يكن له ملك ولا مال ولكن كبار رجال الدين المسيحى من ذوى الثراء العريض..»[٥].

«على أن جميع زعماء هذه الطائفة من الشعراء كانوا يَعدُّون من أنصار «الأليجنسيين» فقد كانوا يسخرون من الحج، والاعتراف، والماء المقدس، والصليب، وكانوا يسمون

---

(١) السابق: ٧٢. (٢) السابق: ٧٢، ٧٣.

(٣) السابق: ٧٨.

(٤) الكاثارى طائفة قالت بالعودة إلى المسيحية الأولى، وكان يشيع فيها الإلحاد الذى انتشر فى عهد القوط الغربيين، والقول بفكر الخير والشر، فالخير عندهم هو الله والروح، والسماء، والشر هو الشيطان والمادة والعلم المادى، وترى أن الصليب من المادة، وكذلك القربان المقدس.

(٥) السابق: ٨١، ٨٢.

الكنائس : « معششات اللصوص » كما كان القساوسة الكاثوليك في رأيهم : « خونةً كاذبين منافقين »[1].

وبعد : فتلك كلمة موجزة عن العصور الوسطى في أوروبا، وما ساد هذه العصور المظلمة من تيارات دينية واجتماعية وسياسية، حيث سيطرت الكنيسة المسيحية على المجتمعات الأوروبية ومارست معها ما جعل كثيرين يثورون على الكنيسة ويوجهون إليها أبشع الاتهامات.

نقلتها عن كاتب ميسحى مؤرخ له قدم راسخة فيما كتب عن الحضارة، لا ينكر عليه رسوخ قدمه إلا متحامل أو جاهل، وقد تعمدتُ أن أنقل عن : « ول ديورانت » في كتابه قصة الحضارة، حتى لا أتهم بمحاولة التشويه أو التحامل.

وأسأل الله أن أكون قد وفقت فيما قلت عن العصور الوسطى عصور الظلام في أوربا بقلم أحد أبناء الغرب.

فكيف عبَّرت هذه العصور عن الجمال والجمالية؟

■■■■

(١) السابق : ٨٢.

١ - التعبير عن الجمال والجمالية فى العصور الوسطى

ماذا كان حظ الجمال والجمالية من وسائل التعبير عنهما؟

أجمع معظم المؤرخين الأوروبين، ومثلهم مؤرخو الجمال والفن، على أن الإحساس بالجمال فى هذه الحقبة الزمنية قد استيقظ عما كان عليه الحال من ذى قبل، وعزوا هذه اليقظة إلى أسباب عديدة منها:

- اتصال العرب بأوروبا فى فتوحاتهم وحروبهم، فى جزر البحر المتوسط، والأندلس وغيرها من بلدان أوروبا.
- وتوجه أوروبا كنيستها وملوكها وأمرائها إلى الشرق فيما سموه بالحروب أو الحملات الصليبية، على مدى قرنين من الزمان، شاهدوا خلالهما ما شاهدوا من جماليات تمثلت فى فنون متعددة، قد عبَّرت عن الجمال، وسجلت كثيراً من مظاهره.
- ونشاط الحركة التجارية بين عدد من دول المسلمين وعدد من دول أوروبا، وكانت بيزنطة بصلتها بالمسلمين محور ارتكاز وحركة بين الغرب والمسلمين، مما أدى إلى تأثر الغرب بالمسلمين.
- واتساع نطاق الصناعة فى أوروبا، ومن المعروف أن بين أى نهضة أو توسع صناعى والفنون ارتباطًا وثيقًا، فكان ذلك سببًا مباشراً فى مزيد من الإحساس بالجمال بهذه الفنون التى تبادلت التعبير مع هذه الصناعات.
- وقيام نقابات للحرف - الأعمال الفنية الجمالية- فى كثير من بلدان أوروبا كإيطاليا وفرنسا وإنجلترا، وما لهذه النقابات من أثر على تجويد هذه الفنون، وما يؤدى إليه هذا التجويد من تعميق الإحساس بالجمال.
- وكثرة عدد الراغبين والراغبات فى ممارسة الفنون الجميلة للتعبير عن إحساسهم بالجمال، ولقد سرت هذه الروح بين الناس حتى وصلت هذه الرغبة إلى الرهبان والراهبات فى الأديرة.
- واستعداد كثير من الأثرياء لإمداد الفن بالمال ليجدد ويتحسن فيكونون هم المستفيدين بتلك التحف الفنية التى ينتجها الفنانون، ولقد تبارى أصحاب الثراء فى ذلك، بالإضافة

إلى ما أسهمت به بعض الأديرة، وبعض الأساقفة والبابوات لبناء كنائس وأديرة جميلة حافلة بالزخارف والأعمال الفنية.

- وكثرة الهبات التى كان يقدمها الملوك والنبلاء للفنانين تشجيعًا لهم على ابتكار أعمال فنية يزينون بها قصورهم.

تلك صورة مجملة للأسباب التى أدت إلى أن يكون الإحساس بالجمال فى تلك العصور الوسيطة أكثر يقظة عند الفنانين عما كان عليه الأمر فى العصور السابقة.

غير أن المؤكد أن هذه اليقظة الفنية التى زادت عن مثلها فى الماضى، كانت قطرة من بحر فى عصر النهضة الذى تلا العصور الوسطى، عصور الظلام فى أوربا.

لكنْ ما مظاهر التعبير عن الجمال فى العصور الوسطى؟

ذلك ما نحاول الإجابة عنه فى الصفحات التالية.

■■■■

٢ - مظاهر التعبير عن الجمال والجمالية فى هذه الفترة

● اتخذ التعبير عن الجمال – فى هذه الفترة – صوراً فنية عديدة نشير إلى بعضها فيما سوف نذكره من حديث عن هذه اليقظة الفنية فى تلك العصور.

وفى بداية حديثنا هذا نذكر كلمة للراهب « ثيوفيلس » الذى كتب حوالى سنة ١١٩٠م موجزاً فى مختلف الفنون يقول فيه:

« ثيوفيلس، القس الوضيع.. يوجه كلماته إلى كل من يرغب فى ان ينفض عنه كل غبار الكسل وشرور الروح... بالعمل اليدوى النافع، وبالتفكير السارّ فيما هو جديد... (هنا يجد الناس) كل ما عند بلاد اليونان من ألوان ومركبات مختلفة، وكل ما عرفته « تسكانيا » من فنون الميناء... وكل ما تستطيعه بلاد العرب ان تعرضه من الأعمال التى تتطلب الليونة، والصهر، والنقش، والحفر، وكل المزهريات الكثيرة والجواهر المحفورة.... »[١].

● ولقد تمثل التعبير عن الإحساس بالجمال فى فنون عديدة نذكر منها:

أولاً: فن التصوير:

وقد اتخذ فن التصوير فى تلك الفترة أشكالاً رئيسة أربعة هى:

– الفسيفساء.

– ونقوش المخطوطات.

– والنقوش الجدارية.

– والزجاج الملون.

أ – الفسيفساء:

● أما الفسيفساء، فهى من أروع الفنون التى خلفتها العصور الوسطى، وامتدت أعمال الفسيفساء لتحلى الكنائس والقصور، وإن كانت فى الكنائس أكثر وأجمل.

« وقد اتحد الفنانون اليونان والمسلمون فى صنع آيات النقش الفسيفسائى فى صقلية النورمانية؛ وفى كنيسة مرتانا ودير منريال وكنيسة كفالو... وإن طوار دير وستمنستر

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة الجزء الخامس من المجلد الرابع: ص ٢٣٣.

(حوالى عام ١٢٨٨م) لمزيج من الظلال الفسيفسائية، يثير الدهشة والإعجاب »(١).

● وأما نقوش المخطوطات، وتزيينها بالرسوم والنقوش الصغيرة بالذهب والفضة المذابَيْن، وبالمداد الملون؛ فهو فن محبَّب إلى النفوس لما فيه من جمال ودقة وابتكار.

وعن نقوش المخطوطات يقول: « وقد بلغ هذا الفن ذروته فى بلاد الغرب فى خلال القرن الثالث عشر (الميلادى) . . . وكان الناس فى تلك الأيام يعتزون بكتْب الترانيم، وبالأناجيل، والتراتيل، وكتب القداس، وكتب الصلوات، وأدعية الساعات، ويحسبونها الأدوات الحية التى تنقل إليهم الوحى الإلهى . . . وكان الواحد منهم يبذل يومًا كاملاً فى كتابة الحرف الأول من كلمة، وأسبوعًا كاملاً فى كتابة عنوان صفحة، ولا يرى فى هذا خروجًا على المعقول . . . »(٢).

« وأخرجت إسبانيا أعظم آية مفردة من آيات هذا الفن فى القرن الثالث عشر فى كتاب: ترانيم العذراء هو تسابيح (ألفونسو العاشر) الملك الحكيم حوالى عام ١٢٨٠م، وإن نقوشه الصغيرة البالغ عددها ١٢٢٦ نقشًا لتشهد بما كان يبذل فى كتب العصور الوسطى من كَدٍّ وإخلاص »(٣).

ب – النقوش الجدارية:

● وأما النقوش الجدارية، فإنها تأثرت بزخارف الكتب وأثرتْ فيها، وفنون النقش على الجدران، واللوحات المصورة، والصور المقدسة، ونقوش الخزف، والنحت البارز، والزجاج الملون تبادلت التأثير والتأثر حتى يصعب فصل بعضها عن التأثير فى بعضها والتأثر به.

وكان معظم النقوش الجدارية موضوعها: صورة العذراء والمسيح عليهما السلام، وقد أبدع فنان معروف هو « دتشيو » فى تصوير العذراء والمسيح، فاستغرق فى تصويرها ثلاث سنين، ولما أتمها حملت إلى الكنيسة فى احتفال مهيب حضره الأساقفة والقساوسة والرهبان والموظفون وما يقرب من نصف سكان المدينة . . . »(٤).

وكذلك فعل « سمابيو » فصور العذراء والطفل بين أربعة ملائكة وهى موجودة فى كنيسة « سان فرنسيسكو » السفلى فى « أسيسى ».

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة الجزء الخامس من المجلد الرابع: ص ٢٤٤.
(٢) السابق: ٢٤٤.
(٣) السابق: ٢٤٦.
(٤) السابق: ٢٤٩.

جـ - الزجاج الملون.

• وأما الزجاج الملون، فقد كان معروفًا عند الأقدمين، ولكن أكثر ما عُرف منه كان فى صورة الفسيفساء الزجاجية.

ويرى بعض الباحثين أن الفن القوطى فى العمارة عندما هيأ مكانًا واسعًا للنوافذ فى الكنائس فسمح لضوء كثير أن يدخل الكنيسة، أدى ذلك إلى تلوين الزجاج لتخفيف هذا الضوء.

وكانت الشبابيك تقسم إلى لوحات مصورة، ورصائع، ومُعَيَّنات، ومربعات، لكى يمثل الشباك الواحد عدة مناظر فى سيرة أو موضوع مّا. وكان موضوعها أقاصيص العهدين القديم والجديد وبعض الأناجيل غير القانونية، وقلما كانت حوادث التاريخ غير الدينى تظهر على الزجاج الملَوّن.

ولم يمض نصف قرن على ظهور أول مثل للزجاج الملون فى فرنسا حتى وصل إلى درجة الكمال فى كنيسة: «تشارتر» ثم انتقل هذا الفن إلى إنجلترا، وبخاصة فى «كنتربرى».

ثانيًا: فن النحت على الخشب:

واشتهر بذلك أهل البندقية الذين صنعوا إطارات للصور كانت أجمل من الصور نفسها.

وفى القرن الثانى عشر الميلادى بدأ الألمان فى صناعة النحت أو الحفر على الخشب، فتفوقوا فيها عن سواهم، وأصبح الحفر على الخشب من الفنون الكبرى.

وقد بقيت بعض الصور المنحوتة على الخشب حتى يومنا هذا مثل تمثال «جيمس الأصغر» الموجود حتى الآن بالمتحف الفنى فى نيويورك مع أنه مصنوع فى القرن الثالث عشر الميلادى.

ثالثًا: فن أشغال المعادن:

فقد كان الحديد، أو النحاس، أو البرونز؛ يصهر أو يطرق لتصنع منه المزهريات والقدور والأباريق والمباخر والعلب والمصابيح.

وكانوا يصنعون من الحديد المشغول النوافذ والأبواب الخارجية، والمفصلات القوية،

ويتخذون من النباتات وأوراقها ما يزينون به مصنوعاتهم الحديدية.

وقد حظيت الكنيسة –أبوابًا ونوافذ ومقاعد للمرنمين– بمصنوعات حديدية ونحاسية وبرونزية كثيرة، وكثير من هذه المصنوعات الفنية الجميلة باقية حتى الآن.

رابعًا: فن أشغال المعادن النفيسة والأحجار الكريمة:

وأهم هذه المعادن الذهب والفضة، وكان الفنانون يصنعون من هذين المعدنين صحافًا وآنية للملوك وكبار الأثرياء، وقد جمع «شارلمان» في آخن بألمانيا كنزًا من المصنوعات الذهبية.

ثم انتقل الاهتمام بالمصنوعات الفنية من الذهب والفضة إلى الكنيسة، فصنعت بعض المذابح من الفضة المنقوشة، وبعضها من الذهب المنقوش – كما هو مشاهد في كنيسة «أمبروز» بميلان، وغيرها.

وكان الذهب يصنع منه للكنيسة: الحُقَّة التي يوضع فيها الخبز المقدس، والكأس التي تحتوي على النبيذ المقدس، والوعاء الذي يعرض فيه الخبز المقدس على المؤمنين ليعظموه، والعلب التي تحفظ فيها المخلفات المقدسة.

كما صنعت من الذهب والفضة أضرحة لعظام القديسين.

وكانت هذه المصنوعات الذهبية الفضية كثيراً ما تطعم بالأحجار الكريمة، كما كان يصنع منها الأختام الخاصة بالملوك والحكام.

خامسًا: فن الحفر على العاج:

كانت العصور الوسطى حافلة بالفنانين الذين يحفرون على العاج ويصنعون منه التماثيل المقدسة، وصوالج الأساقفة وعِصِيُّهم، والأضرحة، والعلب والأمشاط والمقابض، وقرون الشرب.

واستعملوا العاج في أن يطعموا به غيره من المواد التي يصنعون منها قطعهم الفنية.

سادسًا: فن صناعة الخزف:

تأثرت صناعة الخزف بما حمله الصليبيون العائدون من الشرق الذين أيقظوا أوربا من العصور المظلمة بما عادوا به من علوم وفنون.

وارتبطت صناعة الخزف بصناعة الميناء ذات الحزوز، والميناء المصبوبة.

«وكان الفخرانيون المسلمون فى إسبانيا المسيحية فى القرن الثالث عشر (لميلادى) يُغطون الآنية بطبقة لامعة من القصدير لا ينفذ فيها الضوء، أو من الميناء ويتخذونها قاعدة للزخارف المصورة»[1].

سابعًا: فن صناعة المنسوجات:

وبخاصة المنسوجات الرقيقة المغزولة بحذق وعناية والمطرزة تطريزًا جميلاً بل بالغ الجمال.

وكانت المنسوجات فى هذه الفترة جميلة المنظر ناعمة الملمس غالية القيمة، وكانت تغطى مذابح الكنائس، ومخلفات الأولياء، والأوانى المقدسة، وأردية البابوات وكثير من رجال الدين، وكانت تطرز بسلوك الذهب.

«وكانت بعض ملابس رجال الدين مثقلة بالجواهر وخيوط الذهب واللوحات المصورة المصنوعة من الميناء إلى حد يصعب عليهم المشى وهم يرتدونها، ولقد اشتهر من الأثواب المطرزة فى العصور الوسطى ثوب «شارلمان الدلماشى» وهو الآن من أثمن التحف فى كنوز الفاتيكان»[2].

ولقد أبدع الفنانون فى التعبير عن الجمال فى فن النحت فأتوا فيه بروائع لا تزال باقية حتى الآن، فعلوا ذلك فى نحت التماثيل وغيرها على الرغم من أن الكنيسة كانت ترى فى فن النحت قربًا من عبادة الأوثان فرفضته حينا من الزمان، ثم أقبل الفنانون عليه حينما رأوا أن الكنيسة فترتْ فى رفضها إياه، فأخذت المنحوتات تزين الكنائس من خارجها وفى داخلها، بل زينت المنحوتات كثيرًا من القصور، والمعابد.

وبعد: فتلك صفحات عن الجمال والجمالية وأساليب التعبير عنهما فى العصور الوسطى عصور الظلام فى التاريخ الأوروبى؛ فماذا عن الجمال والجمالية فى عصر النهضة الأوربية؟

ذلك ما نتحدث عنه فى النقطة التالية.

■■■■

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة الجزء الخامس من المجلد الرابع: ص ٢٣٧.

(٢) السابق: ٢٣٩.

٣ - الجمال والجمالية فى عصر النهضة الأوروبية

عصر النهضة الأوروبية : فى وعائه الزمنى وقع فى القرون؛ الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر الميلادية.

وفى معناه هو مصطلح يطلق على فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة.

وبعض المؤرخين يذهبون إلى أن بداية عصر النهضة الأوروبية ارتبط بتوسع الدولة العثمانية، واستيلائها فى مايو سنة ١٤٥٣م على القسطنطينية، الموافق سنة ٨٥٧ هـ ،ونقل عاصمة الدولة إليها وتجديد أسوارها وإعمارها بالمسلمين، وقد ترتب على ذلك أن نزح كثير من سكانها الذين كانوا تابعين لبيزنطة نزحوا إلى إيطاليا وبخاصة العلماء والمشتغلون بالفنون، واصطحبوا معهم ما كان لديهم من تراث اليونان والرومان، مما أسهم فى قيام عصر النهضة الأوروبية.

ولذلك يرى بعض المؤرخين أن النهضة الأوروبية كانت بدايتها من إيطاليا بعد هذا النزوح، ثم كان الازدهار فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين.

– ولعصر النهضة الأوروبية دلالات أهمها:

- التيارات الفكرية المتنامية.
- والتيارات الثقافية الموسعة.
- والتيارات الفنية المتنوعة.
- والتقدم العلمى والتقنى إلى حد كبير.
- والتوسع فى ميادين التجارة.
- وبداية الهجرة نحو العوالم الجديدة بعيداً عن أوروبا.
- وظهور تباشير الدولة المركزية.

– وفى تطور النهضة الأوروبية وانتقالها إلى عدد من دول أوروبا، يلحظ أن البداية كانت فى إيطاليا، حيث وجدت النهضة فيها من الأسباب ما دعمها وقواها كالأموال الكثيرة التى

قدمتها بعض الأسر الإيطالية ذات الثراء إلى العلماء والمفكرين والفنانين كأسرة: ميديتشى فى فلورنسة، وأسرة سفورزا فى ميلانو، وبعض البابوات فى روما.

- وقد شجعت هذه الأسباب وغيرها على ظهور علماء ومفكرين وفنانين حدث على أيديهم تقدم علمى وفنى ملحوظ، مثل:

- ليوناردو دافينشى.
- ومايكل أنجلو.
- ومكيافيللى.
- وأرزاموس.
- ورابليه.
- ومونتينى.

وقد ترك هؤلاء الأعلام آثارا جيدة وأثروا تأثيراً عميقًا فى المجالات التالية:

- تكوين العقل الحديث - حرية الفكر وحرية التعبير.
- والآداب والفنون عمومًا والفنون الجميلة بوجه خاص.
- والعمارة وتطويرها نحو الأجمل والأنفع.
- والرحلة لاكتشاف أراض جديدة - مما سمى بعد ذلك بالاستعمار.
- وظهور عدد من الرحالة والمكتشفين مثل:

الأمير هنرى الملاح.

وكرستوفر كولومبس.

وفاسكو دى جاما.

- والذى يعنينا - ونحن بصدد الحديث عن الجمال والجمالية - أن نتحدث عن الفنون وما تركه عصر النهضة فيها من تأثيرات، وما كان له من مذاهب ومدارس تعبر عن هذه النهضة.

وسوف يكون حديثنا هنا عن أهم المذاهب والمدارس فى هذا المجال.

أهم المذاهب والمدارس:

أولاً: مفهوم المذهب والمدرسة.

● المذهب هو: الطريقة، يقال: ذهب فلان مذهبًا حسنًا أى طريقة حسنة.

والمذهب: الأصل، يقال: لا يدرَى له مذهبه، أى لا يدرى أين أصله.

ومن المجاز: المذهب: المعتقد الذى يذهب إليه.

وعند العلماء: المذهب: مجموعة من الآراء والنظريات العلمية، والفلسفية ارتبط بعضها ببعض ارتباطًا يجعلها وحدة منسقة.

● والمدرسة: مكان الدرس والتعليم.

وهى كل دار لها صلة بالكتابة والقراءة والثقافة.

– ولقدماء المصريين اهتمام شديد بأمكنة التعليم والتثقيف – المدارس – إذ كانوا يسمونها: «بيوت الحياة» ويرون أنها كل دار لها صلة بالكتابة والقراءة والثقافة وممارسة الحرف المتعددة، وكانت عندهم تابعة للمعبد.

ومنها – عند قدماء المصريين – دار النُّسَّاخ الذين يقومون بنسخ المتون الدينية الخاصة بالشعائر التى تتلى فى الصلوات أو تنشَد فى الأعياد.

وكان جماعة النساخ والكتاب يقومون بعملهم تحت إشراف معلمين مهرة من الكهان والعرفاء.

– والمدرسة المصرية القديمة تشبهها المدارس التى عرفت بعدهم عند اليهود فى معابدهم، وعند النصارى فى كنائسهم، وعند المسلمين فى مساجدهم.

– والمدرسة: تطلق – حديثًا – على كل جماعة من الفلاسفة أو المفكرين أو الباحثين تعتنق مذهبا معينًا، أو تقول برأى مشترك، ويقال: هو من مدرسة فلان: أى على رأيه ويذهبه.

ثانيًا: مدارس الفن ومذاهبه:

الفن – كما أوضحنا – تعبير عن الجمال نفسه، أو تعبير عن الإحساس بالجمال؛ فى صور جمالية عديدة.

وقد كان للتعبير عن الجمال أو عن الإحساس به مذاهب ومدارس فى الغرب – فى عصر النهضة – نشير إليها فى كلمات وجيزة فيما يلى :

١ – المدرسة «الكلاسيكية»:

هى مذهب فى الأدب والفن، يقوم على وجوب مراعاة الأشكال التقليدية التى استقر عليها العُرف، ولها فى الأدب خصائص، ولها فى الفن خصائص أخرى.

– ومن خصائص المدرسة الكلاسيكية فى الأدب :

- الاهتمام بوضوح الفكرة.
- والعناية بعذوبة الأسلوب.
- والالتزام بتناسق العبارات.

– ومن خصائصها فى الفن:

- الالتزام بالأشكال والقواعد «الكلاسيكية».
- وعدم الاهتمام بالجوانب العاطفية والروحية.
- واستيحاء الموضوعات من أمور الحياة المركبة.

– و«الكلاسيكية» مدرسة تقابل المدرسة «الرومانسية».

٢ – المدرسة «الرومانسية»:

هى حركة أدبية فنية رافضة للواقع والتقاليد، ولها خصائص فى الأدب وفى الفن يقوم عليها مذهبها.

– فمن خصائص المدرسة «الرومانسية» فى الأدب :

- العودة إلى الطبيعة، وإيثار الحسى والعاطفة على العقل والمنطق.
- والثورة على المذهب العقلى الذى ساد فى القرن الثامن عشر الميلادى.
- واعتماد الروايات التاريخية، وقصص الخيال، والمغامرات، والحب، أسلوب تعبيرٍ عن المذهب «الرومانسى» فى الأدب.

– ومن خصائصها فى الفن:

● عدم الالتزام بالقواعد والأشكال التقليدية « الكلاسيكية ».

● والاهتمام بالجانب العاطفى والروحى.

● واستيحاء موضوعات الفن من أبسط أمور الحياة وأبعدها عن التعقيدات المدنية.

٣ - المدرسة «الكلاسيكية» الحديثة:

وهى مدرسة وقفت بخصائصها بين « الكلاسيكية » و« الرومانسية ». فهى تلتقى مع هذه وتلك فى أمور وتختلف معهما فى أمور.

- فـ « الكلاسيكية » الحديثة تلتقى مع « الرومانسية » فى:

● اعتبار الخيال مصدر إلهام لها، دون إهمال العقل.

● وتقديم الشعور على العقل، دون إهماله أيضًا.

- وتلتقى مع « الكلاسيكية » فى:

● الاهتمام بالدراسات « الكلاسيكية » والقواعد الأدبية القديمة.

● وإيثار العقل والمنطق السليم على العاطفة والخيال الجامح.

فهى بذلك مدرسة تلفيقية أو توفيقية تمزج أو توفق بين المدرستين وتلك خصائصها فى الأدب.

- أما خصائصها فى الفن فهى:

● موافقتها « للكلاسيكية » فى العودة إلى القديم، أى اليونانية والرومانية.

● وموافقتها « للرومانسية » فى العودة إلى العصور الوسيطة، أى العصور الوسيطة والفنون المسيحية.

٤ - المدرسة الواقعية:

عرفت هذه المدرسة أو ذلك المذهب فى أزمنة تاريخية مختلفة، فلم تقتصر على عصر النهضة الأوروبية وحده، وإنما حدث نزوع صريح نحو الواقعية فى مختلف مراحل التاريخ، من فنون مصر القديمة إلى فنون اليونان والرومان، إلى فنون العصور الوسيطة إلى فنون عصر النهضة الأوروبية.

– لكن فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى، بدت الواقعية أكثر وضوحًا عن سائر العصور السابقة، وكان وضوحها فى تعبيرها عن المناظر الطبيعية من جانب ومظاهر الحياة اليومية من جانب آخر، فسجلت الفنون الجمالية ذلك على أنه واقع جدير بالتسجيل.

– ومدلول الواقعية فنيًا يعبر بصراحة عن مضمون اجتماعى أو سياسى لم تتحدد المنطلقات الأساسية له إلا فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى، عندما اكتسبت الواقعية النزعة الطبيعية فى الفن التشكيلى بمختلف أنواعه.

– ثم انتشرت الواقعية بعد هذا التاريخ لتمثل حركة فنية ثورية تقوم على خصائص هى:

- معاداة النزعة المثالية فى الشكل والمضمون، ومعاداة التقاليد المهنية فى الفن، والأدب.
- ومناقضتها للجمالية المثالية «الكلاسيكية» التى تبحث دائمًا عن الجمال المطلق.
- ومناقضتها – كذلك – «للرومانسية» التى تبحث عن الخصوصية الفردية.
- واعتمادها على تحليل الواقع المنظور، دون التعلق بالخيال.
- ودراسة العناصر التى تصورها وتعبر عنها دراسة تحليلية جافة فى كثير من الأحيان.

وعند التأمل فى هذه الخصائص التى اتسمت بها الواقعية نجدها قد وقعت فى الرتابة والنمطية، وكلاهما يجلب الملل.

٥ – المدرسة الانطباعية – أو التأثيرية –:

انبثقت المدرسة الانطباعية عن المدرسة الواقعية، واستهدفت تحقيق موضوعية أكثر شمولاً، فحملت بذلك كل سلبيات الواقعية وأنواع قصورها.

– وللمدرسة الانطباعية – التأثيرية – خصائص تميزها عن غيرها من المدارس والمذاهب الفنية يمكن أن نشير إليها فيما يلى:

- التحليل العلمى الصارم للطبيعة، مما وصل بها إلى الذاتية.
- والنظرة المادية إلى الأشياء كلها، وهى بذلك تشبه الواقعية.
- وحصر الانتباه كله فى العين؛ إذ يرون العين أكثر رؤية ونفاذا، لأنها تكونت من التجربة الحسية، وهى بذلك تؤكد مشابهتها للواقعية أيضًا.
- والتخلّى – عند كثير من الانطباعيين – عن الاهتمام بالصورة الإنسانية، حيث جاءت

هذه الصورة فى حالات كثيرة على شكل بُقَع لونية مبسَّطة، تحوَّل معها الجسم الإنسانى إلى ما يشبه الظل الذى التقط بسرعة، وقد أدَّى ذلك إلى أن يكون للون عند هذه المدرسة قيم تشكيلية جديدة.

– ومما يؤخذ على المدرسة الانطباعية عند كثير من الفنانين والنقاد أمور، مثل:

- الاهتمام بالمظاهر العابرة – المظاهر الحسية والمادية –.
- وتمويه الشكل مما أفقده قيمته الحقيقية.
- وإهمال الموضوع، وإهمال كثير مما يتعلق بالحياة الإنسانية ومشكلاتها.

٦ – المدرسة الرمزية:

ويعبر بعض النقاد عن هذه المدرسة بأنها: «ما بعد الانطباعية» وهى مذهب فنى ذاع وشاع فى آخريات القرن التاسع عشر الميلادى ١٨٨٠م تقريبًا.

– والرمزية عند التأمل فى خصائصها تجعل الفن هدفًا للحياة؛ لأن الفن يعكس بوسائله التعبيرية إحساسًا أكثر عمقًا؛ إذ الطبيعة التى يحاكيها الفنان هى منطلق الفكر إلى ما يحلم به الإنسان.

– كما أن للمدرسة الرمزية أثرًا بارزًا فى أن تتلاقى الفنون التشكيلية مع النشاطات الثقافية الأخرى، فلسفية كانت أو أدبية أو علمية أو موسيقية.

– ومن خصائص المدرسة الرمزية:

- أنها تلجأ إلى الأسطورة والتاريخ، لكى يصبح نتاج فنانيها ذا صفة ثقافية، ليست فى متناول الجميع.
- وأنها تشبه أن تكون هروبًا من الواقع الذى تعيشه المدرسة الرومانسية ونزعتها، أى أن الرمزية تعمل على تصوير الأشياء المنظورة كما يتصورها الفنان بإعادة صوغها وتأويلها، بغض النظر عما تراه العين فى الطبيعة.
- وأنها ترفض المادية، بل ترفض المجتمع الذى جعله التطور بشعًا وحط من قيمته، لرفضه التوافق مع العلم والتقنيات الحديثة.
- وأنها ترفض النظريات الجمالية التى تؤكد الاهتمام الشديد بالواقع، وإن كان الواقع

عندهم لا يقتصر على المادىّ وحده، بل يتخطاه ممتداً إلى الشعور والتأمل الباطنى.

• ومع هذه الأنواع من الرفض المتعدد؛ فإن الرمزية ذات ثقافية عالية، وعلى اطلاع جيد بأعمال أسلافها الذين مهدوا أمامها الطريق منذ القرن الخامس عشر الميلادى، ومن أشهر هؤلاء الذين مهدوا أمامها الطريق فنانون وأدباء مشاهير هم:

رفائيل، ومايكل أنجلو، وليوناردو دافينشى.

• وقد أسهمت الرمزية فى تجديد الفن الزخرفى فى عديد من المجالات الحرفية، وكانت بغير أدنى مبالغة هى واضعة اللبنات الأولى للمدرستين التعبيرية والسريالية.

٧ – المدرسة التكعيبية:

هى حركة فنية نشأت فى الربع الأول من القرن العشرين الميلادى.

وتعتبر المدرسة التكعيبية رَدَّ فعل للمدرسة الانطباعية – التأثيرية – لأنها تهدف إلى إعادة بناء الفضاء فى اللوحة التشكيلية على أسس جديدة ومتينة، بعيداً عن السهولة والإغراءات البصرية الحسية التى لجأ إليها الانطباعيون، فهى من هذا الجانب أكثر حسماً وجذرية.

– والتكعيبية تحاول أن تعبر عن حقيقة مطلقة، عندما تقدم صورة عن الموضوع تدعى أنها أكثر موضوعية من مجرد التوقف عند مظاهر الموضوع الخارجية؛ لأنها تستخدم بِنًى هندسية.

– ومن حيث نشأة المدرسة التكعيبية، فإنها تدين فى هذه النشأة لفنانين شهيرين هما:

بيكاسو الفنان الإسبانى (١٨٨١ – ١٩٧٣م).

وبراك جورج الفنان الفرنسى (١٨٨١ – ١٩٦٣م).

فقد تمكن «بيكاسو» من التحكم فى المسائل التشكيلية المطروحة، بحدة ذهنية وانضباط ذاتى، واتجه إلى حلول فنية بريئة لم تكن مقبولة فى البداية.

– ومن خصائص التكعيبية:

• البحث عن نماذج تشكيلية جديدة، وعلى فرض أن هذه النماذج قد استُمدت من الطبيعة إلا أنها تتخطاها دون تقليد أو محاكاة.

• والتّخلّي عن المفاهيم التقليدية للتصوير، بحيث يكون التركيز على إدراك العلاقة المتبادلة بين الأشياء دون الاستعانة بأى منهجية تصويرية تقليدية.

• واستخدام وسائل تشكيلية قائمة على الخطوط المتداخلة، وعلى السطوح الملونة المتقابلة والمتراكبة.

– وللتكعيبية مراحل أهمها:

• التكعيبية التحليلية: وتقوم على روح التَقصى والتشريح للشكل.

• والتكعيبية التاليفية: وتقوم على التحليل التاليفى لعناصر مختارة ذات دلالة.

• وما بعد التكعيبية: وهى محاولة بعض الفنانين ان يحولوا التكعيبية إلى فن ذى طابع زخرفى.

– وقد رافقت التكعيبية حركات فنية عديدة منها:

• الأورفية: التى جعلت من اللون الوسيلة التشكيلية الأساسية فى اللوحة.

• والصفاتية: التى تدعى أنها وضعت قوانين أساسية للفن تسعى إلى أن تجعل منه قاعدة عريضة، وتطالب بالعودة إلى الأشياء المرئية نفسها دون تحديد أو تشويه.

• والتصوير الماورائى: وقد عرف بالتصوير «الميتافيزيقى» أى ما بعد الطبيعة أو ما وراءها، وهى مدرسة تحاول البحث عن البساطة فى الأشكال وعن السحر الملازم لها.

• والمستقبلية – وهى التى سنفرد لها الحديث التالى:

٨ – المدرسة المستقبلية:

هى فى الأصل تقوم على خلفية سياسية إيطالية، إذ تقوم بتجسيد الطموحات الإيطالية الاستقلالية.

غير أن لها توجهها الفنى الذى جعل منها مدرسة فنية.

فهى حركة فنية تشبه التكعيبية فى أنها شملت مختلف الأنشطة الثقافية مثل: الأدب والموسيقى والتصوير والنحت.

– وكان للمستقبلية صلة بالتيارات الفنية المعاصرة لها مثل:

• التكعيبية والأورفية فى فرنسا.

● والتعبيرية فى ألمانيا.

● والإشعاعية فى روسيا.

– وللمدرسة المستقبلية خصائص تميزها من أهمها:

● محاولتها التعبير عن الحركة انسجاماً مع مواقفها الرافضة لكل أشكال التقليد.

● وإصرارها على تمجيد كل أشكال الابتكار.

● ودعوتها إلى الثورة ضد طغيان التعبيرات المطّاطة.

مثل: التناغم، والذوق السليم، وغيرهما من الألفاظ المطاطة عند هذه المدرسة.

– ومن خصائص هذه المدرسة أن لها رؤية تخصها فى رفض القديم ونقد النقاد والمتاحف، وتمجيد المكتشفات الحديثة، ومن مقولاتهم فى ذلك:

● أن نقاد الفَنّ مضلِّلون، ولا نفع فيهم.

● وأن المتاحف أماكن عامة ننام فيها إلى الأبد، إلى جانب كائنات مكروهة ومجهولة.

● وأن كل قديم سلفى مرفوض ويجب أن نكون ضده.

● وأن روعة العالم تتجلى فى جمال كل ما هو جديد.

● وأن جمال السرعة والسيارة والقطار والطائرة أجمل من انتصار «ساموتراس»[1].

– وقد أدت هذه الخصائص إلى أن تكون المدرسة المستقبلية قصيرة الأجل بالنسبة لسائر المدارس الفنية.

٩ – المدرسة التعبيرية:

هى مذهب فى الفن ناجم عن الموقف المتشدد من المواقع، من أجل تغييره.

ولهذه المدرسة طريقة خاصة فى التعبير، اتبعتها فى مختلف المراحل للتطور الفنى، بدءاً من فنون كهوف العصر الحجرى واستمراراً إلى التعبيرية التجريدية فى الخمسينيات من القرن العشرين الميلادى.

---

(١) ساموتراس: تمثال يونانى فى غاية الجمال من القرن الثانى قبل الميلاد.

– وللمدرسة التعبيرية خصائص من أهمها:

- أنها لم تقتصر على جماعة بعينها من الفنانين، ولا على مرحلة تاريخية بذاتها من مراحل تاريخ الفن، وإنما شغلت بالفن من كهوف العصر الحجرى إلى منتصف القرن العشرين الميلادى.
- وأنها تميل بل تتطابق مع الفن والثقافة الجرمانية، وإن كانت لا تحسب ظاهرة جرمانية بقدر ما تحسب ظاهرة أوروبية أصبحت عالمية فى القرن العشرين.
- وأنها فى ألمانيا تأثرت بالحرب العالمية الأولى، فعبَّرت عنها لدى عدد من الفنانين فى مقدمتهم «بيكاسو» فى جداريته الشهيرة التى جعلها لوحة تمثل أثر الخراب والدمار الذى أحدثته الحرب فى مدينة «جرينكا» الإسبانية.
- وقد بدا وسط اللوحة وقد اختلط فيها منظر الدمار، مع حشد من الناس، ومصارعة ثيران، وحصان ينهار فوق محارب ممزَّق لا تزال قبضته تمسك بسيف منكسر.
- وإلى يسار اللوحة: امرأة يلُفُّها السواد تحمل ابنها الميت، وخلفها ثور وعصفور.
- وإلى يمين اللوحة: امرأة تنطلق من داخل بيت تهرب وقد شُلَّتْ رجلها، وامرأة تطل من نافذة ممسكة بقنديل تبحث عن موتاها.

هذه اللوحة الجدارية «لبيكاسو» تعبر عن الواقع المر للحرب وتحذِّر منها، وتؤكد أن خراب مدينة «جرينكا» ليست إلا بداية لخراب ودمار تحدثه أى حرب، وذلك من شأنه أن يؤدى إلى هلع بل يأس عالمى غير محدود للناس عموماً، ولمن اصطلوا بنار الحرب على وجه الخصوص.

إن جدارية «بيكاسو» عن «جرينكا» جديرة بالتأمل اليوم[1].

– ثم انتشرت الحركة التعبيرية خارج فرنسا وألمانيا، فانتقلت إلى بلجيكا والشمال الأوروبى.

---

(١) إنما توسعت فى الحديث عن جدارية «بيكاسو» لأؤكد أن ما تفعله إسرائيل بقيادة شارون وأمثاله فى فلسطين، وما فعله «بوش» فى أفغانستان، وما قام بفعله فى العراق، ما هو إلا الخراب والدمار الذى صوره «بيكاسو» فى جداريته سنة ١٩٣٧م أى قبل وقوع الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩م).

- وقد اتصلت هذه التعبيرية بالواقع الاجتماعى المباشر، والتزمتْ بقضاياه وعبَّرت عنه تعبيراً قويًا.
- ثم انتقلت التعبيرية إلى أمريكا اللاتينية فى المكسيك والبرازيل حيث أصبحت اللوحات الجدارية وسيلة للتعبير عن قضايا الشعب الاجتماعية بأسلوب تعبيرى ملحمى.
- وفى الولايات المتحدة الأمريكية ظهرت حركة تعبيرية ذات أهداف اجتماعية، انضم إليها عدد من الفنانين منهم:

ادوارد هوين.

وآرتولى كارل.

وأولبرايت.

وجوركى وغيرهم.

١٠ - المدرسة الدادائية:

هى حركة عنيفة رفْضية، واكب ظهورها بداية الحرب العالمية الأولى؛ فى بعض العواصم الغربية مثل: زيورخ، وباريس وكولونيا، ونيويورك.

ثم انتقلت بعد ذلك إلى مناطق أخرى من العالم.

- وكلمة دادا توجد فى بعض اللغات مرتبطة بلغة الأطفال عموماً، وتعنى:

فى اللغة الألمانية: السذاجة.

وفى اللغة الفرنسية تعنى: الحصان الخشبى.

وفى اللغة الروسية تعنى: حرف جواب بمعنى: نعم...

- والطابع الطفولى والعبثى للكلمة يحكى رفضًا لعالم القيم والتقاليد المتعارف عليه، كما يعنى تَبنِّى المواقف الساذجة، التى لم تكن الغاية منها إلا الردّ الغاضب الرافض لما خلفته الحرب من دمار وخراب، ومقابلة هذه الحرب بمزيد من الاستهزاء.

– والدادائية مذهب فى الأدب والفن يخلو من المبادئ المترابطة أو النظم المنهجية المتماسكة التى تجعل منها تياراً فنيًا محدداً، وهى ظاهرة عنيفة تعبر عن أزمة اجتماعية وثقافية.

– وللمدرسة الدادائية خصائص من أهمها:

- الموقف العدائى، والسلبى من المجتمع «البرجوازى» الحديث، ذلك المجتمع الذى أعلن إفلاسه العقلانى عندما شارك فى هذه الحرب العالمية الأولى.
- والسخط على الواقع السياسى والاجتماعى للمجتمع، وقد أفسدته الحرب ودمرت قيمه.
- والثورة على كل التقاليد الموروثة فى جميع مجالاتها الثقافية والأخلاقية والقيمية، لعجزها جميعا عن منع هذه الحرب.
- والتمرد على كل المقدسات ورفضها سواء كانت دينية أو وطنية أو خلقية أو منتسبة إلى الشرف، ونزع القناع عن كل هذه المقدسات، بل اعتبارها كالأصنام.
- والدادائيون يرون أن الفن بات عاجزاً على الصعيد الأخلاقى، بعد أن سقط فى حمأة التعبير عما حددته له «البرجوازية».
- وقد بلغ السخط على الفن لدى الدادائين أن أحد أقطابهم وهو: «مارسيل دوشان» سخر من الصور «البرجوازية» فعمد إلى إضافة لحية وشاربين إلى لوحة «الجيوكندا» التى رسمها «ليوناردو دافينشى»، ثم بلغ به السخط على الفن أن امتنع نهائيًا عن ممارسته.
- وتفجر فى نفوسهم اليأس من المجتمع فاتسعت الهوة الفاصلة بينهم وبينه، بل يئسوا من الزمان والمكان، وأدانوا المجتمع كله بارتكابه هذه الوحشية الجنونية «الحرب» التى لا تزال قائمة، بل هى آخذة فى التوسع.
- والدادائيون يصرون على الهدم تعبيراً عن أزمتهم ويأسهم، ومصدر إصرارهم على ذلك هو اقتناعهم بأن المجتمع الغربى بات فاسداً يستحق الهدم والإبادة لبناء إنسان جديد، يتخلى عن كل قديم وكل مقدس فى المجتمع.

– والدادائية فى صورتها النهائية أعلنت عداءها للفن، ونادت بما أطلقت عليه «اللا فن»!!!

١١ - المدرسة السريالية:

هى حركة أدبية فنية تسمى: «فوق الواقعية».

وتهدف إلى التعبير عن المخيِّلة كما تظهر فى الأحلام.

وقد أسسها فى «باريس» «أندريه بريتون» سنة ١٩٢٤م، ونشر «أندريه بريتون» البيان السريالى الشهير.

– ومن أشهر الفنانين الذين اتخذوا السريالية مذهبًا فى الفن:

- «سلفادور دالى».
- و«ماكس أرنست».
- و«مارك شاجال».
- و«جوان ميرو».
- و«مارسيل روشان».

– وقد أدرك السرياليون أن الثورة الاجتماعية أساسية بل ضرورية، وأن ثورتهم الخاصة بهم وهى ثورة العقل والفكر لا تكفى وحدها لمواجهة المسائل الاجتماعية، وأن عمل الفكر وحده لا قيمة له إلا بقدر ما يسهم فى تغيير العالم كله.

– وللمدرسة السريالية خصائص من أهمها:

- أن نشاط السرياليين يجب أن يكون «خارج أى اهتمام جمالى أو أخلاقى».
- وأنهم يتجاهلون القيم الفنية، ولا يعيرونها أدنى اهتمام، لأنها فى نظرهم لا تساوى شيئًا.
- ويرفضون تمامًا التقيد بحرفية النصوص.
- ويفضلون التعبير التلقائى الآلى على الصورة الفنية مهما تكن إذ هى مرفوضة عندهم بحد ذاتها.
- ولا يعتبرون العمل الفنى كله من رسم وتصوير ونَحْت هدفًا بذاته تستمتع به العين، بل هو وسيلة من وسائل التعبير، ووسيلة لاكتشاف الذات.

● وهم لا ينفون الطابع الفنى للأعمال التشكيلية الأكثر آلية، مثل رسوم: «أندريه ماسون» ومثل بعض أعمال «ميرو» التخييلية، وأعمال: «أرنست» ذات الصور الحُلْمية المقلقة.

– والسريالية مدرسة ارتبطت بالدادائية، بل اعتبرتْ عند كثير من النقاد امتداداً لها.

غير أن السريالية لم تُعَمَّر طويلاً، لأنها انتهت أو لم تستطع أن تمتد إلى أبعد من بداية الحرب العالمية الثانية، إذ عاشت فقط فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية.

١٢ – المدرسة التجريدية:

هى مذهب فنى أو تيَّار أو ظاهرة انتشر على مستوى العالم كله، بدأ ظهوره فى الغرب مع بداية القرن العشرين الميلادى، ثم تأكد وجود هذا المذهب فى فترة ما بين الحربين العالميتين (١٩١٦ – ١٩٣٩م) وازداد وضوحًا ورسوخًا بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥م).

وبلغ قمة ازدهاره فى بداية الخمسينيات من القرن العشرين.

– والتجريدية مذهب يمكن أن يوصف بأنه لا صورى أو لا موضوعى.

– والتجريدية جاءت فى أعقاب التكعيبية، والتكعيبية – كما قلنا آنفًا – جاءت فى أعقاب الانطباعية.

– وللمدرسة التجريدية خصائص فنية أهمها:

● أنها ليست على صلة بالظواهر الخارجية، ولا تتضمن أى تذكير بالواقع، بل ترفض الإشارة إليه.

● والتجريدية فى التصوير والنحت تتخطَّى الصورة، وترفض المحاكاة، ولا تقبل التقيد بالمنظور أو الطبيعة.

● والعمل الفنى التجريدى يتكون من مُسَطَّح تقتصر عناصره الأساسية على: خطوط، أو مساحات، أو أشكال وألوان بحيث يشكل تقابلها وتداخلها موضوع العمل الفنى.

– وقد تولد عن المدرسة التجريدية تيارات فنية تنتمى إليها منها:

● التجريد العاطفى.

- والتجريد اللاموضوعى.
- والتجريد اللاشكلى.

وغير ذلك من التيارات المعروفة فى تاريخ الفن ومدارسه.

وبعد، فلا يكتمل حديثنا عن الجمال والجمالية فى عصر النهضة الأوروبية حتى نتحدث عن نقطتين مكملتين لما قلنا هما:

أ – أشهر أعلام النهضة الأوروبية فى القرون الثلاثة قبل القرن العشرين الميلادى.

ب – وأشهر أعلام النهضة الأوروبية فى القرن العشرين.

■■■■

٤ - أشهر أعلام النهضة الأوروبية فى الجمال والفن

أولاً: أشهر أعلام النهضة الفنية الأوروبية فى القرون الثلاثة قبل القرن العشرين ممن لهم صلة بالجمال والجمالية

● هذه القرون الثلاثة فى الغرب، سيطرت عليها موجات عاتية من الإنكار والشك والارتياب، بحيث يمكن اعتبار هذه الموجات من خصائص هذه القرون.

فقد شهدت هذه القرون إنكاراً للدين، بل للأديان جميعًا، وإنكاراً للألوهية، وإنكاراً لعالم الغيب.

وإنكاراً لأعمال رجال الدين، وإنكاراً لتحكم الكنيسة فى حياة الناس وأموالهم وحربهم وسلمهم، وإنكاراً للإقطاع ونظمه.

– ثم تخطت موجات الإنكار مجال العقائد والأديان، لتدخل فى مجال المشاهدات والمحسوسات، فأنكروا عالم الروح وعالم الغيب، بل أنكروا دوران الأرض وحركتها حول الشمس، وأنكروا أن يكون الإنسان قد خلق ابتداءً بزعم بعضهم أنه حلقة من سلسلة مخلوقات تطورت حتى أعقبت الإنسان.

– إنها بغير شك قرون سيطر عليها الإنكار والتعطيل والشك والارتياب.

● أما من ناحية الجمال والفن والقيم الجمالية، فقد سَرَتْ عدوى الإنكار والشك والارتياب فى المسلمات الفنية والجمالية إلى عدد غير قليل من مفكرى هذه القرون وفلاسفتها، على النحو الذى يوضحه حديثنا عن بعض مشاهير هذه القرون فى مجال الجمال والفن.

● ومشاهير هذه القرون الثلاثة قبل القرن العشرين أكثر من أن يحصوا، إذا نظرنا إليهم من خلال تأثيرهم فى النهضة فى كل مجالاتها، بل إن الذين أثروا فى الجمال والفن فى هذه القرون الثلاثة كثيرون أيضًا، فلابد لنا من الاكتفاء بالحديث عن بعض هؤلاء المشاهير مع تأكيدنا على أهمية جميعهم فى النهضة الفنية والجمالية.

إن هذه القرون الثلاثة هى التى أسهمت إسهامًا حقيقيًا فى الجمال والجمالية، وهى التى وُضعت فيها معايير مهمة فى تذوق الجمال، بل إن القرن الثامن عشر الميلادى هو الذى برز فيه مصطلح «علم الجمال».

وإذا كنا خصصنا خمسة من مشاهير هذه القرون الثلاثة بالحديث فإن ذلك ما تقتضيه ظروف هذا الكتاب، وإلا لسهل علينا أن نتحدث عن خمسة مشاهير من كل قرن من هذه القرون الثلاثة، دون توسع أو استقصاء لأن كل قرن من هذه القرون حافل بعدد كبير من هؤلاء المشاهير الذين كتبوا عن الجمال والجمالية والإحساس بالجمال وتذوقه.

لقد سكتنا مضطرين عن الحديث عن:

- جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤م).
- وديفيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦م).
- وبين توماس (١٧٣٧ - ١٨٠٩م).

وغيرهم - مثل: بيركلي، وميل - الذين كانت لهم قدم راسخة في الحديث عن الجمال والجمالية والتذوق الجمالي، والتفضيل الجمالي.

● وسوف نقصر حديثنا على خمسة من مشاهير النهضة الفنية الأوروبية هم:

- شافتسبري (١٦٧١ - ١٧١٣م).
- وعمانويل كانط (١٧٢٤ - ١٨٠٤م).
- وجورج هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١م).
- وآرثر شوبنهور (١٧٨٨ - ١٨٦٠م).
- وفردريك نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠م).

في حديث بالغ الإيجاز عن كل منهم.

١ - «أنتوني شافتسبري» (١٦٧١ - ١٧١٣م)

فيلسوف إنجليزي تولى تربيته الفيلسوف الإنجليزي «جون لوك»، و«لشافتسبري» مذهب أخلاقي عارض به النزعة الفردية في الأخلاق، محاولاً أن يقف موقفا وسطا يوفق فيه بين الأنانية والغيرية، على أساس أن هذا التوفيق ممكن مادام هناك توافق بين الفرد والمجتمع، توافق يجعل رفاهية المجتمع تنعكس على سعادة الفرد، وهذا التوافق غريزي في الإنسان، يسميه «شافتسبري»: «الحاسة الخلقية».

- وقد حاول «شافتسبري» تأكيد أهمية إحساس الإنسان بالجمال الطبيعي.

- كما حاول أن يوفق بين الدين والعلم، فأشار إلى أن الطبيعة ذات تنظيم فنى خاص يدل على وجود خالق عظيم، وأن الطبيعة ذات خصائص روحانية تجعلها جميلة بالنسبة للوعى الإنسانى.

- ورفض «شافتسبرى» التفسيرات المادية الآلية للجمال، فأكد أن للجمال فى ذاته قيمة مستقلة؛ فالطبيعة جميلة فى ذاتها، وكل إنسان يمكن أن يتذوق جمال الطبيعة من خلال ما فى نفسه من حساسية خاصة بالحكم الجمالى.

- وقد نادى بأن جمال الطبيعة يمكن أن يعاد تجسيده فى جمال الإبداع الفنى، لأن الإنسان من خلال جهوده الإبداعية يقوم بتوسيع حدود القيم الجمالية الموجودة فى الطبيعة، ويعمل على تحقيقها.

- ويرى أن التذوق يقوم بدور أكبر فيما يتعلق برؤية عوامل الانسجام أو التناغم فى جماليات الفن والطبيعة، وفيما يتعلق بالأحكام الخاصة بالجمال والإبداع.

٢ - «عمانويل كانط» (١٧٢٤ - ١٨٠٤م)

فيلسوف ألمانى عَدُّوه من أعظم الفلاسفة جميعًا، ومن أبرز أعماله الفلسفية تفنيده لمذهب الشك الذى انتهت إليه فلسفة «ديفيد هيوم».

- جعل «كانط» الذات منطلق الحكم الجمالى.

ورفض البحث عن الجميل فى ذاته.

وأفرد للجمال مجالاً مستقلاً ذا كيانٍ قائم بذاته.

ورفض تفسير التجربة الجمالية بردها إلى عامل من خارجها.

- وقد بذل «كانط» جهداً كبيراً فى آخريات حياته، حول البحث فى الشعور بالجمال، ووجد أن هذه القضية فى حاجة إلى دقة ومراجعة للوصول إلى منطقٍ للذوق، فتوصل إليه فى نقده لملكة الحكم.

- وقد توصل «كانط» إلى عدد من المبادئ هداه إليها بحثه، ومن هذه المبادئ:

- أنّ عالم الطبيعة يسوده: «مبدأ العِلِّيَّة».
- وأنّ عالم الأخلاق يسوده: «مبدأ الحرّية».

● وأن عالم الجمال يسوده: «مبدأ الغائية الذاتية».

– ويرى «كانط» أن الشيء المحكوم عليه بالجمال يظهر متناغمًا من حيث استقلاله عن المضمون التجريبى، وعن كل عَرَض فردى.

وأن الحس الجمالى هو هذا التناغم بين ملكة الفهم والمخيلة، وينتج من هذا التناغم الشعور باللذة.

وأن الحكم الجمالى يوحى بالغاية دون أن ينحصر فى غاية صورية، أو منفعة، أو تصور عقلى، وإنما الهدف هو تيسير التناغم بين الملكات، أو ملاءمة الفكرة المحصلة عن الشيء الجميل وإدراك هذه الملاءمة.

– وقد انتقل «كانط» بعلم الجمال إلى آفاق جديدة لا تبحث فى ماهية الجمال وإنما فى شروط إدراكه إنسانيًا.

– ويوضح «كانط» أن الغائية التى يوهمنا بها الجمال الطبيعى والفنى لا ترجع إلى الواقع، وإنما إلى الطريقة التى ننظر بها إلى الطبيعة والفن، وهى التى ترفع اللذة التى نشعر بها تجاه الجميل من المستوى الحِسِّىّ أو التجريبى إلى المستوى الروحى الذى يجعل من الجمال غاية متفقة مع عالم الغايات الأخلاقية.

٣ – «جورج فلهلم هيجل» (١٧٧٠ – ١٨٣١م)

فيلسوف ألمانى كتب فى الأخلاق والجمال والتاريخ والدين، وفلسفته مثالية مطلقة تقوم على أساس أن للكون روحا يتبدَّى فى مراحل تطورية يعينها المنطلق الجدلى.

– ويؤكد «هيجل» أن علم الجمال موضوعه الجمال الفنى لا الجمال الطبيعى لأن الجمال الفنى هو إبداع الروح والوعى والحرية، فهو بذلك أرفع مقامًا من الجمال الطبيعى.

– والفن عند «هيجل» إبداع وليس محاكاة، لأن المحاكاة عنده لا توصل إلى عمل فنى ذى قيمة، وأن المضمون فى العمل الفنى لا يتجه إلى الرغبات الحسية أو يستهدف مردودًا نفعيًا، ففى الفن يتحول المحسوس إلى روحانى.

– ومن المستغرب أن يشير «هيجل» إلى أن الإسلام قد أدان المحاكاة ومحاولاتها، ورأى عامة المسلمين أن تصوير الطبيعة الذى كان موجودًا على جدران المعابد الوثنية سوف يدين مؤلفيها يوم الحساب.

– ويقرر أن الفن ليس هو الوسيلة الأكثر تأهيلاً لإعلاء الأحاسيس والغرائز إلى مستوى أرقى من الوعى؛ إذ ليس الشكل ولا المضمون يستطيعان ذلك، لأن المضمون يكشف عن جزء من الحقيقة، والشكل يُبْقِى الفن محصوراً فى نطاق ضيق.

– ويؤكد أن ارتباط الشكل بالمضمون فى الفن هو اكتمال الفن، وتحقق المضمون أو الفكرة يصبح أوضح ما يكون عنده فى فن النحت، أى فى النمط «الكلاسيكى»، وتحقق الشكل يصبح أوضح ما يكون عنده مع عدم وضوح الفكرة – فى فن العمارة، وذلك هو النمط الرمزى، وتحقق الفكرة على أنها روح مجردة مع تجاوز الشكل الحسى إنما يكون فى الشعر والموسيقى، وذلك هو النمط «الرومانتيكى».

– وارتباط الشكل بالمضمون عند «هيجل» يجعله من أصحاب الفلسفة المثالية «الميتافيزيقية» للجمال، ويؤكد أنه من المنادين بالوحدة العضوية فى العمل الفنى.

– ويعرف «هيجل» الجمال بأنه تجلِّى الفكرة بطريقة حسية.

– ويرى «هيجل» أن الفن خير يعبر عن المطلق لا يتعامل بالتصورات المجردة، بل هو يجمع إليها العينات الحسية.

– ومما يقول به «هيجل» أن الجانب الحسى من الفن يتمثل فى شكل يخاطب العقل، وأكثر الحواس قابلية للعقل: السمع والبصر، أما سائر الحواس من شم وذوق ولمس فإنها مستبعدة، لأنها لا تتعامل إلا مع ما هو مادى.

واللذة المستمدة من موضوعات هذه الحواس: الشم والذوق واللمس لا تتعلق بالجمال الذى يسعى إليه الفن، لأن المحسوس فى الفن يتحول إلى روحانى.

٤ – «آرثر شوبنهور» (١٧٨٨ – ١٨٦٠م)

فيلسوف ألمانى أخفق فى أن يكون أستاذاً، فعاش يفكر، وأقام فلسفته على مثالية «كانط»، ومن آرائه الفلسفية:

- قوام العالم حاجات لم تُشبع ولهذا امتلأ بالألم، وليست اللذة إلا انتفاء الألم.
- وَأْدُ الرغبات وقتل الإرادة هو طريق الخلاص.
- والأحياء فى صدام مستمر، لتعارض رغباتهم وإراداتهم.

– والفن عند «شوبنهور» هو التصور الدقيق للإرادة، دون أن يؤدى ذلك إلى تطابق الفن

والفلسفة، إذ الفن هو التأمل فى الأشياء المستقلة عن مبدأ العقل فهو بالتالى أفضل نمط للمعرفة الفلسفية.

– والفنان عنده هو من أعارنا عينيه لننظر بهما إلى العالم.

– ويرى « شوبنهور » أننا عندما نحكم على شيء بالجمال، فإننا نقرر أنه قد أصبح موضوعًا لتأملنا الجمالى والفنى، ورؤيتنا له تحولنا فى نفس الوقت بل اللحظة من الذاتية إلى حال الموضوعية.

– ومن آراء « شوبنهور » رؤيته الخاصة للفنون، وقدرتها فى نظره على تحقيق الجانب التأملى الجمالى، وعلى سبيل المثال:

* فإن المنفعة تتغلب على الجانب الجمالى فى فن العمارة، وفن تنسيق مساقط المياه، وفن تنسيق الحدائق، إذ كل ذلك أقل طواعية للتأمل الجمالى.

* وفن النحت أقدر على تمثيل المثل النوعية، وبالتالى فهو يظهر الجمال فى الطبيعة الإنسانية فى عمومها، ويظهر الرشاقة فى حركة الإنسان والحيوان.

* وفن التصوير أقدر على إظهار الجمال من فن النحت.

* وفن الشعر أرقى درجة من فن التصوير، لأنه يعبر عن المثل بوساطة الخيال الذى يجسد التصورات من خلال الكلمات، ويرى أن الشعر الغنائى تغلب عليه ذاتية الشاعر، أما الشعر الملحمى فتغلب عليه الموضوعية.

والمأساة فى الشعر « التراجيديا » هى فى قمة الفن الشعرى لأنها تقدم صراع الإرادة فى أعلى درجاته.

واللذة الجمالية التى تشعر بها عند تذوق الشعر المأساوى إنما يرجع مصدرها إلى أن الإنسان – حتى وهو فى قمة النكبات التى تصيبه – يستطيع أن يدرك أنه قادر على أن يتنازل عن إرادة الحياة.

* والموسيقى عنده تجسد الإرادة مباشرة، فهى لا تكرر أى مثال لموجودات هذا العالم، وليست الموسيقى كسائر الفنون التى تتجسد من خلال المثل المعبرة عن موجودات العالم.

فالموسيقى عنده فن قائم بذاته، يستمد قيمته الجمالية من قوانينه الخاصة، إذ الموسيقى تجسد قوانين الوجود ولكنها لا تحاكى الوجود[1].

٥ - «فردريك نيتشه» (١٨٤٤ - ١٩٠٠م)

فيلسوف ألمانى مات عنه أبوه فربته أمه على التقوى، فانقلبت تقواه ثورة عقلية، تأثر بفلسفة «شوبنهور» وصادق «فاجنر» ثم انقلب عليهما وعلى سائر أصدقائه بعد إصابته باضطرابات عصبية، وفى فلسفته شاعرية ورهافة حس.

- أبرز ما فى فلسفته عمومًا هو دعوة الإنسان المتمتع بإرادة القوة إلى السيطرة على الطبيعة من خلال الفن والعلم والفلسفة.

- يرى «نيتشه» أن الفنان هو الذى يسعى من خلال إرادته الكلية التى هى مصدر كل إبداع فنى على فرض إرادته على الطبيعة وتغييرها من خلال رؤيته المأساوية «التراجيدية» وليس من خلال المعرفة العلمية والتصورات العقلية.

- ويقول «نيتشه»: إن أهم عمل فنى ينجزه الإنسان هو تحقيقه ذاته، وهى دعوة سوف يتلقاها بالقبول أكثر من اتجاه فلسفى جمالى جاء بعد «نيتشه» ليؤكد بها على «اللامعقول» وضرورة استكشاف الباطن وعدم الوقوف عند التصورات العقلية والمعرفية الوضعية.

- وفى كتاب «لنيتشه» سماه: نشأة التراجيديا، أكَّد أن أصول الفن، ومنابع الخلق والإبداع الإنسانى إنما توجد فى المظهر المزدوج للطبيعة الإنسانية، وهو مظهر الحُلم والأغنية، ونتيجة لذلك فقد أصبح الوجود عند «نيتشه» يُفهم بالاستناد إلى المصطلح الجمالى «الاستاطيقى».

- وعنده أن مبدأ التوازن ومبدأ الجمال فى العمل الفنى يرجع إلى الحركية لا إلى السباتية والسكون؛ لأن الحركية عنده تعنى: التَّوتُّر المستمر بين القوى المتعارضة.

والإبداع الفنى بناء على ذلك تعبير عن الصراع والمنافسة، وثمرة للانفعال الجيَّاش، أى أن ذلك يظل دائمًا وراء الفن والإبداع والتغيير؛ وبهذا يفرض الإنسان إرادته على موجودات العالم، ويغير فيها كما يشاء.

---

(١) ليس رأى «شوبنهور» مُسَلَّما به عند كثير من كبار الموسيقيين مثل «باتير» Pater، و«هانسلك» Hanslik.

- وعند «نيتشه» أن الموسيقى أعلى مراتب الفنون جميعاً، لأنها صورة للإرادة، إذ هى تعبير عن جوهر الموجود.

والنشوة المستمدة من روح الموسيقى هى النشوة الحقيقية، والجمال الحقيقى؛ لأنها نشوة مصدرها الخلاص من الفردية ومن الشعور بأبدية الحياة.

- ويؤكد «نيتشه» أن الحضارة الأوربية المعاصرة، تفتقر إلى الروح الموسيقية، كما تفتقد الإحساس الباطنى أو القُوىَ الإرادية التى عدها المصدر الأول للإبداع الفنى

■■■■

ثانياً: أشهر أعلام النهضة الفنية الأوروبية فى القرن العشرين

فى هذا القرن العشرين شعر كثير من مفكرى الغرب - علماء وفلاسفة وأدباء - بما فى نفوسهم من خواء، نتيجة لما كان سائداً فى القرون الثلاثة التى سبقت القرن العشرين وبخاصة القرن التاسع عشر من إنكار للدين وتشويه للعقيدة، وتعطيل وتجديف وشك؛ شعروا بذلك فأرادوا - على غير اتفاق فيما بينهم - أن يخرجوا من هذه الدوائر المظلمة بما فيها من ضلال، فاجتهدوا أن يوفقوا بين العلم والدين، أو بين أصول العلم وأصول الإيمان ليقاوموا هذا الخواء وهذا الضلال، فقاموا بجهود ملموسة فى هذا المجال..

- كما فعل «د. ألكسيس كاريل» فى مجال العلم، وكما فعل غيره من العلماء.

- وكما فعل «سدنى هوك» وغيره فى مجال الفلسفة، حيث حاولوا التوفيق بين المدرسة المادية والمدرسة العقلية أو الروحية أو المثالية.

- وكما فعل: «برنارد شو» وغيره فى مجال الأدب.

فعلوا ذلك بإصرار واهتمام وبحث علمى دقيق، حتى ليجوز لنا أن نقول: إن القرن العشرين فى الغرب كان قرن التوفيق بين الأضداد، وقرن مواجهة الإنكار والتعطيل والشك فى الحقائق الدينية والعلمية والفلسفية والأدبية والفنية.

● ولقد عبَّر بعض المفكرين الغربيين فى القرن العشرين عن أهمية الدين والتدين فى حياة الإنسان.

● **فمن العلماء فى هذا المجال:**

- «وليم جيمس» العالم الفيلسوف الأمريكى الذى قال: «إن جوهر الديانة هو الإيمان بالبقاء، وإن هذا البقاء مرهون بوجود قوة صديقة للإنسان وراء الظواهر الكونية أو المادة العمياء».

- و«جوليان هكسلى» عالم الأحياء، الذى قال: «إن شعور الإنسان بالقداسة كان فى قرارة كل عقيدة دينية، وكذلك الشعور بالتسليم والاتكال، إلا أن الشعور بالقداسة هو أعمق الأسس فى عناصر كل ديانة..، ولولاه لما كانت للإنسان ديانة على الإطلاق».

- و«جوردون آلبورت» أستاذ علم النفس بجامعة «هارفارد» جاء في كتابه: «الفرد وديانته» قوله: «إن الإنسان يطلب المعرفة من وراء العقيدة والإيمان، وإنه ينظر إلى الإيمان كأنه برهان على أنه قد وثق بالله، فاستحق أن يهديه في طريق المعرفة، ويتجلى عليه بما هو أكبر من قدرته لو اعتمد على عقله وفهمه، فموقف المؤمن كموقف التلميذ الذى يطمئن إلى أستاذه فلا يمتحنه، ولا يتردد في قبول دروسه ومعارفه، فيكون هذا الاطمئنان برهانا على أنه تلميذ صالح للتعلم مستحق للمكافأة وحسن الجزاء».

- و«الكسيس كاريل» الطبيب الفرنسى المتخصص في الطب علمًا وجراحة، والمهتم ببحوث الخلية ونقل الدم والأعضاء يقول في كتابه: «الإنسان المجهول»: «.. إن الإنسان ليحتاج إلى الله حاجته إلى الماء والأكسوجين، وهذا الشعور بالقداسة إذا ضم إلى قرائنه من الشعور بالبصيرة، والحاسة الخلقية، وذوق الجمال، وضياء الفهم، هو تمام الازدهار والنضج للشخصية الإنسانية.. فمن واجبنا إذن أن نحب جمال العلم وجمال الدين».

● ومن الفلاسفة في هذا القرن:

- الفيلسوف الأسبانى: «أنا مونو» الذى يقول: «إن اعتقادك في الله هو أن ترغب في وجوده، وتزيد على هذا أن تبنى عملك على أنه موجود».

ويمثل هذا الكلام الدال على ضرورة الدين والإيمان تحدث عدد من الفلاسفة العلماء الذين يمكن أن نسميهم: العلماء الإيمانيين، ومنهم:

- «روبرت بروم» عضو الجمعية الملكية الإنجليزية.

- و«وليم براون» أستاذ علم النفس بجامعة «أكسفورد».

- و«سير أرثر تومسون» أستاذ التاريخ الطبيعي بجامعة «أبردين».

الذى قال - في مجموعة مقالات بعنوان: العلم والدين -: «فإذا لم يكن عمل الطبيعيين في الله - كما زعم «مستر لانجدون دافيز» - خطأً في كتابه البديع عن الإنسان وعالمه، فنحن نقرر عن روية، أن أعظم خدمة قام بها العلم أنه قاد الإنسان إلى فكرة عن الله أنبل وأسمى ولا تجاوز المعرفى الحرفى حين نقول: إن العلم أنشأ للإنسان سماء جديدة وأرضًا جديدة وحفزه من ثَمَّ إلى غاية جهده العقلى، فإذا به في كثير من الأحيان لا يجد السلام إلا حيث يتخطى مدى الفهم، وذلك في اليقين والاطمئنان إلى الله».

– و« د. جوردون البورت » فى كتابه: فلسفة عالم.

● ومن العلماء الإيمانيين فى مدرسة الذَّرة والبحث عن بناء المادة:

– «بلانك» و«هيزانبرج» و«بختون» و« جينس».

● ومن الفلاسفة الذين أعطوا لهذا الموضوع عناية ورعاية:

– «سدنى هوك» الذى تناول دعوى القائلين: إن الفكر نفسه هو آلة العمل، فقال: «إن هذه الدعوى نفسها غير ممكنة مالم يسلِّم أصحابها أن هناك مقررات غير حسية، لأنهم يقررون وجود عالم لم تخلقه قوة عاقلة، كما يقررون وجود فكر فيه يعمل، ووجود تغييرات بحثت بعضها بمشاركة الفكر وبعضها بغير مشاركته، وأن التغييرات التى يشترك فيها الفكر ليست مثالية أو عقلية فى جوهرها».

● ومن هؤلاء الفلاسفة:

– «ويتهد».

– و«مورجان».

– و«سُمطس».

قد أجمع هؤلاء على حقيقتين كبريين فى مجال الإيمان هما:

– الإيمان بوجود القوة الإلهية، مع اختلافهم فى تصور علاقة هذه القوة الإلهية بالكون والإنسان.

– ويكلون إلى الله تدبير الخلق، وإخراج الأطوار والتراكيب من بسائطها الأولية.

● وأما الأدباء فى القرن العشرين فهم مع الإيمان والعقيدة وأبرزهم فى هذا المجال رجلان:

– «چورچ برناردشو».

– و«ويرفل».

أما «چورچ برناردشو» فإنه يؤمن بقوة غير مادية يسميها القوة الحيوية.

ويقول عن هذه القوة الحيوية: «إنها تتطور بإرادتها، و إن المادة عدو لها فى تطورها، وإن ارتقاء هذه القوة فى معارج الفكر إنما يأتى من طريق واحد: وهو طريق الخطأ والتصحيح والتكرار والمثابرة، ولا نهاية للارتقاء الذى تبلغه الحياة من هذا الطريق،

فإنها تسلكه وتتطلع فى كل مرحلة من مراحله إلى القدرة المطلقة والعلم المطلق، وقد نبلغها فى زمنٍ من الأزمان بعد الملايين التى لا تحصى من السنين . . ».

– ومن الأدباء المشهورين بكتابة القصة الأديب النمساوى « فرانز ويرفل » الذى يقول فى كتابه : « بين السماء والأرض » : إن تفسير الكون بالقياس والتعقيب هو أنجح أحابيل الشيطان، لأن حجته التى تقوم عليها جميع المذاهب الوضعية المادية هى أن الشيء يساوى نفسه (س = س) والأمة وليدة الإقليم الجغرافى، والفرد محكوم بظروفه، ومطالب الشعب السياسية تتوقف على حاجاته الاقتصادية . . وقد نجح الشيطان فى ترويغ الأصول الأولى من المسألة كلها وهى أصول الخلق، والكينونة، ووجود الله، وإنما تتحقق الروحانية بالإلحاح كل الإلحاح على المسار من جانبها هذا ».

وقال : « ويل للإنسان شك أو آمن؛ إذا فقد القدرة على جَيَشان الروح، فكل من جمد على يقين قانع فهو فريسة للشيطان أو هو شر من فريسة الشيطان، هو ممزِّق سياسة ».

وقال : « إن الله أعظم جداً من أى يحتوى كلام الإنسان برهانًا على وجوده، وإن صفته العامة – وهى الخير الذى لا نهاية له – لتثبتها بالبرهان الواقع حياةُ مخلوقاته، إذ هى تؤثر أن تكون على أن لا تكون، كيفما كانت محنتها بالخوف والمرض والعذاب والموت ».

وقال : « إن الدين هو الحوار الخالد بين الإنسان والله، والفَنّ هو المناجاة الأحادية ».

وبعد فهذه صورة مجملة عن القرن العشرين فى الغرب فمن أشهر أعلامه فى النهضة الفنية؟

● سوف نقصر حديثنا على خمسة منهم كان لمعظمهم اهتمام مباشر بالجمال والفن، وهم :

– « بندتو كروتشه ».

– و« إينشتين ».

– و « ريمون باير ».

– و« إيتان سوريو ».

– و« جان بول سارتر ».

١- «بندتو كروتشه» (١٨٨٦- ١٩٥٢م)

وهو فيلسوف إيطالي عنى بعلم الجمال، واعتبره مدخلا للفلسفة المثالية فى الروح، وقد أولى الروح اهتمامًا كبيراً.

- يرى «كروتشه» أن للروح نوعين من النشاط:

أحدهما: نشاط نظرى له مظهران، مظهر جمالى، وآخر نظرى، فالجمالى يظهر فى المعرفة الحَدْسِيَّة، وأداتها المخيلة، وغايته الجمال.

والنظرى يظهر فى المعرفة المنطقية وأداتها العقل وغايته الحق.

والآخر: نشاط علمى للروح يظهر فى الاقتصاد وغايته المنفعة العملية ويستند إلى الرغبة، ويظهر فى الأخلاق التى تسعى إلى الخير، ويستند إلى الإرادة.

- ويرى «كروتشه» أن علم الجمال ينصرف فى غايته إلى وسائل التعبير بوصفه عِلْمًا لغويا، وينصرف أيضاً إلى فلسفة اللغة المرادفة لفلسفة الفن، فهو من هذا الجانب علم فلسفى.

- والموضوع الرئيس عند «كروتشه» الذى يمثل علم الجمال ويعتبر محوراً له هو الحدس، إذ الحدس عنده نشاط وفاعلية تجرى فى العقل الإنسانى، وتنتج الصور الخيالية، ثم تتحول الصور إلى تعبير غنائى هو قوام جميع الفنون.

- و«لكروتشه» مذهب فى الفنّ يقوم على عدد من الاعتبارات أهمها:

- أنه يرفض المذهب الذى يوحد بين الفن والواقعية المادية.
- ويرفض المذهب الذى يوحد بين الفن والمنفعة العملية أو اللذة.
- ويرفض المذهب الذى يوحد بين الفن -أو العمل الفنى- وبين الفعل أو السلوك الأخلاقى.
- ويرفض المذهب الذى يوحد بين الفن والمعرفة التصويرية.

ويفند «كروتشه» هذه المذاهب التى رفضها، ويوضح فسادها وخطأها، ويراها مناقضة لمذهبه فى الفن، ذلك المذهب الذى يقوم على الفصل بين الفن والواقعية المادية والمنفعة أو اللذة أو السلوك الأخلاقى أو المعرفة التصويرية.

- ويصرح «كروتشه» بانه ليس من وظيفة الفن أن يوجه الناس إلى الخير أو يبغضهم فى

الشر، أو يجلب لهم اللذة واللعب، أو ينشر فيهم المثل العليا.

وإنما مجال الفن عنده مجال خاص منفصل عن مجال الأخلاق واللذة واللعب.

– كما أن «لكروتشه» تفسيراً للجمال وتفسيراً للقبح، خلاصته:

● أن الجمال هو التعبير المُوَفَّق.

● وأن القبح هو التعبير المخفق.

٢- «ألبرت إينشتين» (١٨٧٩- ١٩٥٥م)

عالم أمريكى برع فى الفيزياء النظرية، ولد بألمانيا ودرس بسويسرا، وتجنس بالجنسية السويسرية ثم الألمانية وأخيراً تجنس بالجنسية الأمريكية عام ١٩٤٠م.

– نال جائزة نوبل فى الفيزياء عام ١٩٢١م.

– واشتهر بنظرية النسبية.. والعلاقة بين الكتلة والطاقة والعلاقة بين التجاذب وعزم القصور.

– والنظرية النسبية العامة، وهى تحدد العلاقة بين الجاذبية وبين انحناء الفراغ ذى البعد الزمنى الرابع.

– وأكد ضرورة فحص موضوع استخدام الطاقة الذرية فى القنابل الذرية.

● وكان «إينشتين» غير مهتم بالعلم اهتمام كروتشه ولا اهتمام الثلاثة الذين سنتحدث عنهم بعده.

لكننا ذكرناه بينهم لأنه كان يؤمن بعالم غير عالم الشهادة، ويقول: «إن الإنسان الذى لم يختبر وقفة من وقفات الصوفية حيال ذلك العالم، ولم يشعر نحوه بالروعة هو حَيٌّ حكمه حكم الميت.

ولب الديانه عند «إينشتين» أن يعلم الإنسان أن الذى لا نستطيع أن ننفذ إليه بمداركنا هو موجود حقًا، متجلٌ حقًا، يطالعنا بالحكمة العليا، والجمال الرائع، ولا تحيط عقولنا الكليلة منه إلا بأشكال بدائية كالظلال.

فرأيه أن الله هو الذى يطالعنا بالحكمة العليا، وبالجمال الرائع، أى أنه مصدر الحكمة والجمال.

٣- «ريمون باير» (١٨٥٩- ١٩٥٩م)

ينادى «باير» بالمنهج الواقعى الإجرائى، على أنه أفضل منهج لدراسة العمل الفنى، والجمالى.

- وينتقد «باير» كل المناهج المغايرة لمنهجه، السابقة له، مثل:

- المنهج الميتافيزيقى.
- والمنهج النفسى.
- والمنهج الفيزيقى.
- والمنهج النفسى التحليلى.
- والمنهج الاجتماعى.
- والمنهج الذهنى.

وكل هذه المناهج كانت سائدة قبل «باير» ولها دعاتها، والمنادون بها، فى مجالى الفن والجمال.

- ويرى «باير» أن الإنتاج الفنى له شكل حسى متحقق يمكن أن يلحظ فى العمل الفنى.

ولا يرى ضرورة فى الفن للعودة إلى مفاهيم فلسفية، مثل:

الحدس، والتصور، والوجدان، بل يرى الاعتماد على المنهج الاستدلالى والتجريبى، دون تلك المفاهيم الفلسفية.

- ويرى «باير» ضرورة مواجهة العمل الفنى، حتى تخرج أحكام هى فى النهاية تحسب على المتذوق لا على العمل نفسه.

وبهذه الآراء والتوجهات يمكن اعتبار «ريمون باير» ممثلا للفكر الجمالى المعاصر، فى النصف الأول من القرن العشرين الذى نتحدث عن أشهر أعلامه فى الفن.

٤- «إيتان سوريو» (١٨٩٢- ١٩٧٩م)

يرى «إيتان» أن علم الجمال هو جهد يستهدف الوقوف على المقولات الأساسية والصور والأشكال الثابتة التى تنتظم بها الخبرات الجمالية، بل يؤكد ذلك تأكيداً.

- ومذهبه هذا يتجاوز كل دراسة ممكنة لشخصية الفنان وإبداعه؛ إذ هو صاحب اتجاه نظرى ميتافيزيقى، يستند إلى أفكار تأملية مسبقة، وهى أفكار متعالية على التجربة الحسية، أى يجعل للجمال مصدراً يعلو على الواقع الحسى ويتجاوزه.

- وإن «إيتان سوريو» بوصفه أستاذا لعلم الجمال «بالسربون» دفع بالدراسات الجمالية دفعة قوية نحو الفلسفة فقوّى بذلك الصلة بين الفن والفلسفة.

- وتوقّع «إيتان» تحولَ علم الجمال فى المستقبل إلى نظرية فلسفية فى المعرفة، ورأى أن الفيلسوف ينظر إلى إنتاجه نظرة الشاعر إلى قصيدته ونظرة الرسّام إلى لوحته المبدعة[1].

- والفن عند «إيتان» إبداع أشياء تستلزم نظرة موضوعية بما يعنى أن الشكل والصورة وحدة لا تتجزأ فى أى عمل فني، لأنه يرى التأكيد على أسس المعرفة الجمالية العقلية الطابع.

٥- «جان بول سارتر» (١٩٠٥- ١٩٨٠م)

فيلسوف أديب فرنسى، اقترنت باسمه الفلسفة الوجودية. له كثير من الروايات والمسرحيات، تُرجم بعضها إلى العربية، ومنح جائزة «نوبل» فى الأدب سنة ١٩٦٤م ولكنه رفضها.

والفلسفة الوجودية لها موقف من الفن.

ولسارتر موقف من الفن والجمال.

- والوجودية -فى إيجاز- اتجاه فلسفى حديث، يعد من مواليد القرن العشرين.

وقد كانت الوجودية نتيجة للحيرة والقلق والاضطراب والأزمة الاقتصادية التى حدثت فى ثلاثينيات القرن العشرين أى بين الحربين العالميتين، فاستطاعت الوجودية، أن تعبر عن كل ذلك.

- وقد رفضت الوجودية كل مذهب أو مدرسة فلسفية سبقتها وإن كانت قد تأثرت -حتى وإن لم يعترف بذلك مفكروها- بكل المذاهب والمدارس التى سبقتها.

- وتقوم الوجودية على كثير من الأسس التى من أهمها:

- أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذى يسبق وجوده ماهيته.
- وأن هذا الوجود الإنسانى هو الواقع اليقينى للفلسفة كما يراها الوجوديون.

---

(١) لـ«إتيان» فى ذلك كتابان أحدهما: «الصلة بين الفنون الجميلة» والآخر: «مستقبل علم الجمال»

● وأن الإنسان هو المحور الذى تدور حوله الفلسفة الوجودية فى:

● وجوده الذاتى والاجتماعى.

● وعلاقة الإنسان بالعالم، والتاريخ والمجتمع.

● وعلاقة الإنسان بالمعرفة.

– وتتجاهل الوجودية –دون غيرها من الفلسفات– البحث فى كبريات القضايا مثل: الله، والعالم، والمعرفة، إلا من خلال علاقة هذه القضايا بالإنسان.

– وقد وجهت إلى الوجودية سهام النقد ومحاولات النقض من كل صوب وحدب.

ومن نقدوها أو نقضوها إنما قاموا بذلك بموضوعية بصفة عامة، لكن بعضهم نقدها أو نقضها ضيقًا بإلحادية «هيدجر» و«سارتر» أو ضيقا بماركسية «هنرى لوفيفر»، وبعضهم قام بذلك النقد أو النقض ضيقًا بكثرة ما وقع بين أنصارها من خلاف.

– وموقف الوجودية من الفن ملخصه:

أن الإنسان لا يمكنه الوجود بغير رؤية فلسفية، وهذه الرؤية إن لم يجدها فى الفلسفة وجدها فى:

الرواية، وأجناس الأدب.

أو الدين.

أو الفن.

ولذلك اتجه الوجوديون إلى الفن لأنه يصف مظهرا من مظاهر الوجود الإنسانى.

– وموقف «سارتر» من الفن والجمال؛ ملخصه:

● أن الحرية هى قوام الوجود الإنسانى، وليست مجرد صفة له.

● وأن مفهوم الحرية يشمل: الشعور والعاطفة والفكر الواعى.

● وأن الخيال هو علاقة الوعى بشىء أو موضوع خارج الوعى.

● وأن الخيال هو الوعى الخلاق الإيجابى الذى يختلف عن الإدراك الذى يتلقى الموضوعات من غير أن ينشئها.

- وأن العمل الفنى شىء، لا واقعى، ولا خيالى.
- وأن الجمال هو قيمة لا تنطبق إلا على الخيال.
- وأن الجميل ليس موضوعا للإدراك لأنه فى طبيعته مفارق للعالم.
- وأن اللذة الجمالية ليست ناشئة عن: كون واقعى، وإنما هى طريقة لفهم الموضوع غير الواقعى بالتجائها إلى الخيال من خلال النسيج الواقعى.
- وأن الواقعى ليس جميلا بالضرورة.

– ومجمل ما يرى «سارتر» فى الجمال –الذى نحن بصدد الحديث عنه– وفلسفته الجمالية، أنه يرجع الخبرة الجمالية إلى النشاط الخيالى عند الإنسان.

■■■■

رابعا: الجمال والجمالية فى العالم العربى فى القرن العشرين

العالم العربى فى القرن العشرين كان يعيش ظروفا سياسية بالغة السوء، إذ كان قد تقاسمته القوى الاستيطانية الاستعمارية العنصرية -بعد إسقاط دولة الخلافة العثمانية- فاخذت تتحكم فيه هذه القوى الظالمة الغاشمة المستغلة لخيراته ولأبنائه تربيهم على عينها وتحول ولاء كثير منهم عن دينه وعروبته إلى الولاء لهم لثقافتهم وعاداتهم وأخلاقهم، ولغاتهم.

- وظل هذا التحكم فى العالم العربى قسمة بين إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا(١)، تتحكم هذه الدول المستوطنة العنصرية المتعالية فى سياسة العالم العربى وفى اقتصاده، وفى جيوشه، بل تفرض عليه أن يخوض حروبا لصالحها!!!

- وأفرز هذا التحكم فى العالم تسليم فلسطين لليهود بوعد من وزير خارجية بريطانيا سنة ١٩١٧م وبدعم من بريطانيا التى كانت فلسطين فى قبضتها، فمكنت اليهود من الهجرة إلى فلسطين وساعدتهم بالمال والسلاح والعتاد ومكنتهم من فلسطين، وفى الوقت نفسه حظرت بريطانيا على الفلسطينيين حمل السلاح، وطردت كثيراً منهم وهجرتهم، وأقامت دولة إسرائيل فى قلب العالم العربى دولة مُؤَيدة بكل قوى الغرب المادية والعسكرية والمعنوية، وسارعت دول العالم بالاعتراف بها، وأعطتها شرعية فى بلاد ليست لها.

- وتضخمت إسرائيل عَدَدًا وعُدة، ومارست فى الفلسطينيين كل جرائم الحرب بوحشية وجبروت معروف عن اليهود إذا أتيحت لهم الفرصة، وبمباركة من قوى الغرب كله، بل من الاتحاد السوفيتى أى من العالم المعادى للإسلام.

وأخذت إسرائيل تكرر العدوان على العالم العربى، العدوان العسكرى والاقتصادى والإعلامى والثقافى، مستعينة على ذلك بالغرب وبالولايات المتحدة الأمريكية التى نصبت نفسها شريكا جائراً يتخذ شكل الوسيط الذى يعمل دائمًا لصالح إسرائيل وضد العرب والمسلمين فى قصة عرفها القاصى والدانى وقرأها واستوعبها العالم كله.

---

(١) ثم دخلت أمريكا لتكون أشرس مستوطن مغرور بقوته ونفوذه وقدرته على انتهاك الشرعية الدولية، كما شنت الحرب على العراق فى مارس ٢٠٠٣م.

عاش العالم العربى فى ظل هذه الظروف يحال بينه وبين الاتحاد أو الوحدة، ويحرّم عليه أن يحقق اكتفاءً ذاتيًا فى كل احتياجاته ويحظر عليه صناعة السلاح، بل يحظر عليه أن تكون له جيوش قوية ويفرض عليه الدوران فى فلك الغرب سياسيا واقتصاديا ثم يفرض على بعض دوله الدوران فى فلك الاتحاد السوفيتى وما فيه من نظم اشتراكية أثبتت فشلها على يد أبنائها فانفرط عقدها وتناثرت دولها وأصبحت خبراً بعد عَين.

- وأسلم الغرب والشرق زمام تفرقة العالم العربى وتمزيقه لإسرائيل، ومكنوها من منع العالم العربى من الوحدة، ومن توجيه الضربات العسكرية إليه فى كل حين.

- فتأثر العالم العربى بالغرب فى أغلب ما يحيط به من قضايا، بل تبنى أفكار الغرب واقتات من ثقافته وعاداته، ونهج نهجه فى القيم والأخلاق والنظر إلى الناس والأشياء، فكان تقليد المغلوب للغالب والضعيف للقوى الذى يغتصب بلاده ويشوه أفكار مواطنيه ومعتقداتهم بحجج أوهى من خيوط العنكبوت يطلق عليها: الوصاية، والحماية، والانتداب، ثم جاءت الطامة فى احتلال أمريكا وبريطانيا للعراق بحجة منحه الديمقراطية فبدأتا بتدميره واحتلال أرضه ونهب متاحفه!! والبقية معروفة.

- وحينما أحست قوى الاستيطان والعنصرية أن حركات التنوير والاستفاقة واليقظة العربية الإسلامية قد أخذت تنمو وأيقنت تلك القوى المحتلة أنها راحلة لا محالة عن أوطان تغلى بالغضب بعد ما استوعبت وفهمت ما يدبر لها، قامت بعملين يضمنان لها استمرار النفوذ وإن خرجت قواتها من البلاد.

هذان العملان هما:

الأول: اصطناع أولياء لها ولثقافتها -تحقق من خلالهم مصالحها- وتوسيد هؤلاء الأولياء مقاليد الأمور حكامًا ومسئولين فى كثير من مجالات إصدار القرار، ومع اصطناع هؤلاء الأولياء للغرب يكون الإقصاء لكل من ينادى بوحدة عربية أو إسلامية إقصاء قد يصل إلى السجن والقتل، مع إصرارهم على حظر العمل السياسى الإسلامى، وحظر تكوين الأحزاب إذا كان لها توجه إسلامى، وقصة ذلك معروفة لعامة المثقفين بل عامة الناس.

والعمل الآخر: هو إنشاء دولة إسرائيل شوكة فى قلب العالم العربى يظل ينزف منها حتى يُشْفى على الهلاك أو ينزعها من قلبه فلسطين.

- ومحاولات المسلمين والعرب لنزع هذه الشوكة عمل فكرى ثقافى حضارى لا بد أن يستمر على الرغم من كل أنواع العقبات التى يبثها الأعداء فى الطريق..

هذا أو النزف حتى الموت!!!

● وعلى الرغم من الإيمان لدى كل عربى وكل مسلم بوجوب استمرار هذه المحاولات، فإن العالم العربى -وهو يحاول حينا أو يفتر حينا عن المحاولة- قد تأثر بالغرب فكراً وثقافة وفناً، فأخذ مفكروه ومثقفوه وفنانوه يرددون بوعى حينا وبغير وعى حينا آخر كل ما يفد إليهم من الغرب فى مختلف نواحى الحياة، وبخاصة فى مجالات الفكر والثقافة والأدب والفن، حتى أصبح ما يفد من الغرب أنموذجا يحاكونه أو يسارع بعضهم فى الادعاء بأن فى ثقافتنا وحضارتنا مثله!!

- وقد أدّى ذلك بالمفكرين والمثقفين والأدباء والفنانين إلى أن يغضوا النظر عما فى العالم العربى والإسلامى من معالم ثقافية أدبية أو فنية يجب أن يعتنى بها وتزكى وتنمى، اكتفاءً بما وفد إلينا من الغرب دون انتقاء منه[1].

● والفن والجمال فى العالم العربى من حيث ممارسة الفن ونقده وتذوقه، ومن حيث الإحساس بالجمال والتعبير عنه بالفنون الجميلة، لم يكونا بعيدين عن التأثر بما كان فى الغرب من فنون وما كان لدى الغربيين من إحساس بالجمال.

- وليس من المبالغة فى شىء القول بأن كل ما قيل عن الفن والجمال فى العالم العربى فى القرن العشرين كان نابعاً من تبنّى وجهة نظر الثقافة الغربية أولا وثانيا، ثم يأتى بعد ذلك -وعند عدد قليل من النقاد للفن والجمال من يتأثرون بالثقافة الإسلامية- إن معظم النقاد فى مجال الفن والجمال كانوا بمعزل عن معطيات الثقافة الإسلامية فى مجال الفن والجمال، وكان الانعزال أو العزوف عن الثقافة الإسلامية لأسباب عديدة عندهم لا مجال هنا للحديث عنها بأكثر من إشارة دالّة توحى بتقليد المغلوب للغالب، والتابع لمن يقوده فى السياسة والاقتصاد والثقافة والفكر، والمنبهر بالغرب المتقدم علميا وتقنيا وهو يتصور أن تقليده سوف يلحقه به فى العلم والتقنية!!!

---

(١) ليس معنى كلامنا هذا أن نرفض كل ما وفد إلينا من الغرب، فتلك نظرة ضيقة ساخطة نأباها، ولكن يؤخذ مما وفد إلينا من الغرب ما لا يتعارض مع ديننا وقيمنا، وآدابنا وفنوننا، لأن تأثر الحضارات بعضها ببعض لا يعاب، والانتفاع بما فيها من خير أو نفع مسلّم به، وليس بالضرورة أن يكون هناك صراع بين الحضارات كما يهرف بذلك الذين لا يعرفون.

● وكما اخترنا عددا من مفكرى الغرب فى القرن العشرين لنتعرف آراءهم فى الفن والجمال، فكذلك نفعل مع بعض مفكرى العرب فى القرن العشرين لنتعرف آراءهم فى الفن والجمال.

وقد اخترنا منهم الراحلين:

- عباس محمود العقاد.

- توفيق الحكيم.

- وزكى نجيب محمود.

فكل منهم له وجهة نظر فى الفن والجمال سجلها بنفسه فى بعض كتبه، والله المستعان.

١- عباس محمود العقاد (١٨٨٩- ١٩٦٤م)

كاتب وأديب مصرى من كبار الكتاب فى عصره، له من العلم والمعرفة والموهبة والقدرة ما مكنه من الوصول إلى المكانة الأدبية والعلمية التى اعترف بها كل من عرفه أو قرأ له.

● وللعقاد رأى أو فلسفة يرى من خلالها الجمال والفن، هذا الرأى جدير بأن نسجله فى حديثنا عن الجمال والجمالية عند العرب فى القرن العشرين.

أولا: ينقل العقاد عن «شوبنهور» رأيه فى الجمال والفن ويناقشه ثم يذكر العقاد رأيه فى الجمال والفن.

- فيقول عن «شوبنهور»: «وأقوم ما فى رأى «شوبنهور» فى معنى الجمال الفنى، هو قوله: إن مهمة الفن هى فصل الشكل -القالب- عن المادة، لا أن يحكى لنا الشكل والمادة معًا حكاية صحيحة محكمة؛ لأن الفن موكل بالصور الباقية والنماذج الخالدة لا بالكائنات التى توجد فى الحياة مرة واحدة ثم تمضى لطيتها غير مكرّرة ولا مردودة.

ويقول «شوبنهور»: إن إبراز الشكل وحده بغير مادته جوهرى فى كل عمل فنى، ولهذا لم يكن لتماثيل الشمع أثر فى النفس من الوجهة الجمالية، ولم تحسب من هذه الوجهة بين أعمال الفنون»

ثم يواصل العقاد فى نقل رأى «شوبنهور» فى الجمال فيقول: «أما رأى «شوبنهور» فى وصف الجمال فمبنى على رأيه فى كنه الحياة وما وراء الطبيعة؛ فهو يقسم الدنيا إلى فكرة وإرادة ويقول: إن الدنيا فى «الفكرة» هى الدنيا المكنونة قبل أن تظهر فى حيز الأسباب

والقوانين وعلاقات الأشياء بعضها ببعض وإن الدنيا فى «الإرادة» هى هذه الدنيا التى نكابد أوصابها وقوانينها، ولا نذوق السرور فيها إلا لسبب من الأسباب التى تدور عليها أغراضنا وشهواتنا.

ولما كان سرورنا بالجمال سروراً بلا سبب ولا منفعة فهو من قبيل الفكرة المجردة التى تحسها النفس المجردة وتنظر إليها كما هى فى عالمها المنزه عن الأسباب والعلاقات.

– ويرى العقاد أن الجمال حرية لا فكرة، ويعلل ذلك بقوله: «وما الذى يرجح القول بأن الجمال حرية على القول بأن الجمال فكرة بعيدة عن عالم الإرادة؟

يرجحه أن الجمال يتفاوت فى نفوسنا ويتفاضل فى مقاييس أفكارنا، ولو كان المعوّل على إدراك الفكرة وحدها فى تقدير الجمال لوجب أن تكون الأشياء كلها جميلة على حد سواء.

ثم يواصل قائلا: ونوضح ذلك فنقول: لو كانت الشجرة جميلة لأنها فكرة فقط لما كان هنالك داع لتفضيل فكرة الإنسان على فكرة الشجرة، ولا صح لنا أن نزعم أن الناس أجمل من الأشجار، ولكننا نعلم أن فكرة الإنسان غير فكرة الشجرة، وأن الفكرتين تتفاضلان فى تقدير الجمال، ولا بد أن يكون تفاضلها بمزية أخرى، فما هى تلك المزية الأخرى؟

هى «الحرية» فالإنسان أوفر من الشجرة نصيبا من الحرية ولذلك فهو أجمل منها وأرفع فى درجات الكمال.

وكذلك تتفاوت «الفكرات» فلا يغنينا القول بأن الجمال فكرة عن القول بأن الحرية هى المعنى الجميل فى الفكرة أو هى التى تهب الفكرة ما فيها من جمال.

ثانيا: يذكر العقاد رأى بعض علماء الطب الباحثين فى الجنس والمسائل الجنسية فينقل عن «ماكس نوردو» قوله: «كل أثر ينبه فى الدماغ –بأى شكل من الأشكال– مركز التناسل، سواء أكان هذا التنبيه مباشراً أم آتيا من تداعى الفكر وتساوق الخواطر فهو الأثر الجميل».

وصورة الجمال الأول فى نظر الرجل هى المرأة فى سن النضج الجنسى والاستعداد لتجديد النسل..

وهذا الرأى الذى أجمله «ماكس نوردو» هو رأى الكافة من العلماء الأطباء الباحثين فى المسائل الجنسية، وهو المعَوّل عليه عند جمهورهم فى تفسير ذوق الجمال والشغف بالفنون؛

فلا تفسير عندهم للفن والجمال إلا أنه ميل مشتق من ميول الغريزة الجنسية ولا مكان للجمال فى العالم –على هذا القول– إلا أن ننظر إلى الحياة بعين الرجل الذى يشتهى الأنثى أو بعين الأنثى التى تشتهى الرجل..»

ثم يعلق العقاد على هذا القول بقوله: «إن الغريزة الجنسية لا ريب من أقوى غرائز النفس وأعمقها وأكثرها تفرعا وتوزعا فى جوانب الإحساس ودخائل التفكير، وإنها ولا جدال على اتصال وثيق بشعور الجمال ومطالب الفنون لا تراها منعزلة عنها فيما ينظمه الشعراء ويمثله المصورون ويغنيه المنشدون، ولكن ليس معنى ذلك أنها هى أصل كل شعور بالجمال..»

ثم يواصل العقاد قائلا فى الرد على ذلك: «وفى مشاهدات الحياة كثير مما يدحض ذلك الرأى ويلفت القائلين إلى مواطن الزلل فيه، فالغريزة الجنسية مودعة فى جميع الأحياء، والنبَّات ولكن جمال الأشكال والألوان لا يُقْسم لها جميعا، ولا يكون حظها من الجمال على قدر حظها من الغريزة الجنسية..

وقد عرفنا بالخبرة أن أحب الناس للجمال هم أرفعهم نفوسا وأسلمهم أذواقًا، وأحسنهم تهذيبا وأشوقهم إلى المتع المعنوية والخصال الكريمة.

وعرفنا بالخبرة –كذلك– أن الغريزة الجنسية قد تتم وتقوى فى أناس لا حظ لهم من رفعة النفس وسلامة الذوق وحسن التهذيب ومتعة الروح وكرم الخصال..

فغريزة التناسل قد توجد بمعزل عن حب الجمال.

وحب الجمال قد يوجد بمعزل عن غريزة التناسل...

ثم يواصل قائلا: «ولسنا نخطئ حقائق العلم المقررة إذا قلنا: إن «الجمال» هو غاية الحياة، وإن الغريزة النوعية – الجنسية هى إحدى وسائله، أو هى أقوى وسائله إلى تلك الغاية؛ إن هذا لأصدق من القول بأن الفنون الجميلة نزعة جنسية محولة عن غايتها، كما يزعم الباحثون فى المسائل الجنسية من جماعة الأطباء والنفسيين.

● ويربط العقاد بين الجمال والحرية ربطا وثيقا فيقول: إن الجمال يحمل دلالة على التوق إلى الحرية والتجديد، وبالتالى، فإنه التعبير الذى يتولاه الممتازون الذين يتجاوزون مستوى الحاجة والضرورة إلى مستوى الخَلقْ والإبداع».

ثم يقول: «فلا حرية إذن للإنسان أرقى وأكمل من حرية التمييز بين محاسن الأشياء، ولا حرية لأمة ليس لها نصيب من الفن الجميل. على أن للفنون الجميلة أيضًا مقياسًا من الحرية لا يضل فيه القياس فلك أن تقول: إنها كلما ازداد نصيبها من الحرية سمت طبقتها في الجمال والنفاسة، وإنها كلما قل نصيبها ابتعدت عن طبيعة الفن الجميل، واقتربت من الصناعات النفعية والشواغل الضرورية، فلهذا كان التقليد في الفن قبيحا مزريا، لأنه من العبودية لا من الحرية..»

ثم يواصل العقاد حديثه عن وجوب حب الفنون الجميلة، قائلا: «... وإنما تعرف الأمم الحرية حين تأخذ في التفضيل بين شيء جميل وشيء أجمل منه، وتتوق إلى التمييز بين مطلب محبوب ومطلب أحب وأوقع في القلب وأدنى إلى إرضاء الذوق وإعجاب الحس، ولا يكون ذلك منها إلا حين تحب الجمال منظوراً أو مسموعًا وجائلاً في النفس، وممثلاً في ظواهر الأشياء وذلك الذى عنيناه بحب الفنون الجميلة».

ثم يواصل قائلا: «.. وليس بالباحث حاجة إلى طويل بحث أو عظيم عناء في تعريف نصيب الأمم من الحرية والعزة، إنما حسبه أن يسأل عن متحف من متاحف الفن فيها، فإن لم يجده فقد عرف الحقيقة من أوجز طريق.

وإن وجده ففي تلك الدار التي يجده فيها أنا الضمين له أن يلمس من مخايل الأمة، والدلائل على شعورها وخطرات نفوس أبنائها في لحظة ما يغنيه عن دروس تاريخها، وسبر حاضرها وإعنات الذهن في التكهن بمستقبلها»[1].

ويقول العقاد في مقال له بعنوان: «معنى الجمال في الحياة والفن»[2].

«وصفوة ما تقدم؛ أن الحرية المنظومة، أو الحرية التي تظهر بين قيود الضرورات هي سرّ الجمال في الفنون، كما أنها سرّ الجمال في الحياة.

وإن أمنية الإنسان القصوى التي يتطلع إليها من الحياة والفنون هي الحرية، لا القوة ولا الغنى، ولا السعادة نفسها؛ إذ هو يطلب القوة والغنى ليكون حُرًا، وهو ينال السعادة بفضل الحرية، ولا ينال الحرية بفضل السعادة».

---

(١) عباس محمود العقاد: مطالعات في الكتب والحياة: مقال: الحرية والفنون الجميلة.

(٢) عباس محمود العقاد: مراجعات في الآداب والفنون.

● ومع تقديرنا لعلم العقاد رحمه الله وثقافته وفكره، فإن رأيه فى الجمال والحرية لم يختلف عن رأى مفكرى الغرب مثل: «شوبنهور، ونيتشه، ثم سارتر» وغيرهم، وهم يصدرون فى آرائهم تلك عن ثقافة غربية تخصهم، وتدل عليهم وعلى آرائهم..

وكان الأمل أن يكون رأى العقاد فى الجمال والفن معبراً عن ثقافته العربية أو الإسلامية، لكنه لم يفعل، وهو المفكر الكبير!!

٢- توفيق الحكيم (١٨٩٨- ١٩٨٧م)

عايش توفيق الحكيم ما جرى فى مصر فى الحقبة التى عاصرها معايشة مفكر اديب ساءه ما وقع فى مصر من أحداث أهمها احتلال البلاد والتحكم فى خيراتها ومقدراتها، والهيمنة عليها سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وفكريا وثقافيا من خلال استيطان إنجليزى بغيض، كان له من البشائع والشنائع والتحكم فى مصر ما جعلها تغلى تحته كالبركان، وتوجه النقد والاستنكار على مدى ما يقرب من ثلاثة أرباع قرن من الزمان حفلت بكبار الكتاب والمفكرين والمصلحين والمجاهدين.

وشارك الحكيم فى الدعوة إلى الاستقلال والتحرر من أطواق الاستيطان بما كتب من مسرحيات ومقالات، ومؤلفات داعيا إلى حكم نيابى مستقل داخليًا وخارجيًا.

وشهد الحكيم الصراع بين أنصار التراث العربى الإسلامى وأنصار الثقافة الغربية، فأخذ لنفسه موقفا يخصه وهو : أن يجرى تعديلاً فى التراث وفى الغرب معا[١].

– أما فى الفن فللحكيم آراء نجملها فى الآتى:

أنه يرى الفن تعبيراً عن مثال الجمال، فيقول:

«... فالإنسان الأعلى هو الذى يصون الجمال الفنى عن الاشتغال الأرضى فى أى صورة، ويحتفظ فيها بمتعته الذهنية وثقافته الروحية» ويقول:

«وكلمة الفن هى العليا دائما، وحكمه هو الناقد وحده، وها هو ذا قد حكم لامرئ القيس الجاهلى، فرفعه وقدمه على داعية الإسلام حسان – بن ثابت رضى الله عنه – وفى

---

(١) وقد فعل ذلك أحمد أمين، أما العقاد فقد رأى إمكان الجمع بينهما، وآثر محمد عبده التراث مع الأخذ ببعض ما عند الغرب، وبعضهم رفض ثقافة الغرب رفضاً.

هذا الدليل على ان الفن الخالص لوجه الجمال الفنى هو الأرقى والأبقى . . . » ويقول :

« كل فضل الإنسان على غيره من المخلوقات أنه ارتفع إلى العناية بأشياء معنوية لا تتصل مباشرة بطعامه وشرابه ومقومات حياته المادية، وهذه سماها فيما سماه : الفن والأدب، وحرص على أن تبقى على قدر المستطاع – بعيدة عن تفاهاته الأرضية – لتذكره من حين إلى حين أنه ليس حيوانا . . وهنا عظمة الفن والأدب . . »

* وأنه يربط بين الدين والعلم والفن . . فيقول :

« إنى كلما تأملت شخصية محمد – ﷺ – مجردة، ثبت إيماني بأن الخصومة المعروفة بين العلم والدين ليس لها في الحقيقة وجود، وأن الدين الحق لا يتعارض والعلم الحق . . بل إن الدين والعلم شيء واحد كلاهما يطلب نور الله ويريد وجهه، وكلاهما يعى ويؤمن ويلهج بتناسق الوجود ووحدة قوانينه، ودلالة وحدة الوجود على وحدة الخالق، ولم يظهر نبى حق، ولا عالمٌ حق شعر بغير ذلك .

ومن قال : إن وسائل العلم ينبغى أن تماثل وسائل الفن أو وسائل الدين؟

إن الطرائق والسبل يجب أن تظل مُختلفة مميزة لا يختلط بعضها ببعض، إنما المصدر واحد دائما، والغاية واحدة، فما الدين والعلم والفن إلا خيوط ثلاثة كتب على بشريتنا القاصرة العمياء أن تتمسك بها، لتهدى إلى ذلك النور الذى لا بداية له ولا نهاية، إلا الله . . » .

● ويقارن الحكيم بين الغاية والوسيلة فى الفن فيقول :

« إن الغاية أحيانا رخيصة بجانب الوسيلة على الأقل فى نظر الفن، لأن الغاية فى الفن لا تبرر الوسيلة . . الحياة كذلك، تلك القطعة الفنية التى أبدعها الخالق، أهى شيء غير وسيلة متينة التكوين؟ . . ليس لنا أن نسأل عن غاية الحياة ولا عن غاية الفن ولا عن غاية العلم . . إن الغاية لا تهم، إنما المعنى كله فى الوسيلة . . الحياة هى الطريق، والعلم هو الطريقة، والفن هو الأسلوب . . الأسلوب هو كل شيء عند كل خالق، وفى كل خلْق، إن الخالق أعظم من أن يحبس إرادته الخالدة فى حدود غاية . .

إن رجل الفن – وهو المقلد الأصغر للمبدع الأكبر – يدرك أن الفن لا يعيش بالغاية، لأن الغاية فانية كاسمها، وإنما يعيش الفن بالأسلوب . .

الأسلوب إذن هو محور النقد كما هو عماد الخلق، وكلمة الأسلوب رحبة عميقة كالبحر في جوفها كل كنوز المعرفة التي يصبو إليها البشر، ولعل كل ما أوتيه الإنسان - من سليقة سامية منذ أول الأزمان - ليس إلا انعكاس أسلوب الخالق فى نفس الإنسان .. هذا المنطق الذى نشأنا عليه ونرجع إليه فى كل حياتنا، هذا الإحساس بالنتيجة والسبب، هذا الشعور بالتناسق والتناسب، هذا الإدراك للصلة التى تربط الشيء بالشيء، من أين جاءنا هذا نحن البشر؟

أهناك مصدر آخر غير أسلوب الخالق، فتحت البشرية عينيها فألفته حولها؟ فهو موجود قبلها وقبل الخليقة كما يوجد الاسم والتصميم قبل البناء؟

إن أسلوب المبدع فى صنع الخليقة هو وحده المنبع الأزلى لهذه الصفات كلها.

المنطق ارتباط السبب بالنتيجة، والشيء بالشيء، والجزء بالكل والتناسق والتناسب، صفات هى بعينها صفات الأسلوب السليم لكل عمل فنى عظيم، أسلوب الله هو المعلم الأول والأخير..

جملة القول عندى أن أسلوب الله فى صنع الكون هو وحده منبع الفن، وهو وحده مصدر ذلك الإدراك الإنسانى للجمال، منذ مبدأ الجمال..

لا شيء يستطيع أن يقنعنى بأن إحساس الجمال وليد تطور ونشوء؛ بى رغبة أن أصبح بغير دليل فى يدى بأن إدراك الجمال ولد كاملا في قلب الإنسان، منذ رفع بصره وبصيرته إلى أسلوب الله فوعاه»[1].

● وكتب تحت عنوان: «الفن والإصلاح» فقال:

«... لا ينبغى أن نملي على الفن اتجاها بعينه، ولا يجوز لنا أن نوصيه بارتداء لباس الحكمة الرزينة، أو رداء الإصلاح الوقور إلا أن يشاء هو ويرضى؛ لأننا إذا أرغمناه سخِر منَّا وجعل من أردية رزانتنا ووقارنا أزياء مساخر، وقلب بسحره أثواب الهزل خلودا تنحنى أمامه الجباه على الرغم منا.. لقد أصاب «أندريه جيد» إذ قال: إن الفن لا ينبغى له أن يثبت شيئا، ولا أن ينفى شيئا، إن الفن العالى ليس أداة للجدل، إنما هو شيء كالسحر ينفذ

---

(١) توفيق الحكيم: تحت شمس الفكر من مقالة كتبها للدكتور طه حسين فى سبتمبر عام ١٩٣٣م.

إلى النفوس فيحدث فيها أشياء.. إن الفنان ليس مصلحا، ولكنه صانع المصلح!! كل أولئك المصلحين من ملوك وزعماء وساسة، ماكوَّنهم وهيأهم لرسالات الإصلاح غير أدب الأدباء وشعر الشعراء وفن الفنانين..

ثم قال: «إن قيادة الرأى العام واجبة على الأديب، ولا ينسى (أحمد أمين)[1] ندائى إلى الأدباء أن يتسلموا القيادة الروحية والفكرية فى أول هذه الحرب، وما قام حول هذا النداء من جدل.

ولكن الذى أراه خطرا على الأدب هو قهر الأديب على أن يتجه اتجاها بعينه فى صميم فنه.

وحسبنا أن نتأمل حال الأدب فى البلاد «الدكتاتورية» التى كبَّلتْ وَحْى الأدباء بالقيود، فلم تخرج من قلوبهم إلا كتابات مفتعلة تفوح برائحة واحدة كأنها خارجة من مطبخ واحد.

إن الفن هو الحرية، حرية الفكر والشعور، ولا منبع له إلا فكر الفنان وقلبه، وهما وحدهما الهاديان له.

إن الوعى الفردي هو روح الفن، فإذا أردنا إبادة الفن واستئصاله من الأرض فلنقتل فيه ذلك الوعى الفردى.

ولقد أصاب صديق الطرفين[2] الكاتب الكبير «العقاد» إذ قال فى تعليقه على مناقشتنا هذه: «إن اتجاه التاريخ الإنسانى متقدم من الاجتماعية إلى الفردية، وهذا حق؛ إن الفردية هى عنوان الكرامة الإنسانية، هى شعور الإنسان بقيمة فكره وإحساسه، لا بفكر الجماعة وإحساسها. إن الحيوان لا يفكر بفكره ولا يحس بإحساسه، إنما هو يفكر ويحس بغريزة الجماعة كلها والنوع كله.

ولن يرقى الحيوان إلى مرتبة الإنسان إلا إذا استقل فى تفكيره وإحساسه. إن الوعى الاجتماعى فى الحيوان هو الذى جعل الحيوان حيوانا، والفردية: أى الحرية هى التى جعلت الإنسان إنسانًا».

---

(١) كان الحكيم يكتب رسائل إلى أصدقائه العقاد وأحمد أمين وطه حسين وكانت بعض هذه الرسائل مثار جدل وحوار.

(٢) يقصد بالطرفين نفسه وأحمد أمين.

ثم يواصل الحكيم قائلا: على أنه لا ينبغى الخلط بين الفردية والأنانية، فإنى حينما قلت: إن الفنان الذى لا يقول «أنا» ليس بفنان، كما أن العالم الذى يقول «أنا» ليس بعالم، إنما قصدت إلى المعنى الفنى لا المعنى الخلقى، قصدت أن الفنان هو الذى يقول: إن الطبيعة جميلة لأنى أراها جميلة، أما العالم فلا ينبغى له أن يقول ذلك، ولكن عليه أن يقول: «الطبيعة جميلة أو قبيحة، ساكنة أو متحركة، لأن البحث والتحليل والبرهان والدليل تؤدى إلى هذه النتيجة».

الفنان هو الذى يكشف عن الطبيعة من خلال نفسه، والعالم هو الذى كشف عن الطبيعة من خلال المجهر، وكلاهما يكمل الآخر فى بناء المعارف الإنسانية، ولا ينبغى لأحدهما أن يلجأ إلى وسائل الآخر فى استجلاء الحقائق واستكناه الطبائع.

إن الفن مصدره الشخص والعلم مصدره الموضوع، الفن شخصى والعلم موضوعى، الفن يقول: «أنا» أى نفسى والعلم يقول: «هو» أى الشىء.

أما أن يخدم الفنان والعالم أمته وقومه فهذا واقع بالبداهة والضرورة، لأن آثار الفن والعلم لا تبقى، ولا يمكن أن تبقى إلا إذا رأى الناس فى بقائها منفعة، فلا ينبغى أن نقول للفنان والعالم: «اصنعا شيئا نافعا للناس» بل يجب أن نقول لهما: «اصنعا فنًّا وعلمًا».

ثم يواصل حديثه عن الإحساس بالجمال فيقول: «فما الجمال إلا المظهر الخارجى والثوب البادى للنواميس العليا، ففى إدراك وجوده إدراك خفى مبهم لعظمة تلك القوانين التى تنظم الوجود، وهذا الإدراك هو كل شرف الإنسان وفضله، وهو وحده الذى يميز الإنسان عن سائر الحيوان، فلو شعرت الحيوانات بالجمال يوما ما لبثت حيوانات دقيقةً واحدة[1]».

وبعد استعراضنا لرأى الحكيم فى الفن والجمال، نرى أنه كوّن رأيه هذا من مصدرين أحدهما إسلامى عربى والآخر غربى، وهو بهذا المزج بين الثقافتين يتوسط ولا يغالى فيقبل كل ما هو عربى ويرفض كل ما هو غربى أو يعكس الأمر فيرفض كل ما هو غربى ويتشبث بكل ما هو عربى، إنه التوسط والاعتدال والحوار والمناقشة الهادئة الهادفة التى عبر عنها فى كثير من إنتاجه الفكرى والأدبى.

---

(١) توفيق الحكيم: تحت شمس الفكر مرجع سابق.

٣- زكي نجيب محمود (١٩٠٩-١٩٩٣م)

مفكر وفيلسوف مصرى له إسهامات جيدة فى مجال تخصصه وهو الفلسفة، وله جهد بارع فى الترجمة عن الإنجليزية[١].

وهو عربي الهوى نافح عن العقل العربى وأنصفه من أمثال «أوليرى» وغيره.

– يحاول زكى نجيب محمود – رحمه الله – أن يأخذ من تراثه العربى زادا يتزود به مع ما يتزود به من فكر التجديد والتأثر بالغرب فيبدو منصفا موضوعيا منطقيا تحليليا مقنعا بمعظم ما يذهب إليه من رأى.

أ- وتقوم فلسفته على أسس ركينة نشير إلى بعضها فيما يلى:

- يفرِّق بين اللغة العلمية، ولغة الدين والأدب والفن.
- ويفرِّق بين أسماء الأعلام وغيرها من الأسماء التى لا ترمز إلى شيء محدد يتصف بمجموع الصفات التى تدل عليها هذه الأسماء مثل: كلمة جمال وكلمة إنسان.
- وأن دلالة الكلمات غير الأعلام تصطبغ دلالتها بصبغة من يستعملها بذاته، ولذلك تكون الدلالة مختلفة من شخص إلى آخر.
- وأن الكلمات ذات الدلالة القيمية والأخلاقية التى تصف المشاعر والانفعالات تختلف تماما عن الكلمات التى لها دلالة علمية – أى تستعمل فى مجال العلم.
- ويؤكد أن التعبيرات الأخلاقية والتعبيرات الجمالية، إنما تصف شعور قائلها وانفعالاته، وتأمل أن تثير فى السامع لها شعورا مشابها لشعور قائلها.

وليست المصطلحات والتعبيرات العملية كذلك، وإنما هى تحليل ووصف دقيق لا يستهدف إثارة انفعال فى نفس من يسمع أو يقرأ.

- ولغة الأدب عنده عندما يستعملها الأديب هى لغة شعْرية يجسد فيها غير المحدود فى عبارة مكثفة، ويستشهد على صحة ما يقول بقول الفارابى: «الأقاويل الشعرية هى التي تؤلف فيها أشياء من شأنها أن تخيل فى الأمر الذى فيه المخاطبة خيالا مًا، أو شيئا أفضل أو أحسن، ذلك إما جمالاً أو قبحًا، أو جلالةً أو هوانًا أو غير ذلك مما يشاكل كل هذه.

---

(١) هو أحد مترجمى كتاب «قصة الحضارة» لول ديورانت» وله تعليقات هامة فى هامش هذا الكتاب الموسوعى تدل على قدم راسخة فى العلم والفكر.

● ولغة الشعر والخيال أقوى تأثيرا فى النفس والسلوك من لغة العلم، ويستشهد على ذلك بقول الفارابى: «إنا نفعل فيما تُخَيِّله لنا الأقاويل الشعرية كفعلنا فيما لو أن الأمر كما خيله لنا ذلك القول– وإن علمنا أن الأمر ليس كذلك . فإن الإنسان كثيرا ما تتبع أفعاله تخيلاته أكثر مما تتبع ظنه أو علمه – فإنه كثيرا ما يكون ظنه أو علمه مضاداً لتخيله، فيكون فعله بحسب تخيله، لا بحسب ظنه أو علمه»[١].

ب– رؤيته للفن والفنان العربى:

● ظروف الحياة وبعض فتراتها تكون أخصب من بعض وأكثر حيوية وتدفقًا؛ «فترات تمور بالحياة وتفور، وأخرى يصيبها من الجمود ما يشبه الموت؛ ففى الحالة الأولى يَكْثُر الخلقُ والإبداعُ، ويكثر الأفرادُ الأعلامُ الذين لا يغنى منهم أحد عن أحد.

وفى الحالة الثانية تتشابه الفلاة، فكلها من حبات الرمال أو حصباء المدر.

وإن شئت فانظر فى التاريخ العربى القريب إلى الثلاثة القرون التى امتدت بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر، والتي هى عصرنا المظلم، الذى توسط بين قديم خصب، وحاضر يحاول أن يكون خصبا، انظر فى التاريخ العربى القريب إلى هذه الثلاثة القرون تجدها سحابة واحدة دكناء، لَفَّتْ فى دخانها الناس فباتوا وكأنهم عجينة بشرية واحدة لا فرق فيها بين قطعة وقطعة .... ومن هذه العجينة البشرية التى تجانست أجزاؤها جهلا وخرافة أردنا – ونريد – للمواطن العربى أن يُولد من جديد ولادة يتخطى بها تلك الفترة المنكودة، إلى أسلاف تركوا على درب الحضارة مواقع أقدام لن تمحوها رياح، ثم يجاوز هؤلاء الأسلاف أنفسهم بجديد يساير به ركب العصر الذى يعيش فيه ...

على أن عملية الولادة الجديدة هذه قد بدأت بالفعل منذ قرن ونصف القرن، ومع ذلك فهى مازالت بعيدة عن مرحلة اكتمالها.. ذلك أن نقطة البداية كانت هى الشرارة التى انقدحت عند التقاء الثقافة العربية – بعد بيات شتوى دام ثلاثمائة عام – بالثقافة الأوروبية المدنية، فعندئذ اضطربت صفوفنا وانقسمنا مجموعات أشتاتا.. فهناك طرفان متطرفان:

● طرف منها يجزع من الثقافة الأوروبية المدنية، ويعدها ثقافة دخيلة تستهدف التسلط والسيطرة، ويلوذ منها بمكمن من التراث العربى الصرف..

---

(١) زكى نجيب محمود – «فى فلسفة النقد» وهو كتاب جديد يعبر عن فلسفته فى النقد التي تقوم على التحليل والدقيق.

● وأما الطرف الآخر فيفرح بالثقافة الأوروبية الجديدة فرحة الأطفال باللعب والهدايا يقلبونها ولا يحللونها.. وهؤلاء - فى فرحتهم باللعبة الجديدة - يفزعهم أن تذكر لهم شيئا من تراث عربي ينبغى له أن يبعث ليحيا ونحيا به.

● وبين هذين الطرفين المتطرّفين تجد صنوفا شتى من الأمزجة التى تأخذ بطرف من هنا وبطرف من هناك بنسب متفاوتة:

- فمنهم من يقبل الغرب كله، والتراث كله ويحسب أن الجمع بينهما أمر ممكن؛ كما صنع العقاد.

- ومنهم من يقبل الغرب كله وبعض التراث دون بعض؛ كما صنع طه حسين.

- ومنهم من يقبل التراث كله وبعض الغرب دون بعض، كما صنع محمد عبده.

- ومنهم من يجرى تعديلا فى التراث وفى الغرب معا؛ كما صنع أحمد أمين وتوفيق الحكيم.

- ومنهم من يكاد يرفض الجانبين معا؛ فلا هو قد تعلم من التراث العربى ليعرفه، ولا هو يرضى بقبول الثقافة الغربية خشية أن يقال عنه إنه من توابع المستعمرين، وأمثال هؤلاء تراهم هذه الأيام بكثرة بين كتاب الشعر والقصة والمسرحية، ومن هنا سرُّ سطحيتهم، ولكن من هنا أيضا سر الإبداع الذى يحاولونه ولو بدرجات يسيرة»(١).

ثم يستعرض ما يعيشه العالم العربى من سلبيات تمثلت فى:

- الثنائية الحادة بين الغيب والشهادة.

- وعدم الربط بين الأسباب ومسبباتها، بين الوسائل وغاياتها.

- وتحكم الحاكم فى المحكوم والسلطان والمنصب فى الناس.

- وتغليب الإرادة على الفكر.

- وسيادة الرغبة والهوى ما دام الإنسان يملك القوة والقدرة. ثم يعقب على ذلك بقوله:

«انسلخت دنيا الحياة الواقعة هذه عن دنيا القيم الأخلاقية، فالفعل فى ناحية والقول فى ناحية أخرى..

---

(١) السابق: ٢٩١-٢٩٢.

وجاءت حياتنا الفنية انعكاسا لهذه النظرة الشاملة التى تعلى من شأن الخارج على حساب الداخل، فالمعيار يهبط عليك من علٍ ولا ينبثق من طويتك؛ فكانت الأولوية فى حياتنا الفنية كلها - بوجه عام - هى لسلامة الشكل لا لحيوية المضمون، فالرسوم أشكال هندسية، والقصائد تفعيلات موزونة، وتسربت هذه «الشَّكْلية» إلى مناشط الحياة جميعا.

وبات الفن شكلا بغير مضمون ...

والعلم واحد للجميع.. والفن منوّع بتنوع الأفراد والأمم، العلم موضوعى، والفن ذاتى، والخلط كل الخلط فى أن أفسد العلم بأهواء الذات، أو أن أزين الفن بموضوع يُملى عليه من خارج، وبالعلم المقيَّد والفنّ الحرّ يتكون الإنسان المعاصر.

فإذا كان العربى متخلفًا عن عصره، فذلك لأنه، لا علِمًا بالطبيعة اكتسب ولا فنًّا معبرا عن ذاته أنشأ..

- بالعلم المشترك نعرف العالم ونغيره، وبالفن الذاتى نعرف الإنسان ونقومه.

- بالعلم المشترك تنشأ الحضارة بنظمها وذواتها ومصانعها وتجارتها وزراعتها، وبالتعبير الفنى عن الذات تنشأ الثقافة بقيمها التى تفرق بين الحسن والقبيح والمقبول والمرذول.

- العلم ملك مشاع للإنسانية جمعاء، والفن يحمل ملامح منشئة، وبهما معا يتحقق الإنسان متحضرا ومثقفا»[1].

جـ- رأيه فى الطريق إلى ثقافة عربية معاصرة:

يرى للوصول إلى ذلك فى خطوات، أهمها:

● ضرورة الخروج من دنيا اللغة إلى دنيا الأشياء.

● وأهمية تغيير تصورنا للأدب فيما نحاوله اليوم من قصة ومسرحية وقصيدة (فن)، وأكد أننا نجحنا فى ذلك.. ولكنه قال: «لكننا ما نزال فى دنيا الفكر متخلفين.. ترانا أحد رجلين:

- إما ناقل لفكر غربى.

- وإما ناشر لفكر عربى قديم.

---

(١) السابق: ٢٩٤-٣٠٢، باختصار وتركيز

فلا النقل فى الحالة الأولى، ولا النشر فى الحالة الثانية يصنع مفكرا عربيا معاصرا، لأننا فى الحالة الأولى سنفقد عنصر «العربى» وفى الحالة الثانية سنفقد عنصر «المعاصرة» والمطلوب هو أن نستوحى لنخلق الجديد، سواء عبرنا المكان لننقل عن الغرب، أو عبرنا الزمان لننشر عن العرب الأقدمين.. ثم يواصل قائلا:

واختصارا، إن وقفة الفنان العربى التى وقفها وهو ينشىء فنه الهندسى فى النوافذ والشرفات، وعلى جدران المنازل، ومنابر المساجد ومآذنها، هذه الوقفة الرياضية الدقيقة المحكمة التى عبرت عن روح الحياد المعقول عند العرب الأولين والتى كانت هى نفسها الوقفة التى هندس بها الشاعر تفعيلاته وقوافيه، وزخرف بها كاتب المقامة سجعه ونغماته، هذه الوقفة التى تضع المفرد الجزئى المتناهى المحدود، فى مكان من تركيب يشمله، بحيث يجىء التركيب كله موحيا بالمجرد الكلى اللامتناهى واللا محدود.

هذه الوقفة التى وقفها المتصوف العربى حين رأى فى فردية ذاته، ومُجَسِّد خبراته حقيقة الكون فى تجردها وشمولها، وفى الفرد الواحد الإنسانية بأسرها.

هذه الوقفة التى نراها منبثة فى تراثنا؛ من عقيدة وأدب وفنّ وفكر، هى التى ندعو إلى أن نكون وُفقنا منها إلى قضايا الإنسان فى عصرنا الراهن، فتنتج لنا ما يجوز بحق أن يُسمَّى بالثقافة العربية المعاصرة»[١].

د- رأيه فى الجمال والجميل:

- كلمة «جمال» عنده هى: مجموعة من صفات لا يكون لها مدلول فعلى إلاّ إذا دققنا على المفرد الجزئى الذى تتمثل فيه هذه الصفات.
- وكلمة «جمال» عنده ليست كلمة واحدة، كما يبدو، ولكنها مجموعة من صفات لا يكون لها مدلول فعلى إلا إذا وقفنا على الفرد الجزئى الذى تتمثل فيه تلك الصفات.
- أما كلمة «جميل» فيقول عنها:

كلمة «جميل» وما يدور دورها من كلمات، لا تشير إلى شىء قائم فى عالم الأشياء الخارجة، بل تشير إلى حالة نفسية، وإلى أن الجمال فى أى صورة هو من نفس رائيها (أى ليس الجمال نابعا من ذاتها).

---

(١) السابق: ٢٥٣-٢٥٥ باختصار وإيجاز وتركيز.

ثم يواصل قائلا:

إن أحكامنا على سلوك معين بالخيْر، أو على موضوع معين بانه جميل، إنما هى أحكام تصف شعورنا وانفعال لنا بما يعجبنا، أو بما لا يعجبنا، ومن هنا تخرج أحكامنا وعباراتنا التى تتحدث عن الخير والجمال؛ تخرج عن مجال العلم»[1].

وبعد: فقد استعرضنا - فى نهاية هذا الباب الأول من الكتاب - رؤية بعض مفكرى العرب - الذين عاشوا فى القرن العشرين الميلادى - رؤيتهم للجمال والفنّ فى عصرهم.

ولقد اخترناهم ثلاثتهم ممن اشتهروا بالأدب والفكر، والفلسفة، وممن عرفوا برؤيتهم للجمال والفن، متعمدين فى اختيارهم أن يعبر كل واحد منهم عن مذهب أو مدرسة فى رؤية الجمال والفن:

- حيث مثلً العقاد الاهتمام والإقبال على ثقافة الغرب كلها، مع الاهتمام والإقبال على الثقافة العربية الإسلامية، والإيمان بأهمية الجمع بين الثقافتين، فكان رأيه فى الجمال والفن متأثرا بالثقافتين معا.

- ومثَّل توفيق الحكيم الاهتمام بإجراء التعديلات التى رآها ضرورية وهو يأخذ من الثقافة الغربية، والثقافة العربية الإسلامية، فكان رأيه فى الجمال والفن رأيا تجميعيًا تلفيقيًا يُأخذ من كل الثقافتين الغربية والعربية مع التعديلات التى يجريها على كل منهما.

- ومثَّل زكى نجيب محمود الاهتمام بالتراث العربى الإسلامى كله والإقبال عليه، مع اهتمام وإقبال على بعض التراث الغربى، ولكنه يدعو إلى تجديد الفكر العربى والعقل العربى فى ضوء الواقع الذى يعيشه فى هذا العصر، محتفظا بل محافظا على تراثه مستفيدا مما هو مفيد من حضارة الغرب كلها، لا مجرد ثقافته.

ومنهج زكى نجيب محمود فى التعامل مع الثقافتين ربما كان أقرب من منهجى صاحبيه العقاد والحكيم إلى ما نحن فى حاجة إليه اليوم - كما سنتحدث عن ذلك فى آخر الباب الثانى من هذا الكتاب إذا أذن الله وأعان.

- ونحن بحاجة إلى أن نستعرض رؤية الإسلام والمسلمين للجمال والفن فى الحياة الإنسانية، من خلال ما جاء فى الإسلام عن الجمال والفن - وذلك صلب الباب الثانى من هذا الكتاب - ثم نتهيأ لإصدار حكمنا على هؤلاء الأدباء والمفكرين والفلاسفة بعد أن نكون

---

(١) زكى نجيب محمود: نحو فلسفة علمية.

قد حررنا المفهوم الدقيق للجمال والفن فى الإسلام وعند بعض المسلمين المشتغلين بالجمال والفن.. وذلك أننا نرى أن الجمال والفن من خلال رؤية إسلامية نابعة من الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة، يختلف فى بعض الأحيان ولدى بعض الناس عن رؤيتهم الشخصية للجمال والفن، لذلك يمكن أن نقول: الفن عند المسلمين أو الجماليات التى أبدعها المسلمون ولكننا نتحفظ عندما نقول: الفن الإسلامى أو الجماليات الإسلامية لأن ذلك يعنى أن الفن والجماليات قد نبعت من مصدرى الإسلام الوحيدين الكتاب والسنة.

وتلك قضية نناقشها فى الباب الثانى من هذا الكتاب بشىء من التفصيل إذا أذن الله تعالى وأعان.

■■■■



الباب الثانى

الجمال والفن

فى الإسلام وعند المسلمين

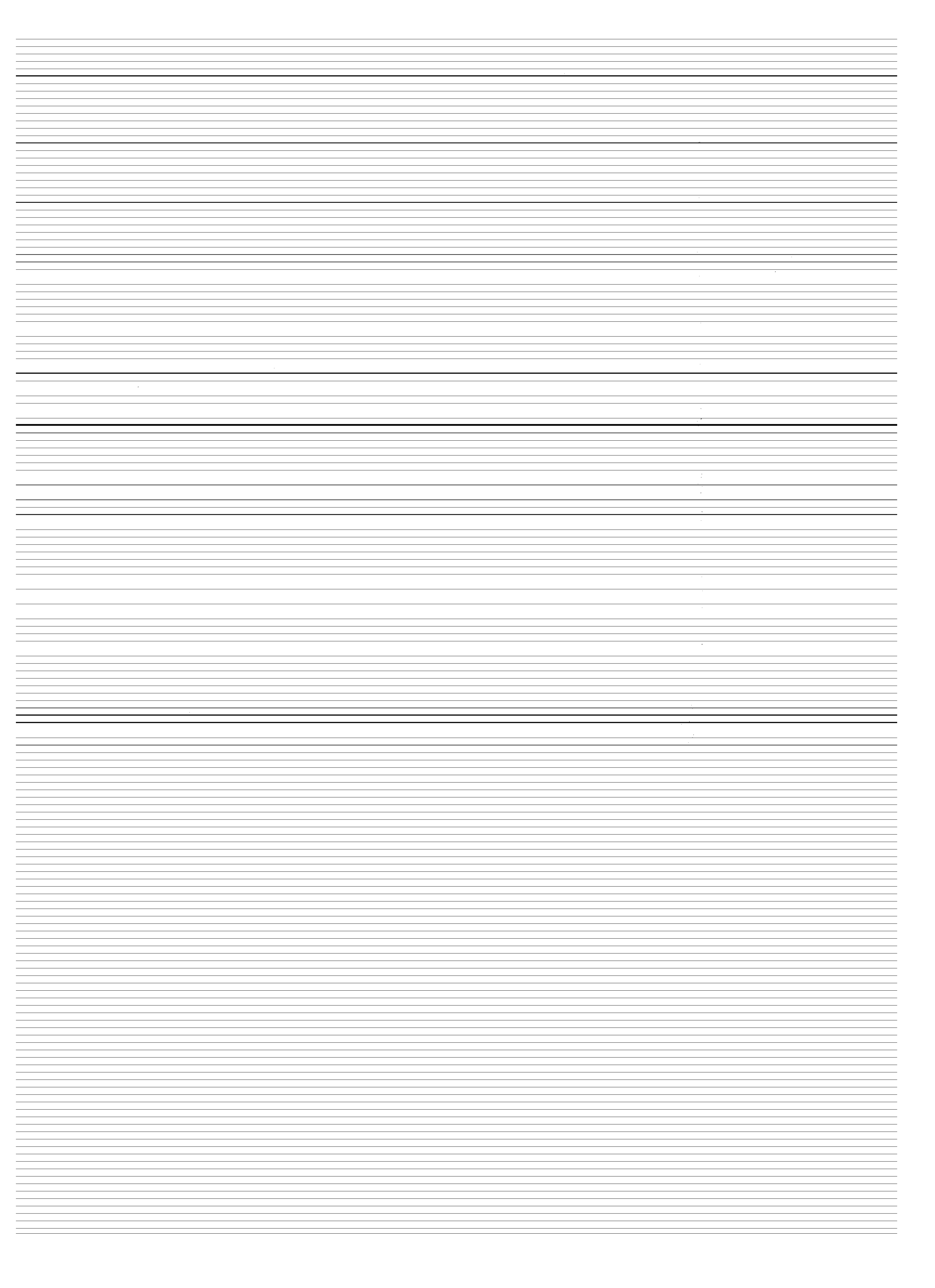
وفيه فصلان:

الفصل الأول:

الجمال والفن فى الإسلام

والفصل الثانى:

الجمال والفن عند المسلمين



الجمال والفن فى الإسلام وعند المسلمين

تمهيد :

نحاول فى هذا الباب ان نستجلى مكانة الجمال والفن فى الإسلام، ومكانته عند المسلمين فى تاريخهم منذ نزل عليهم القرآن الكريم، وسمعوا كلام الرسول الخاتم ﷺ، ورأوا أعماله وهديه فى أمره كله.

- ومن أجل أن دين الإسلام هو الدين الخاتم، فقد شاء الله ان يكون دينا كاملاً شاملاً، قادراً على إصلاح كل شعب الحياة الدنيا، وكل الطرق القويمة إلى الحياة الآخرى، طالما على الأرض حياة للإنسان وإلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها.
- ولقد جاء الإسلام بكل القيم التى ينفع الإنسان التمسك بها نفعًا دنيويًا وأخرويًا، وقد حفل القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة قولاً أو فعلاً أو تقريرًا بالوف هذه القيم[1].
- وهذه القيم التى جاء بها الإسلام - على اختلاف أنواعها، من خلقية إلى جمالية إلى منطقية - لها سمات ثلاث هى :

- أنها كثيرة متنوعة تغطى كل متطلبات الحياة الدنيا فى أى زمان وأى مكان.
- وأنها خيِّرة وظيفتها غرس الخير فى الناس والمجتمع، ونزع الشر من نفس الإنسان ومن المجتمع كله.
- وأنها تعنى بتوجيه الإنسان ليحيا فى دنياه حياة طيبة، وليحظى فى آخرته بحياة طيبة يرضى بحياة طيبة يرضى الله عنها ويثيب عليها.

- وهذه القيم الإسلامية فى مجال الخير والنفع، سميت أو وصفت بانها شعب الإيمان حينا، وباركان الإسلام حينا، وبصفات المؤمنين والمتوكلين وعباد الرحمن والذاكرين فى أحيان كثيرة.

---

(١) القِيمَ هى كل ما يعتبر جديرا باهتمام الفرد وعنايته ونشدانه، وهى قادرة على توجيه سلوك الإنسان فى الحياة. وأهم هذه القيم الصدق والأمانة والوفاء والنجدة والولاء وتحمل المسئولية.

والقيم أنواع: أخلاقية ترسم معايير الخير والشر، وقيم منطقية تبين الصواب من الخطأ، وقيم جمالية تبين الجميل والقبيح وترسم معايير الجمال والقبح.

والقيم الجمالية لا حصر لها فى أى مجتمع شانها فى ذلك شان القيم الخلقية والقيم المنطقية العقلية، والقيم تتدرج من الأدنى إلى ما يقرب من الكمال.

– وفى مجال القيم التى أُطلق عليها شعب الإيمان عدَّها بعض العلماء فى سبع وسبعين شعبة[1] وإن كان تصل إلى ما هو أكثر من ذلك بكثير، ومن هذه القيم بكل تأكيد القيم الجمالية التى تطبع المجتمع كله بطابع الجمال، وتشجع المسلم على أن يتحلى بصفات الجمال وأن يحس به وأن يعبر عنه فى فكره وقوله وعمله وسلوكه، لأن الله تعالى جميل يحب الجمال.

– وفى مجال القيم التى أطلق عليها الكبائر أو المعاصى لأنها شرور تحمل إلى المسلمين الضرر فى الدنيا والآخرة، وهى من الوضوح بحيث تعقبها بعض العلماء، فعدوا الكبائر منها فى سبعين وإن كان ما يتفرع عن هذه الكبائر يُعَدّ بالمئات أو الألوف؛[2].

– ولا شك أن الامتناع عن ممارسة الشر، وحصار الأشرار فى المجتمع، لا شك أن فى ذلك دعمًا للقيم الجمالية فى المجتمع؛ لأن ذلك هو نبذ للمعاصى والآثام وترك لمخالفة الله تعالى، وكل ذلك من الخير الذى يدعم القيم الجمالية فى المجتمع.

هذا عن القيم الإسلامية كما جاء بها الإسلام.

● أما القيم عند المسلمين – وبخاصة بعد القرون الثلاثة الأولي خير القرون كما أخبر بذلك المعصوم ﷺ – فقد أصبحت عند بعض المسلمين مختلفة عنها عند بعضهم الآخر، تبعا لتمسك بعضهم بها وتخلى بعضهم عن بعضها.

– ومن هنا ظهر فى المجتمعات المسلمة – على مستوى العالم الإسلامى كله – انفصال بين القيم نصوصًا إسلامية وأخلاقًا ملتزمة، وبين أسلوب التطبيق لهذه القيم فى المجتمع.

– ولم يكن هذا الانفصال بين القيم وتطبيقها خاصا بالمسلمين، وإنما هو عام بين جميع أهل الأديان السماوية، حتى ليمكن اعتبار ذلك الانفصال سنة بشرية لدى كل من أرسل الله تعالى إليهم الرسل والأنبياء.

– على أن الذين اهتموا بتسجيل تاريخ الأديان، وعلماء مقارنة الأديان حتى من غير المسلمين، أثبتوا أن الانفصال بين القيم وتطبيقاتها عند المسلمين كان أقل حدة من

---

(١) انظر: البيهقى ٣٨٤–٤٥٨ هـ: شعب الإيمان، وهو كتاب طبع فى ثمانية أجزاء تاسعها جزء فى فهارسها – دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠م.

(٢) من العلماء الذين اهتموا بذلك: شمس الدين الذهبى ٦٦٣–٧٤٧ هـ فى كتابه: الكبائر حيث جمع منها سبعين كبيرة، ط دار الغد – القاهرة ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.

انفصاله لدى غيرهم من أهل الأديان السماوية الأخرى كاليهود والنصارى.

● غير أن المتربصين بالإسلام والمسلمين – وما أكثرهم!! – يثيرون العقبات ويولدون المشكلات، ويوجهون التُّهم جزافا إلى الإسلام كلما رأوا مسلما يخالف الإسلام فيتخلَّى عن بعض قيمه، وينسبون العيب إلى الإسلام لا إلى المسلم المتخلى عن القيم!! وتلك آفة فى عقول هؤلاء جعلهم حقدهم على الإسلام يضلون فيها ضلالا بعيدا، ويسجلونها فى كتبهم ودراساتهم ومؤتمراتهم وندواتهم ومقالاتهم(1).

والحق أن المسلم الذى لا يتمسك بقيم الإسلام كلها هو المخطىء المقصر المخالف لمنهج الله تعالى المستحق لعقابه، فالعيب فيه والقصور منه، بل الإسلام بكل قيمه برىء منه ومن أفعاله.

وليس بعاقل ولا منصف ذلك الذى يحتج على القيمة والمبدأ بأعمال الناس وسلوكهم، لأن الله تعالى الذى شرع المبادئ والقيم وأرساها على قواعد ثابتة هو الذى أطلق لإرادة الإنسان حرية الاختيار ما بين الإيمان والكفر، فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ... ﴾ [الكهف: ٢٩].

● ولقد بُلينا فى عصرنا هذا بعدد من المستشرقين المضللين، وعدد من المبشرين الحاقدين لا يحلو لهم شىء قَدْر ما يحلو لهم التهجم على الإسلام ومبادئه وقيمه، وبرهانهم الوحيد على صحة ما يزعمون هو سلوك بعض المسلمين!!

بل إن بعضهم يربط – فى دهاء وخبث – بين ضعف المسلمين وتراجعهم ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وعسكريا وبين الإسلام عقيدةً ومبدأً وقيماً.

أما الذين يبطنون منهم الصهيونية أو يظهرونها فإنهم يذهبون فى عدائهم للإسلام ومبادئه وقيمه مذاهب فاسدة مفسدة، بل ضالة مضللة.

● ولقد حاول هؤلاء الأعداء أن يفسدوا على المسلمين حياتهم – الاجتماعية والثقافية

---

(1) والمشهورون بذلك معروفون بسيماهم وبلحن أقوالهم، ومنهم:
- كل الذين يسمون أنفسهم مبشرين بالمسيحية.
- وكثير من المستشرقين.
- وعدد لا بأس به من المنشغلين بالتاريخ.

وقد ذكرنا منهم بالأسماء والأعمال عددا فى كتابنا: الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام، ط دار القلم – الكويت.

والتربوية والسياسية والاقتصادية، فعمدوا - والسلطة فى أيديهم والسلطان منهم - أن يسيطروا على التعليم منهجا وكتابا ومدرسا ومدرسة، وعلى الإعلام أجهزة ومادة إعلامية، وعلى لغة القرآن وعلوم الإسلام، وعلى الثقافة عموما وخصوصا، وعلى كل القيم التى جاء بها الإسلام، ومنها القيم الجمالية تلك القيم التى من شأن التمسك بها أن تضفى على المجتمع مسحةً من رقة وعذوبة ولطف وجمال، وأن تعين على اتخاذ الفنون الجميلة وسيلة من وسائل التعبير عن الإحساس بالجمال.

● والجمال، والأشياء الجمالية قاسم مشترك فى قيم الإسلام جميعا، وطابع عام فى سلوك المسلم وهو يفكر، إذ يجب أن يفكر فى كل ما هو جميل، وهو يتكلم إذ ينبغى أن ينطق بكل ما هو جميل، وهو يمارس أى عمل فى حياته إذ يلزمه الشرع بأن يكون عمله مما أوجب الله تعالى أو أباح، وما يوجب الله ولا يبيح إلا ما هو جميل.

إن المسلم ينبغى أن يغرس الجمال فى نفسه أولا، ثم يزرعه فى المجتمع الذى يعيش فيه، ثم يرقب ثمره فى الناس حبًّا ومودة ووئامًا اجتماعيا يعلو فوق كل خلاف فضلا عن صراع، ومنطلق ذلك كله أن الله تعالى جميل يحب الجمال، ويصف بالجمال فضائل كثيرة.

● والصورة المجملة لما نريد أن نمهد به للباب الثانى من هذا الكتاب هى:

- أن الجمال قيمة إسلامية دلَّت عليها نصوص الكتاب والسنة.

- وأنها مثل قيم الإسلام جميعها، لها صفة الثبات والاستقرار فى المجتمع مهما تعدد المكان وتغير الزمان.

- وأنها كسائر القيم الإسلامية لا يصلح المجتمع إلا أن تمسك بها وطبقها فى كل ظروفه وأحواله.

- وأن قيمة الجمال تشتمل على مفردات عديدة تبدأ بالفكر الجميل، والقول الجميل والعمل الجميل والسلوك الجميل، ولا تنتهى إلا وقد صار كل إنسان وكل شىء فى الكون جميلا.

- وأن هذا الجمال وذاك الجميل هو ما وافق شرع الله تعالى ومنهجه ونظامه، أى الالتزام بما أوجب الله على عباده، والامتناع عما نهى الله تعالى عباده عنه.

- وأن قيمة الجمال في الإسلام تفرض نفسها على الإنسان فى كل أحواله ما دام مؤمنًا

مسلمًا محسنًا آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، يعيش فى هذه الدنيا يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه سبحانه وتعالى.

– وأن الجمال صفة يجب أن تلازم الإنسان فى كل أمره؛ فهو فى حياته الاجتماعية – فى داخل أسرته – إما معاشرًا أو مفارقًا، وفى كلتا الحالتين فهو مطالب بأن يعاشر بالمعروف أو يسرِّح سراحا جميلا.

والإنسان إما عاملاً لعمل، أو عاجزا عن القيام به، صابرا حتى يستطيع القيام به، وفى كلتا الحالتين فهو مطالب بأن يعمل أو يترك ويصبر صبرا جميلا.

والإنسان عندما يتعرض للظلم فيعفوا ويصفح عمَّن ظلمه أو قصر فى حقه فهو مطالب بأن يكون صفحه جميلا.

وعندما يجد الإنسان نفسه فى موقف يوجب عليه هجر أحد من الناس؛ فإنه مطالب بأن يكون هجره جميلا.

– وإذا كان الصبر هو حبس النفس وإلزامها بما يقتضيه العقل والشرع، من صبر على مصيبة، أو صبر على طاعة الله تعالى أو صبر على متاعب الحياة سلمًا وحربا وجهادا فى سبيل الله تعالى؛ فإن الإنسان فى كل أحوال الصبر مطالب بأن يكون صبره جميلا.

● وجملة القول أن الجمال صفة ما ينبغى أن تفارق المسلم فى جميع أحواله، وتلك هى التربية الجمالية الحقَّة الآخذة بالمجتمع بالإنسانى كله إلى أعلى درجات التقدم والرقى وممارسة الحياة الإنسانية بإحسان.

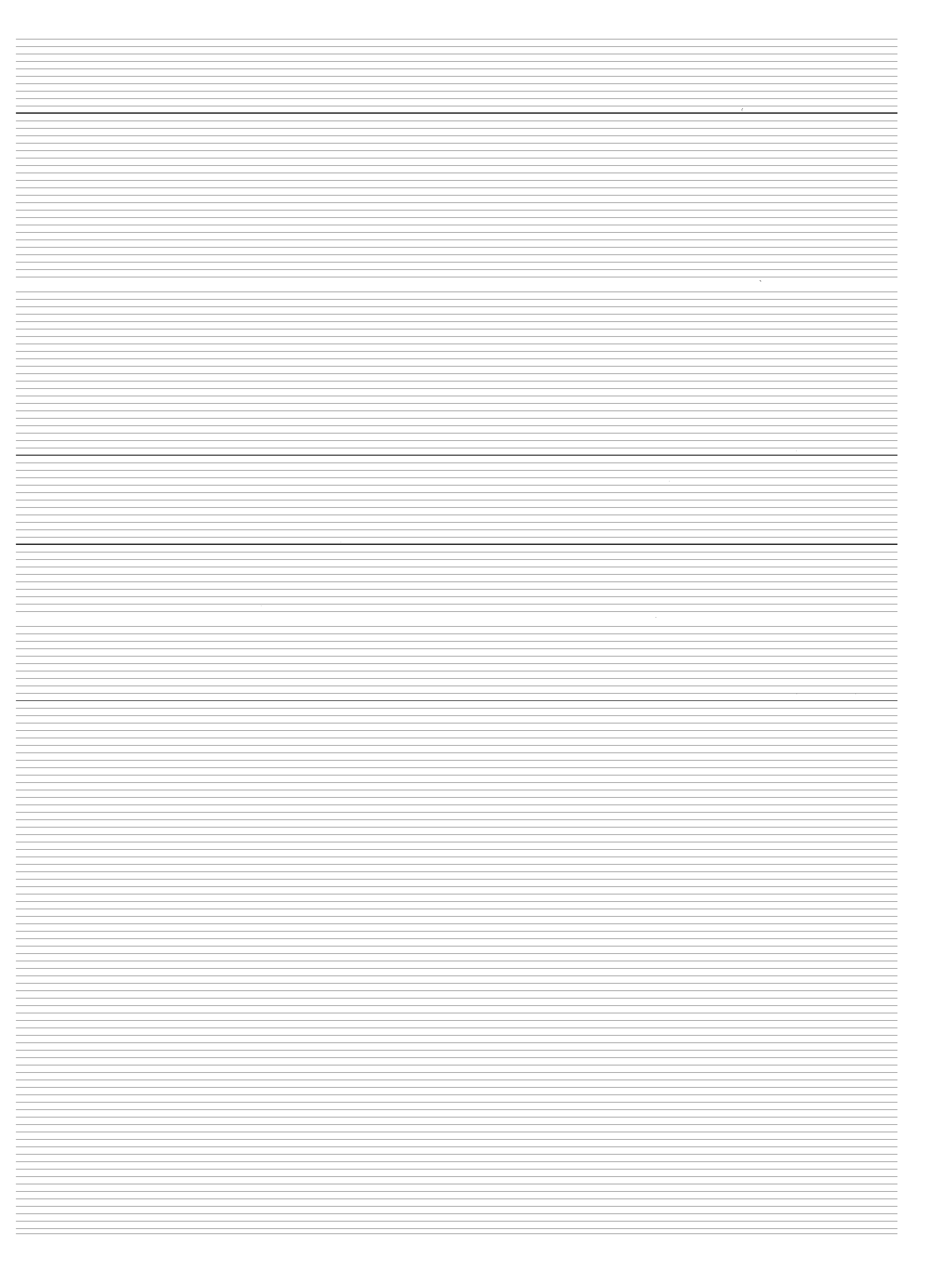
● ومن خلال حديثنا عن فصلى هذا الباب:

الجمال والفن فى الإسلام.

والجمال والفن عند المسلمين.

سوف نوضح بإذن الله تعالى مدى ما لهذه التربية الجمالية فى الإسلام من أثر فى طبع المجتمع على الإحساس بالجمال وحبه، وممارسته فى كل مرافق الحياة.

■■■■



الفصل الأول
الجمال والفن فى الإسلام

أولاً: الجمال بلفظه ومشتقاته ومعناه فى القرآن الكريم

أ- الجمال بلفظه.

ب- المشتقات من لفظ الجمال.

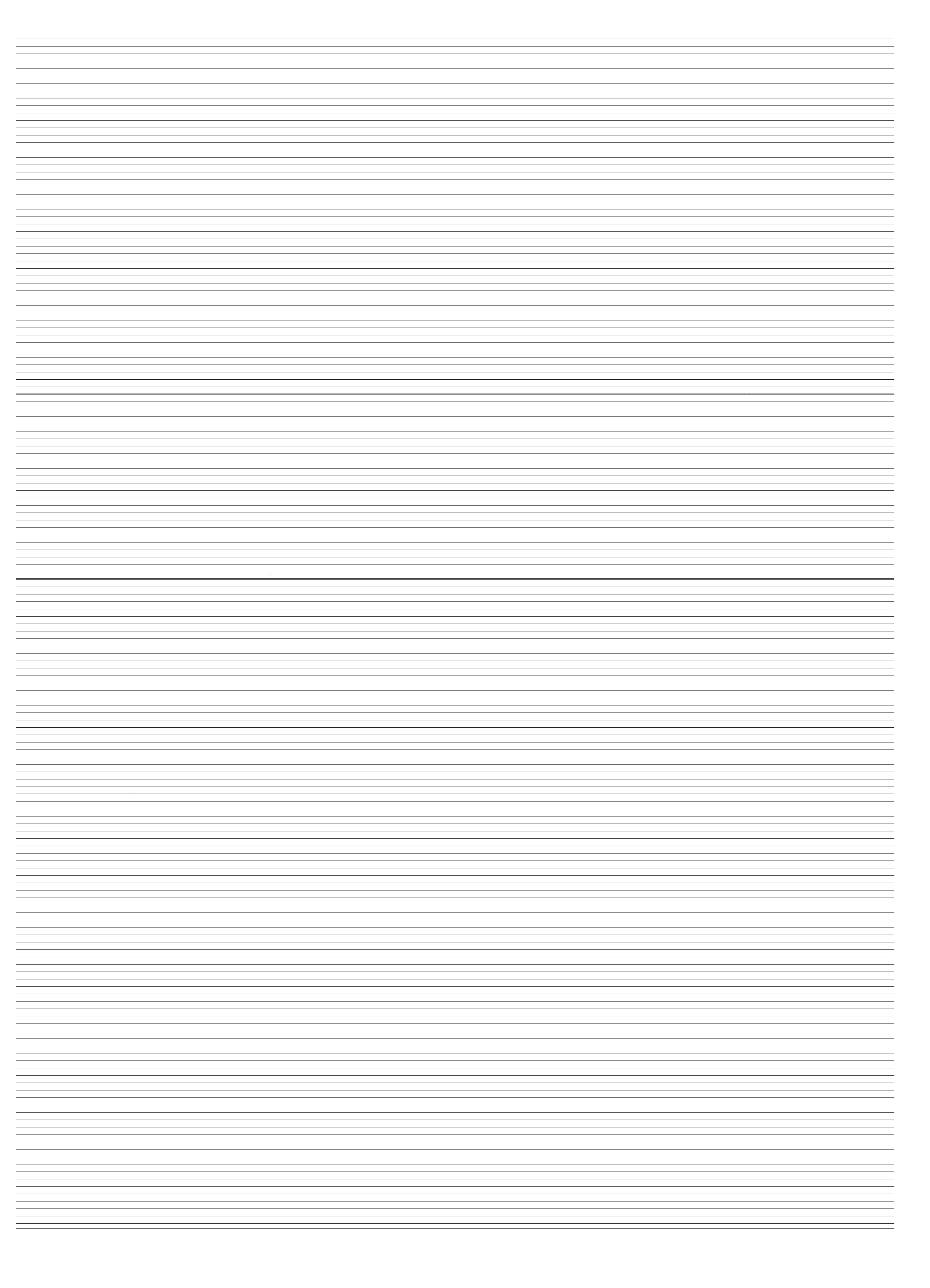
جـ- الجمال بمعناه فى القرآن الكريم.

ثانياً: الجمال بلفظه ومشتقاته ومعناه فى السنة النبوية المطهرة

أ- الجمال بلفظه.

ب- المشتقات من لفظ الجمال.

جـ- الجمال بمعناه فى السنة النبوية المطهرة.



الجمال والفن فى الإسلام

الجمال فى الإسلام – أى القرآن الكريم والسنة النبوية – معروف بلفظه ومشتقات لفظه وبمعناه، وهو من الصفات المحمودة فى كل حال، وقد ورد الجمال بلفظه ومشتقات لفظه فى عدد من الآيات القرآنية وفى عدد كبير من الأحاديث النبوية الشريفة.

– ففى القرآن الكريم ورد لفظ الجمال ومشتقاته فى ثمانى آيات كريمة(١) وورد بمعناه فى مئات الآيات الكريمة.

– وفى السنة النبوية ورد لفظ الجمال ومشتقاته فى عدد كبير من الأحاديث النبوية، وورد بمعناه فى مئات الأحاديث النبوية الشريفة، حتى ليحق لنا أن تقول: أن كل ما دعا إليه الرسول ﷺ أو طالب به جميل ومناسب للإنسان وهو أليق به، وأدعى إلى رضا ربه سبحانه وتعالى عنه.

● والجمال – كما قلنا فى مدخل الكتاب – هو الحُسْن الكثير، وهو الحق، وهو رمز للكمال الإلهى.

والجمال صفة لكل ما يحبب الإنسان فى الحياة الدنيا والحياة الآخرة. ومن معانى الجمال: التناسب والتناسق والانتظام.

والجمال صفة محمودة يتصف بها كل طائع لله تعالى ولرسوله ﷺ، إذ قد جاءت فى القرآن الكريم صفة للصفح، والصبر والتسريح، والهجر، كما جاءت فى السنة النبوية صفة لله تعالى فى قول الرسول ﷺ فيما رواه مسلم بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله جميل يحب الجمال**» فكل مسلم مطالب بأن يكون جميلا فى خلقه وسلوكه وتعامله مع الله تعالى ومع نفسه ومع الناس، وأن يكون جميلا فى كلامه وفعله وتركه، وأن يكون جميلا فى ملبسه ومسكنه، ومطعمه ومشربه، وما يأتى من الأمر وما يدع منه.

إن الجمال يعنى فى الإسلام أن يتصف الإنسان بكل صفة من صفات الله تعالى مما تطيق

---

(١) جاء ذلك فى قوله تعالى فى: الآية ٦ من سورة النحل، وفى الآية: ٣ والآية: ٨٣ من سورة يوسف، والآية: ٥ من سورة المعارج، والآية: ٢٨ والآية: ٤٩ من سورة الأحزاب، والآية: ٨٥ من سورة الحجر، والآية: ١٠ من سورة المزمل.

بشريته، وأن يتصف بكل صفة خلقية واجتماعية من صفات الرسول ﷺ، لأنه ﷺ الأسوة الحسنة الجميلة للمسلمين جميعا فى كل زمان ومكان.

● أما الفَنّ فإنه وإن لم يرد بلفظه فى القرآن الكريم ولا فى السنة النبوية، إلا أنه ورد بمعناه فى الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التى حببت إلى الناس الإتقان والإجادة والتحسين لكل قول أو عمل يمارسه الإنسان، أو التى حببت إلى الناس التزين والتجمل فى القول والعمل والذهاب إلى المسجد ولقاء الناس، أو التى حببت فى النظافة عموما ونظافة البدن على وجه الخصوص، أو التى بغضت فى كل ما هو قبيح وردىء.

– وقد ورد لفظ الفَنّ فى معاجم اللغة العربية بمعان عديدة تعنى التنوع والتزيين والإجادة والإتقان والعجيب من الأمور المستحسنة.

فقد جاء الفن بمعنى: المال، وبمعنى: الضرب من الشىء، ويجمع على أفنان وفنون، يقال: رعينا فنون النبات وأصبنا فنون المال.

وجاء الفَن بمعنى: التزيين.

وافتَنَّ الرجل: أخذ فى فنون من القول فى حديثه.

وافتَنَّ فى خصومته: إذا توسع فيها.

ورجل مُفِنّ – مثل مُسِن فى الوزن – أى يأتى بالعجائب.

وافتَنَّ الكلام اشتق فى فنّ بعد فنّ.

والفن الأمر العجيب أو المعجب، ومن هذا المعنى تأتى كلمة الفن والفنون الجميلة التى نستعملها اليوم.

وتفانين الكلام أساليبه وطرقه.

وهذا الفن بمعنى التزيين والتحسين والإتيان بالعجيب المعجب من الأمر نجده فى تراث المسلمين فى عصورهم المختلفة وقد ظهر فى الكلام المزيَّن المحسَّن البديع، وظهر فى العمل المزيّن المحسّن فى الملبس والمسكن وصنوف البناء مساكن ومساجد ومدارس، وكان للمسلمين فيه جهود معروفة سجلها التاريخ ولا يزال أثر كثير منها باقيا حتى يومنا هذا.

● فإذا كان الجمال والفن فى الإسلام بهذا المعنى الذى أوضحنا فإن التربية الجمالية

الإسلامية هى التى تمد المجتمعات العربية والإسلامية بزاد وفير يعمق فيهم الإحساس بالجمال، ويولد لديهم الرغبة فى التعبير عن هذا الإحساس بصور جمالية ناجحة فى إقرار القيم الإسلامية فى المجتمع ونقلها إلى الناس بما تحمله إليهم من خير.

- وإذا كان الإحساس بالجمال والتعبير عنه بالفنون يمثل تطورا ورُقيًّا للإنسان فى حياته، فإن التربية الجمالية الإسلامية تستهدف صياغة الإنسان – فردا وجماعة ومجتمعا – صياغة إسلامية تجعل الإنسان سعيدا فى دنياه بالعيش فيها، سعيدا بأن يزرع فى هذه الحياة الدنيا من الأعمال الصالحة ما يجنى أطيب ثماره فى الحياة الآخرة.

وبعد : فإلى تفصيل الحديث عن الجمال والفن فى الإسلام أى فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

■■■■

المبحث الأول

الجمال والفن فى القرآن الكريم

● إذا كان الجمال هو الحسن الكثير - كما أوضحنا ذلك أكثر من مرة - فإن هذا الحسن أو الجمال يوصف به الإنسان فى أقواله وأعماله ومعاملاته كلها؛ فقد طالب الله تعالى رسوله ﷺ وطالب المؤمنين معه بأن يلتزموا أحسن الأخلاق وأجملها فى تعاملهم مع الله تعالى أولا، ثم مع أنفسهم ومع الناس عموما، بل مع الأشياء وكل مخلوقات الله تعالى، لكى يصبح الجمال هو الصبغة العامة فى حياة الإنسان، لأن ذلك خير له فى دينه ودنياه.

١- الجمال بلفظه وبعض ما اشتق منه:

أ- الجمال بلفظه:

وقد جاءت كلمة الجمال بلفظها فى قوله الله تعالى: ﴿**وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ⑤ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ**﴾ [النحل: ٥-٦].

والجمال ما يُتجمَّل به ويُتزيَّن وهو الحسن الكثير -كما قلنا- ويكون فى صورة عديدة:

- فى الصورة وتركيب الخِلْقة، وذلك يُدْرك بالبصر ويلقيه البصر إلى القلب متلائما، فتتعلق به النفس من غير معرفة بوجه ذلك ولا نسبته إلى أحد من البشر، فهناك إذن إنسان جميل فى صورته وخلقته تتعلق به النفس دون أن تقدر على تحليل هذا التعلق.

- وفى الأخلاق الباطنة هناك جمال، حين تكون الأخلاق على وفق الصفات المحمودة كالعلم والحكمة والعدل والعفة وكظم الغيظ، وإرادة الخير للناس عموما، وكف الأذى عنهم.

- ويكون الجمال فى أفعال الإنسان، حيث تكون هذه الأفعال ملائمة لصالح الناس فى دنياهم وأخراهم، بما تجلبه لهم من خير وما تدفعه عنهم من شَرّ، فتلك هى الأفعال الجميلة.

وجمال الأنعام فى هذه الآية الكريمة: ﴿**وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ**﴾ جمال يدرك بالبصر وينتقل إلى البصائر؛ فيحقق للإنسان راحة وسعادة واعتزازاً بهذه الأنعام والدواب، فإن كان جيد الإيمان قويه نقيه شعر بنعمة الله عليه فحمده وشكره، وإن كان

ضعيف الإيمان اغتر وقال كما قال شيخ المغترين بنعم الله عليه «قارون» الذى قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي...﴾ [القصص: ٧٨].

– هذا عن لفظ الجمال الوارد فى القرآن الكريم الذى امتنَّ الله تعالى به على الإنسان حين خوّله نعمة الأنعام، وجعل لهذه الأنعام فائدتين للإنسان:

إحداهما مادية: وهى كل ما ينتفع به الإنسان من الأنعام كما جاء فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠]، فضلا عن منفعة الأكل والشرب مما يؤكل منها ويشرب.

والأخرى معنوية: وهى تجمل الإنسان واعتزازه بهذه الأنعام بل فخره بامتلاكها، فله فى رؤيتها جمال عند غدوها، ورواحها، ممتلئة البطون والضروع، حاملة للخير، جالبة لأسبابه، لأن فى ذلك إحساسا بجمالها غادية رائحة، فالأنعام نعمة خلقها الله للإنسان ينتفع بها ﴿خَلَقَهَا لَكُمْ...﴾ [النحل: ٥].

ب– الجمال ببعض مشتقاته:

- كما جاء فى القرآن مشتق واحد من لفظ الجمال هو: جميل وصفت به كلمات: الصبر، والتسريح، والصفح والهجر.

– فالجميل صفة للصبر المصحوب بالأمل والرجاء دون جزع، كما فى قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام حين أبلغه أبناؤه أن أخاهم يوسف قد أكله الذئب لانشغال إخوته عنه بالتسابق ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

– والجميل صفة للصبر حين يفاجأ الإنسان بمصيبة تتكرر حيث ضياع الولد الثانى بعد الأول يوسف، فكان صبره على تكرر المصيبة جميلا خالياً من اليأس أو السخط إذ قال لهم أبوهم يعقوب عليه السلام: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣].

– وجاءت كلمة جميل صفة للصبر على المكروه من الأمر دون تذمر أو شكوى، كما فى قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝ وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٥–

٧] والخطاب لمحمد ﷺ يطالبه الله تعالى بالصبر على استهزاء الكفار به، واستعجالهم العذاب، وجمال الصبر عليهم أنه صبر خالٍ من الشكوى والجزع.

– وجاءت كلمة جميل وصفا للتسريح – أى الطلاق – بمفارقة الزوج دون إساءة أو تجريح أو إضرار، كما فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٨].

– وقوله سبحانه فى مخاطبة المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩]، أى أخرجوهن من بيوتكم من غير إضرار بهن بل مع تقديم شيء من المال جبراً لخواطرهن وتمتيعاً لهن.

– وورد لفظ الجميل صفة للصفح المصحوب بالحلم وعدم المنّ، كما فى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٥-٨٦].

– بل جاءت كلمة الجميل وصفا للهجر، لمن يستحق الهجر، كما فى قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠] فالصبر على ما يقول الكفار والمعاندون من الأباطيل والمفتريات يجب أن يكون جميلا، يجانبهم فيه بقلبه ويخالفهم فى أفعالهم مع الإغضاء عنهم، وترك الانتقام منهم.

فإذا التزم الإنسان بما أمره الله به من الصبر الجميل فى مثل تلك المواطن والظروف، فصبر صبرا جميلا، وسرح عند الطلاق سراحا جميلا، وصفح عند الإساءة إليه صفحا جميلا، وهجر عند توفر أسباب الهجر، هجرا جميلا، فإنه عندئذ يأخذ بناصية الجمال فى سلوكه وأخلاقه، ويكون بحق لَبِنَة صالحة فى بناء المجتمع الإنسانى الراشد الذى يتقيد فى تعامله بالقيم الإسلامية، تلك القيم التى أراد الإسلام لها أن تكون ثابتة ما دام على وجه الأرض حياة إنسانية، وطالب الناس بأن يتمسكوا بها ويدعوا غيرهم إليها، ويعملوا على شيوعها وسيادتها.

٢- الجمال بمعناه:

● وأما ورود الجمال فى القرآن الكريم بمعناه – دون لفظه – فهو أكثر من أن يحصى فى هذا الكتاب – لأن الجمال كما قلنا هو الحُسْن وهو الذى يجلب البهجة للنفوس والعقول،

ويولد الرغبة فى حب الخير. وكل ما فى القرآن الكريم من آيات - مهما يكن موضوعها - حَسَنٌ يجلب البهجة للإنسان ويرغبه فى حب الخير وفعله، ولهذا كان من الصعب إحصاء هذه الآيات الكريمة، مكتفين بذكر الشاهد والمثال، تاركين ما وراء ذلك - وهو سائر القرآن الكريم - لفطنة المتدبر لآيات الله.

ومن تلك الأمثلة والشواهد التى حفلت بمعنى الجمال دون لفظه ما نذكره فيما يلى:

أ- الجمال بمعنى الحُسْن:

وقد ذكرنا من قبل أن الجمال هو الحُسْن الكثير، والحُسْن كل مبهج مرغوب فيه.

وأكثر ما ورد لفظ الحُسْن فى القرآن الكريم فهو المستحسن من جهة البصيرة والعقل، ومن الآيات الكريمة التى ورد فيها ذلك:

- الأحسن فى القول:

قال الله تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء: ٥٣].

وقال: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾ [النساء: ٨٦].

- والأحسن من العظة:

قال الله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ... ﴾ [النحل: ١٢٥].

- والأحسن من الجدال:

قال الله تعالى: ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ.. ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

- والأحسن من العمل:

﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ... ﴾ [القصص: ٧٧].

وقال : ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة:١٩٥].

وقال : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ [النساء:١٢٥].

فأحسن العمل وأحسن الدين -والدين عقيدة وعمل- هو إسلام الأمر كله لله تعالى، واتباع ملة إبراهيم وهى ملة التوحيد التى تلتقى عندها الأديان الثلاثة اليهودية والنصرانية والإسلام، وهو أبو الأنبياء موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

- والأحسن فى الاتّباع:

قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر:١٨].

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى ورد فيها معنى الجمال والتجّمل والإجمال فى صيغة الحسن والأحسن والحسنة، مما يؤكد أن هذه المعانى هى أساس التعامل بين الناس، من أجل أن تستقيم الحياة الإجتماعية بينهم فى إطار ما أوجب الله وما منع حتى يرضى عنهم لاتباعهم منهجه ونظامه.

- والخلاصة أن الحسن أو المستحسن من جهة البصر والبصيرة هو الذى يملأ نفس الإنسان إحساسًا بالجمال، وراحةً ورضًا فى النفس والعقل، وجاءت آيات الله الكريمة بمعنى هذا الجمال لتبثّ الجمال فى النفوس والعقول والجوارح لتكون الحياة الإنسانية أكثر جمالا، وأكثر متعة للإنسان.

ب- الجمال بمعنى الإتقان والإبداع فى الكون:

وذلك فى آيات قرآنية كثيرة يتجلى فيها إبداع الخالق وحسن تقديره لمخلوقاته وحسن خلقها وروعة ألوانها وأشكالها ومن ذلك:

- جمال الألوان:

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨].

فالألوان العديدة المختلفة ما بين أحمر وأبيض وأسود، هى من سمات الناس والدواب

والأنعام التى تضفى على الكون جمالا بتعدد ألوانها، بل إن بعض هذه الألوان تعين صاحبها على أداء وظيفته فى الحياة كما معروف فى لون الزهرة وجذبها للنحل وعونه على أداء وظيفته وهى إخراج العسل الذى فيه شفاء للناس، وخفة النحل وحركته وراء الأزهار تجعله يؤدى وظيفة أخرى هى تلقيح النبات، كما أن جمال المرأة يجذب إليها الرجل فيتزوجها، فيؤديا وظيفتهما فى النسل وفى استمرار الحياة إلى أن يشاء الله، وهكذا فى مخلوقات الله وألوانها وأشكالها حكم بالغة مع هذا الجمال والحسن.

– وجمال خلق الله تعالى للأرض والسماء وما بينهما:

قال الله تعالى: ﴿ **أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ⁽٦⁾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ⁽٧⁾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ⁽٨⁾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ⁽٩⁾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ⁽١٠⁾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ** ﴾ [ق:٦:١١].

وقال: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [الأنعام:٩٩].

فالجمال أو الحسن فى هذه الآيات الكريمة هو الصفة العامة لها، وهو جمال فاتن أخّاذ، يبلغ الحد الذى يملك على الإنسان –عندما يتدبر– حسّه ومشاعره وإعجابه بهذا الجمال.

إلى غير ذلك من الآيات التى تصف ما أبدع الله فى الكون من أنواع الجمال والحسن والتنسيق والتناسب، مما يؤكد لنا أن الكون وما فيه من مخلوقات يعبر عن قدرة الله تعالى وجمال خلقه تعبيراً صامتًا عميقًا، على حين تعبر آيات القرآن الكريم عن قدرة الله تعالى تعبيراً ناطقًا يتلى ويسمع.

إن كل ما فى مخلوقات الله تعالى فى السماء والأرض توحى بعناصر الجمال والحسن والكمال والتنسيق والانسجام، والتهيؤ لأداء الوظائف.

وإن المتدبر لآيات القرآن الكريم ليجد صوراً لا تكاد تحصى من الجمال والحسن والجلال والكمال، وكلما تلا وتدبّر امتلأت نفسه ومشاعره بالإحساس بالجمال وما يعقب هذا الإحساس من راحة ورضًا.

جـ- الجمال بمعنى النظافة والطهارة:

ولا شك أن النظافة جمال وأن الطهارة جمال، وأن مخلوقات الله تعالى تكون أجمل وأحسن ما تكون إذا كانت نظيفة طاهرة.

وهذه النظافة والطهارة نوعان:

مادية تشمل الثوب والبدن والمكان.

ومعنوية تشمل الروح والقلب والعقل والأخلاق.

وفي كل نوع منهما جاءت آيات قرآنية عديدة منها:

- قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ [المدثر: ١-٥].

- وقوله: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ [الحج: ٢٩].

- وقوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون: ١-٧].

- وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة: ٦].

- وقوله: ﴿ ..لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة: ١٠٨].

- وقوله: ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [البقرة: ١٢٥].

وهذه الآيات الكريمة فى الطهارة المادية أو النظافة والجمال والحسن والنقاء الذى يبدو للمشاهد.

● أما ما جاء فى الطهارة المعنوية طهارة الروح والقلب والنفس والعقل والخلق فكثيرة جداً نذكر منها:

- قوله تعالى: ﴿ ... وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ... ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

- وقوله: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

- وقوله: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٣].

فالطهارة بنوعيها المادية، طهارة الثوب والبدن والمكان، والمعنوية طهارة الروح والقلب والعقل والخلق والسلوك من أهم الصفات التى يجب أن يتحلى بها الناس فى حياتهم الدنيا، وفى هذا التحلى بالطهارة ما يمكن الناس من أن يسود بينهم الحق والخير والجمال، وما يترتب على ذلك من رفق وحسن خلق، وتعامل بين الناس بهذه الأخلاق الجميلة العظيمة، كما وصفها الله تعالى وهو يثنى على أخلاق خاتم رسله محمد ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

د- والجمال بمعنى إيثار الخير والصلاح فى القول والعمل:

وإيثار الخير على الشر جمال وحسن وبهاء، سواء فى ذلك من آثر الخير فى كلمة يقولها أو من آثره فى عمل يعمله، فكل ذلك حسن، وكل ذلك جميل، يضفى على حياة الإنسان جمالا وحسنا ومودة وتعاونا على البر والتقوى.

- والآيات القرآنية فى إيثار الخير كثيرة؛ منها:

قوله تعالى: ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥].

فإيثار الخير فى الآية الكريمة هو دفع السيئة بالحسنة ونتيجة ذلك هى غرس الوئام والمحبة بين الناس على الرغم مما كان قبل ذلك من عداوة.

وقوله: ﴿ ...وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ١١٠].

وقوله: ﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٧١].

– والآيات الكريمة فى إيثار العمل الصالح كثيرة أيضا؛ منها:

قوله تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ③ ﴾ [العصر: ١-٣].

وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ⑩ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الصف: ١٠].

وقوله: ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤٠].

وقوله: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١].

وقوله: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ⑧ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الممتحنة: ٨-٩].

● فعمل الخير عموما، وإيثاره وإيثار العمل الصالح فى الحياة ومع كل الناس أسلوب ناجح فى بث الخير ونشره فى الناس، وإشاعة وذيوع للعمل الصالح فى الناس، وذلك فى صالحهم جميعا.

والناس كل الناس ينبغى أن يُمارَس معهم العمل الصالح، حتى غير المؤمنين منهم، لأن الله لم ينهنا عن برِّهم والإقساط إليهم إلا إذا قاتلونا وأخرجونا من ديارنا أو حاولوا ذلك.

هـ - والجمال بمعنى تقوى الله عز وجل:

وتقوى الله بكل معنى من معانيها عمل جميل بل ليس أجمل منه عمل، لذلك طالب الله تعالى رسوله بالتقوى، وطالب المؤمنين بالتقوى، وإنما كانت التقوى أجمل ما يمارسه الإنسان لأنها جَعْلُ النفس في وقاية مما يخاف، أو حفظها عما يوقعها فى الإثم، وإنما يكون ذلك بفعل ما أمر الله به، وترك ما نهى عنه، وذلك أحسن موقف وأجمله وأفضله للإنسان.

- وقد طالب الله تعالى نبيه ﷺ بالتقوى فى آية كريمة:

هى قول الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ١].

والمعنى: يأيها النبى استمر على ما أنت عليه من تقوى الله ولا تطع الكافرين والمنافقين فيما عرضوا عليك من آراء.

- كما طالب الله تعالى المؤمنين بتقواه فى آيات كثيرة بلغت عشر آيات، منها:

قوله تعالى: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ [الزمر: ١٠].

وقوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

وقوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [المائدة: ٣٥].

ففى هذه الآيات وأمثالها يطالب الله تعالى عباده المؤمنين بتقواه.

- كما طالب الله تعالى الناس جميعا بتقواه فى آيات كريمة منها: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** ﴾ [النساء: ١].

وقوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن**

وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [لقمان: ٣٣].

و- الجمال بمعنى السلوك الذى يشتمل على الإغضاء والرفق والصدقة:

الإغضاء عن هفوات الآخرين وعثراتهم وزلاتهم، والرفق بالناس والحيوان والأشياء، والصدقة المندوب إليها، كل ذلك من جمال السلوك الإنسانى ومن محاسن الأخلاق ومن البرّ بما يحيط بالإنسان، وقد جاء ذلك فى آيات قرآنية عديدة:

- فقد طالب الله عباده بالإغضاء والعفو فى آيات كثيرة منها:

قوله الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

وقوله: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وقوله: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقوله: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

- وطالب عباده بالرفق والرحمة فى آيات عديدة منها:

قوله تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ... ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقوله: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ [البلد: ١٧-١٨].

وقوله: ﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٦-١٠٧].

- وطالب عباده بالصدقة والبر فى آيات قرآنية كثيرة منها:

قوله تبارك وتعالى: ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ

باللّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ... ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقوله: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ [البلد: ١٢-١٦].

وقوله: ﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٧١].

وقمة الوئام الاجتماعى، وعلامة نجاح التكافل الاجتماعى بين الناس أن يتعامل الناس بالإغضاء والعفو، والرفق والرحمة، والبرّ والصَّدقة، وكل هذه الفضائل جميلة للفرد وللمجتمع، وهى بكل تأكيد من معانى الجمال.

ز- الجمال بمعنى التعاون على البرّ:

كل تعاون بين الناس علي البر والخير وكل ما ينفع الناس فى الدين والدنيا، وكل ما يدفع عنهم الضرر والشر فى الدين والدنيا، كل تعاون علي ذلك كله جمال وحُسْن يتحلى به الناس فتصبح حياتهم أجمل وأحسن وأجلب للخير وأبعد عن الشر.

وقد جاء فى ذلك آيات قرآنية عديدة تفوق الحصر فى كتابنا هذا، لأنه ليس من المبالغة القول بأن كل استجابة لما أمر القرآن به، وكل امتناع عن كل ما نهى القرآن عنه هو جلب للخير للناس فى دينهم ودنياهم، ورفع للأذى عنهم فى الدين والدنيا كذلك.

ومن ذلك:

- ما جاء من الأمر بالتعاون على البر فى الآيات الكريمة التالية:

قال الله تعالى: ﴿ ...وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [المائدة: ٢].

وقال: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ

وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢-٧٣].

– وما جاء من الحث على التعاون والتشجيع عليه ووضع ضوابط له، ومن ذلك ما جاء فى قوله الله تعالى:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١-٢٦٣].

وقوله: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

● ولو تعاون الناس على البر والخير، وتقوى الله لتكافلوا وحمل بعضهم بعضا فى الشدة والضيق، ولدفعوا عن أنفسهم شر الحاجة والعَوَز، ولكان فى أموال الأغنياء منهم حق للسائل والمحروم ولكل صاحب حق، والحياة الإنسانية فى أكمل صورها لا تكون أجمل من ذلك، فالتعاون على البر والتقوى إذن من معانى جمال الحياة والأحياء.

ح- وجاء الجمال بمعنى الإصلاح بين الناس:

الإصلاح بين المتخاصمين، أو بين الناس عموما فيما قد يجر إلي الخصام والتنازع مطلب ديني دلت عليه آيات قرآنية كثيرة لما له من أثر في وقاية الناس – أفرادا ومجتمعا – من شرور الخصومة والتنازع.

– وقد جاء فى دعوة الناس إلى الإصلاح بين الناس عموما وبين المؤمنين خصوصا آيات قرآنية كريمة، منها:

قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠].

ولا شك أن من الإصلاح بين الناس إذابة التنازع بينهم والقضاء على الخلاف وإزالة أسبابه، وفى كل ذلك جاءت آيات قرآنية كريمة؛ منها:

قوله تعالي: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء: ٥٩-٦١] والآية الكريمة تؤكد أن حل كل تنازع إنما يكون بعرض موضوع هذا التنازع على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لأنهما يقضيان في الموضوع المتنازع عليه القضاء العادل الذى يضمن لكل ذى حق حقه، ولا يجوز عرض موضوع التنازع بين المسلمين على غير الكتاب والسنة واجتهادات علماء المسلمين، لأن كل ما عداهما فى الحكم على التنازع طواغيت أمر الله تعالى عباده ألا يتحاكموا إليها.

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨].

وقوله: ﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٤].

والمعنى أن كل ما يتحدث الناس به من أحاديث يخفونها أو يجهرون بها، فلا خير فيه إلا فى أمور ثلاثة:

- أن يكون الحديث فى التواصى بالصدقة.
- أو يكون الحديث فى التواصى بأمر بالمعروف أو نهى عن المنكر.
- أو يكون الحديث فى التواصى بالإصلاح بين الناس.

وقوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات: ١٠].

فالإصلاح بين الناس وإزالة أسباب الجفوة والخصام فيما بينهم والحكم في أي تنازع بالعدل الذي أقره الله تعالى وجاءت به سنة رسوله ﷺ، لا شك في أن ذلك عمل جميل لما يدفع من شر ولما يجذب من خير، ولذلك جاز لنا أن نقول: إن الإصلاح بين الناس معنى من معاني الجمال.

ط- وجاء الجمال بمعنى العفو والتسامح والإعراض عن الجهل والجاهلين:

العفو عن المسيء والتسامح معه، مع القدرة على عقابه من أنبل الأخلاق وأجملها، والإعراض عن الجهل والحمق والسَّفه حينما يبدر ذلك عن أحد هو أجمل وأحسن ما يصدر عن الإنسان من سلوك.

- وقد جاءت آيات قرآنية كريمة تدعو إلى العفو والتسامح والمغفرة منها:

قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٦-١٢٨].

فالجائز عقاب من اعتدى بمثل ما فعل لا أكثر، والأجمل الصبر والعفو عنه، فهو خير للإنسان في دينه ودنياه، لأن الله تعالى يجزي على الصبر جزاء وفيراً بل بغير حساب من كثرة الوفرة.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

والمعنى: أن للزوجة قبل الدخول بها نصف المهر إلا إن عَفَتْ فتركت أو عفا الزوج فأعطاها المهر كله، وتلك سماحة وعفو يجب أن يتحلى بها كل مسلم، وأن ذلك من الفضل الذي أمر الله بعدم نسيانه بين المسلمين، وكل ذلك أجلب للمودة والخير، وهو أجمل ما يمكن أن يفعله الإنسان الذي يرجو رحمة ربه.

وقوله: ﴿ إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٩].

وقوله: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٠-٤٣].

وقوله: ﴿ وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢].

وقوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٤].

فهذه الآيات الكريمة التي ذكرنا في العفو والصفح والمغفرة، ولا شك أن هذه الأخلاق فى المؤمنين تكفل لهم التسامح فيما بينهم، ولا شك كذلك فى أن التسامح يولد عند الناس حبا ومودة وائتلافاً، وبهذه الأخلاق وأمثالها إنما يقوم المجتمع الراشد المليء بالمحبة والتعاون على البر والتقوى، وما أجمل هذه الأخلاق فى المسلمين إذ هى التى أمر الله تعالى بالتحلى بها فى التعامل مع الناس.

فهل هناك أجمل من العفو والتسامح والمغفرة ليعيش الناس حياة آمنة مطمئنة ملؤها الحب والحنان.

- وجاءت آيات قرآنية كريمة تدعو إلى الإعراض عن الجهل والجاهلين، وتجاوز تُرّهاتهم وما يفعلون، ومن ذلك:

قول الله تبارك وتعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٩٩-٢٠٠].

وقوله: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقوله: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَىٰ (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾ [النجم: ٢٧-٣٠].

وقوله: ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ [النساء: ٨٠-٨١].

فالإعراض عن الجاهلين وعن المنافقين والمشركين ومن إليهم خلق من أخلاق الإسلام أصيل دلَّتْ عليه هذه الآيات الكريمة، وهو من أجمل الأخلاق لما يمنع من الشر الذى يقع بين الناس لو لم يعملوا على الإعراض عن الشر وأهله، فمن الجمال إذن الإعراض عن الجاهلين.

ى - وجاء الجمال بمعنى القسط والعدل فى جميع الأحوال، ومع كل الناس القريب منهم والجنيب:

وذلك أن العدل هو التقسيط على السواء، وعلى هذا روى: «بالعدل قامت السموات والأرض» تنبيها على أنه لو كان ركنٌ من الأركان الأربعة في العالم زائدا على الآخر أو ناقصا عنه على مقتضى الحكمة لم يكن هذا العالم منتظما.

والعدل ضربان:

- مطلقٌ: يقتضى العقل حسنه ولا يكون فى شيء من الأزمنة منسوخا ولا يوصف بالاعتداء بوجه من الوجوه، مثل: الإحسان إلى من أحسن إليك، وكف الأذى عمن كفَّ أذاه عنك.

- وعدل يعرف بالشرع: يمكن أن يكون منسوخا فى بعض الأزمنة كالقصاص وأروش الجنايات.

فالعدل بمعنييه العقلى والشرعى هو فضيلة أخلاقية أمر الله تعالى بالتحلي بها لما يترتب عليها من إحقاق كل ما هو حق وإبطال كل ما هو باطل، لذلك كان العدل من أجمل الصفات التى يوصف بها الإنسان.

– وقد جاءت آيات من القرآن الكريم فى العدل عموما ومنها:

قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ [النحل: ٩٠].

وقوله: ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩].

وقوله: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٨–٢٩].

– وجاء العدل واجبا يُتَّبع مع كل الناس مؤمنهم وكافرهم، قريبهم، وجنبيهم الذى نكرهه، إذ لا يمنع الكفر أو الكراهية من تعطيل العدل مع من يخالفنا فى الدين أونكرهه، وذلك فى قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة:٨].

والعدل قد طالب الله به مع الأقارب بمعنى عدم محاباتهم فى الحق لقرابتهم، ومن ذلك:

قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

- **فالعدل أساس ركين تقوم عليه الحياة الإنسانية فى كل شعبها، وحسب العدل جمالا أنه يُوصل الحق إلى صاحبه، ويمنع الظالم من ممارسة أى ظلم، وأجمل ما فيه أن الله تعالى سمى نفسه «العدل».**

ك– وجاء الجمال بمعنى الوفاء بكل أنواعه، الوفاء بالعهد والوعد واليمين والعقد، والكيل والوزن:

المجتمع الذى يسوده الوفاء مجتمع سعيد آمن مطمئن إلى حاضره ومستقبله، يعيش الناس فيه فى سلام وامان، لا يضيع لأحدهم حق، ولا يظلم احد فيه مظلمة تنقص من حقه

أو تعطيه أكثر من حقه، وهو بذلك مجتمع فاضل رشيد، وليس أقوى فى الدلالة على جماله من توفر الوفاء فيه، الوفاء بكل أنواعه التى أشرنا إليها.

● وقد جاء فى القرآن أنواع ثلاثة من الآيات التى تتصل بالوفاء بالعهد والوعد، واليمين والعقد والكيل والوزن.

* نوع يأمر بهذا الوفاء.

* ونوع يثنى على المتصفين بصفة الوفاء.

* ونوع ينهى عن التخلى عن الوفاء فيتوعد من ينقضه.

– ففى مجال الأمر بالوفاء جاءت آيات كريمة كثيرة منها:

قول الله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل: ٩١].

وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [المائدة: ١]

وقوله: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٤-٣٥].

وقوله: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

– وفى مجال الثناء على أهل الوفاء جاءت آيات كثيرة منها:

قوله الله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ٧٦].

وقوله: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ١٠].

وقوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

– وفى مجال النهى عن نقض العهد وعقاب الناقضين له جاءت آيات كثيرة منها:

قول الله تعالى: ﴿ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل: ٩١].

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٥].

وقوله: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧].

● فالوفاء بالعهد والوعد والعقد والكيل والوزن ركن أساسى فى أخلاق المؤمن وشخصيته، ومن خلال أمر الله تعالى بالوفاء وثنائه على الموفين بعهودهم ونهيه عن التخلى عن الوفاء وإيعاد ناقضى العهد باللعنة وسوء الدار، ندرك أن الوفاء بالعهد بأنواعه كلها عمل جميل يزرع فى نفوس الناس الإحساس بالأمان، والاطمئنان، ومن هنا كان جماله.

ل- وجاء الجمال بمعنى الإحسان، الإحسان بكل معانيه، ومعانى الإحسان كثيرة:

- منها الإحسان بمعنى الإنعام على الغير.
- والإحسان بمعنى الإنفاق فى سبيل الله.
- والإحسان بمعنى الإجادة والإتقان فى العمل.
- والإحسان بمعنى المرتبة التى فوق العدل.

وكل هذه المعانى تصبغ حياة الإنسان بصبغة جميلة، وتوثق الروابط الإنسانية بين الناس، ولهذا كان الإحسان جميلا، وكان الإحسان نوعا من أنواع الجمال.

وفى كل معنى من هذه المعانى جاءت آيات قرآنية كريمة.

- فمما جاء فى الإحسان بمعنى الإنعام على الغير آيات كريمة منها:

قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

وقوله: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠].

وقوله: ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ٩٣].

– ومما جاء في الإحسان بمعنى الإنفاق في سبيل الله آيات كريمة منها:

قول الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٠-١٢١].

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وقوله: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد: ١٠-١١].

– ومما جاء في الإحسان بمعنى الإجادة والإتقان، آيات كريمة منها:

قوله الله تعالى: ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥].

وقوله: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾ [النساء: ٨٦].

وقوله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ.... ﴾ [النساء: ١٢٥].

وقوله: ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥].

أى: أنفقوا فى القتال فى سبيل الله لدفع الأعداء عنكم لأنكم إذا لم تفعلوا ذلك وتقاعدتم ركبكم أعداؤكم وأذلوكم، فكأنما ألقيتم بأنفسكم إلى الهلاك فافعلوا ما يجب عليكم بإحسان وإتقان، فإن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه.

– ومما جاء فى الإحسان بمعنى أنه مرتبة فوق العدل آيات كثيرة منها:

قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

وقوله عز وجل: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا ﴾ [النساء: ٣٦].

وقوله: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِى إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٥].

● فالإحسان فى هذه الآيات الكريمة الثلاث درجة فوق العدل لأن العدل – كما هو مقرر بين العلماء – هو أن يعطى الإنسان ما عليه ويأخذ ماله دون زيادة أو نقصان، والإحسان هو أن يعطى الإنسان أكثر مما عليه، وأن يأخذ أقل مما له، فالإحسان إذن درجة أعلى من العدل.

● وقد قرر علماء المسلمين أن تَحَرِّى العدل واجب شرعى وتحرِّى الإحسان ندب وتطوع.

وهذا المعنى من الإحسان الذى هو فوق العدل لو شاع وانتشر بين الناس لكانت حياتهم أجمل وأنبل وأكرم، وما بالك بحياة يأخذ فيها الإنسان – برضاه – أقل مما له، ويعطى – برضاه – أكثر مما عليه!

إنها الحياة الإنسانية الجميلة التى يحرص الإسلام على أن يرسى قواعدها الأخلاقية فى الناس، ليعيش الناس فى سلام ووئام، بعيدا عن التنافر والتخاصم والتشاحن الذى تولده رغبة الإنسان فى أن يأخذ أكثر مما هو له، وأن يعطى أقل مما عليه!!

وبعد :

فقد عرَّفنا الجمال بلفظه وببعض مشتقاته وما جاء بمعناه فى القرآن مع إيجاز يلائم قولنا : «إن الجمال فى الإسلام قد تحدثت عنه بعض آيات القرآن الكريم» .

● وإذا كانت هذه جملة ما ورد فى القرآن الكريم من لفظ الجمال وبعض المشتقات منه وهى قليلة - كما ذكرنا - .

● وإذا كان ما ورد فى القرآن من الجمال بمعناه قد أحصينا منه اثنا عشر موضعا واستشهدنا فى كل موضع بعدد من الآيات الكريمة بلغت فى مجموعها أكثر من سبعين آية كريمة .

● إذا كنا قد فعلنا ذلك، فإن الذى صرفنا عن استقصاء الآيات الكريمة التى ورد فيها الجمال بمعناه هو : أن القرآن الكريم كله قد اشتمل على معان كلها جميل يعبر عن جمالٍ، ما دمنا قد اتفقنا على أن الجمال هو الحسْن، والخير والنفع فى الدنيا والآخرة .

● وليس فى كتاب الله تعالى من آية إلا تحمل للناس فى كل زمان ومكان معنًى من معانى الجمال، من أجل أن تكون الحياة الإنسانية جميلة، ومن أجل أن يصبغ الجمال بصبغته الآخاذة كل مفردات الإنسانية .

وعلى سبيل المثال :

- فإن الآيات التى قررت توحيد الله تعالى إلها وربًّا وخالقا ورازقا تحمل إلى الإنسانية كلها فى جميع عصورها جمال العقيدة التى تقوم على هذا التوحيد، وتنفى عنها قبح الشرك بعبادة من لا يستحق العبادة، أو التخلى عن العبادة التى هى من حاجات الإنسانية وضرورياته التى تحقق له الصحة النفسية والعقلية والاجتماعية .

- وإن الآيات الكريمة التى تتحدث عن عبادة الله بالذكر والقول والصمت والعمل والترك؛ تحمل للإنسانية جمال التوجه إلى المعبود الحق بكل عبادة، وتنفى عن الإنسانية قبح ضلالها وتخبطها فى ظلام عبادة غير الله تعالى .

- وإن الآيات التى حملت إلى الإنسانية القيم الأخلاقية الفاضلة؛ حملت إلى الناس جمال السلوك الإنسانى القويم، الذى يقوم على احترام الإنسان بحسن التعامل معه، وتباعد بينه وبين قبح مساوئ الأخلاق وما تجر على الإنسانية من فساد .

- وإن الآيات التى حملت إلى الناس قصص الأنبياء والمرسلين وقصص الأولين الذين آمنوا بالله ورسله، أو كفروا بالله ورسله وكذبوا الرسل الكرام، تحمل إلى الناس جمال العبرة وجمال أخذ الأسوة من الرسل والأنبياء عليهم السلام، وتضع أيديهم وعقولهم على مصائر المؤمنين والكافرين المعاندين، وتباعد بينهم وبين قبح الغفلة عن أخذ العظة والاستفادة من العبرة.

- وإن الآيات الكريمة التى حملت إلى الناس ما أمر الله به وما نهى عنه - والله تعالى لا يأمر إلا بما هو خير ولا ينهى إلا عن كل ما هو شر - تحمل إلى الناس جمال طاعة الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وتخرج بالناس من قبح الوقوع فى المعاصى، وذل العاصى وانكسار العصاة.

- وإن الآيات التى تحمل للناس وعدا بثواب أو وعيدا بعقاب، لتحمل إليهم أجمل ما يُرَشِّد سلوك الإنسان ليحظى بوعد الله تعالى، ويحول بينه وبين قبح سلوكه الذى يؤدى إلى وعيد الله تعالى وعقابه.

- إن القرآن الكريم كله يحمل من معانى الجمال مالا حصر له ولا إحصاء إلا فى كُتُبٍ لا فى كتابٍ واحد.

ثانيا: الفن بمعناه فى القرآن الكريم

قلنا فيما سلف من هذا الفصل: إن «الفن» لم يرد بلفظ فى القرآن الكريم، ونوضح هنا أنه لم يرد كذلك بأى من مشتقات كلمة «الفن»، وإنما ورد بمعناه الذى سنوضحه فى الصفحات التالية بعون الله تعالى.

- غير أن كلمة الفن ليست غريبة على اللغة العربية لغة القرآن الكريم، إذْ قد حفلت اللغة العربية بعدة معانٍ أقربها إلى معنى الفن - فى عصرنا هذا - هو: التعبير الجمالى عن المدركات والعواطف، ونقل المعانى إلى الآخرين عن طريق إنتاج العمل الذى يتميز بالصنعة المتقنة والمهارة الفائقة التى تبذل لإنتاج عمل جميل؛ فالفن فى العربية يعنى نوعا من الصنعة المتقنة الجيدة التى تكسوها مسحة من جمال فى شكلها ونفعها، وقدرتها على التأثير فى شعور من يراها من الناس.

● ونظراً لارتباط الفن بالصنعة، وارتباط الصنعة بالحرفة أوثق ارتباط، سوف يكون حديثنا عن الصنعة والحرفة آملين أن نوضح كلا منهما كما وردا فى القرآن الكريم.

١ - الصنعة عمومًا فى القرآن الكريم:

وردت هذه الكلمة وبعض المشتقات منها فى القرآن الكريم فى تسع عشر آية كريمة.(١)

والصنعة والصُّنْع: إجادة الفِعل، ويقال للمجيد الحاذق: صَنَعٌ وللحاذقة المجيدة صَنَاع.

وتلك الآيات الكريمة التى أشرنا إليها تتحدث عن الصناعات المتعددة التى تلزم الإنسان فى حياته سلما وحربا.

وكل الصناعات عند التدبر فنون، بل فنون جميلة فى أحيان كثيرة عند استيفائها للنواحى الجمالية.

● والصناعة هى تحويل المواد الأولية إلى مصنوعات تشبع حاجات الناس فى حياتهم الدنيا، وبالضرورة وبحكم تفاوت الناس فى إجادة الصنعة، فلابد أن تتفاوت المصنوعات فى جمالها، لأن الصنعة فن والفن تعبير جمالى عن المدركات والعواطف وسائر المشاعر عن طريق العمل المتميز بالصنعة والمهارة.

● ومعنى ذلك أن الفن أو الفنون الجميلة وإن لم ترد فى القرآن الكريم بلفظها أو بما اشتق منها، فإنها وردت بمعناها الذى هو الصنعة والحرفة فى عدد من آيات القرآن الكريم.

● ولأن الصناعة قديمة فى تاريخ الإنسان لأنها لازمته فى مختلف أطوار حياته إذ لا يستطيع أن يعيش حياة هانئة مريحة إلا بمصنوعات تيسر له ممارسة الحياة وتحقيق حاجاته، فإن

---

(١) وردت كلمة «صنعة»: فى الآية: ٨٠ من سورة الأنبياء.
ووردت كلمة «صنع» فى الآية: ٨٨ من سورة النمل والآية: ١٠٤ من الكهف.
ووردت كلمة «مصانع» فى الآية: ١٢٩ من سورة الشعراء.
وردت كلمة «صنعوا» فى الآية: ١٦ من هود، والآية: ٣١ من الرعد، والآية: ٦٩ من طه مرتين.
ووردت كلمة «يصنع» فى الآية: ١٣٧ من الأعراف، والآية: ٣٨ من هود.
ووردت كلمة «يصنعون» فى الآية: ١٤ من المائدة، والآية: ٦٣ من المائدة والآية: ١١٢ من «النحل، والآية: ٣٠ من النور، والآية: ٨ من فاطر.
ووردت كلمة «اصنع» فى الآية: ٣٧ من هود، والآية: ٢٧ من المؤمنون.
ووردت كلمة «لتصنع» فى الآية: ٣٩ من طه، وكلمة اصطنعتك فى الآية: ٤١ من طه.

الفن بالمثل لازم الإنسان فى مختلف أطوار حياته، فالصنعة والفن صنوان، لأن الفن تعبير بالصنعة عن عواطف الإنسان ومدركاته واحتياجاته.

وقد وردت الصنعة وبعض المشتقات من لفظها فى القرآن الكريم فى مجالات عديدة من احتياج الإنسان، ومن ذلك:

أ- صناعة آلات الحرب وأدواتها وملابسها:

قال الله تعالى عن نبيه داود عليه السلام: **﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾** [الأنبياء: ٨٠].

قال المفسرون: أى اتخاذ الدروع بأن ألنَّا له الحديد، والملبوس عند العرب هو: السلاح كله، درعا كان أو جوشنا أو سيفا أو رمحا.

وكانت الدروع قبل داود عليه السلام صفائح، فأول من سَرَدَهَا وحَلَّقها داود عليه السلام، فجمعت الخِفة والتحصين.

ويُروَى أنه نزل من السماء ملكان، فمرَّا به عليه السلام فقال أحدهما للآخر: نعم الرجل داود إلا أنه يأكل من بيت المال، فسأل الله أن يرزقه من كسبه، فألان له الحديد، فصنع منه الدروع.

وذكر الحسن رحمه الله: أن لقمان الحكيم عليه السلام حضره وهو يعمل الدروع، فأراد أن يسأله عما يفعل، ثم سكت حتى فرغ منها ولبسها على نفسه، فقال لقمان: الصمت حكم وقليل فاعله.

- وقال القرطبى(١): هذه الآية **﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ.... ﴾** أصل فى تناول الأسباب وطلب المعاش بالتجارة والصناعة وغير ذلك.. وقد أخبر تعالى فى كتابه عن أصفيائه ورسله وأنبيائه بالأسباب والاحتراف فقال وقوله الحق: **﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ.... ﴾** وقال: **﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾** [الفرقان: ٢٠]. قال العلماء: أى يتجرون ويحترفون، وقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الإمام أحمد بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما: «**وجعل رزقى تحت ظل رمحى...**»

---

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ١٤ ط دار الكتب المصرية.

وقال القرطبى أيضا[1]: وقد أخبر تعالى عن نبيه داود عليه السلام انه كان يصنع الدروع، وكان أيضا يصنع الخوص وكان يأكل من عمل يده، وكان آدم عليه السلام حرَّاثا، ونوح نجارا، ولقمان خياطا، وطالوت دباغا، وقيل سقَّاءً.

فالصنعة يكف بها الإنسان نفسه عن الاحتياج إلى الناس، ويدفع بها عن نفسه الضرر والباس، وفى الحديث: **«إن الله يحب المؤمن المحترف الضعيف المتضعف ويبغض السائل الملحف»**[2].

وقوله سبحانه عن نبيه داود عليه السلام: **﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** [سبأ: ١١] أى دروعًا سابغات أى كوامل تامَّات واسعات، وقدِّر فى السرد، قال ابن عباس رضى الله عنه: التقدير الذى أُمِرَ به هو فى المسمار أى لا تجعل مسمار الدرع رقيقا فيقْلق ولا غليظا فيقصم الحَلَقَ.

ب- وصناعة الأدوات النفعية:

قال الله تعالى عن نبيه سليمان عليه السلام: **﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ..﴾** [سبأ: ١٣].

المحاريب: المساجد والأماكن المرتفعة، أو هى بناء دون القصور، والتماثيل: قال القرطبى: هى كل ما صور من صورة حيوان أو غير حيوان، وقيل: كانت تصنع من زجاج ونحاس ورخام.

وذُكِر أنها صور الأنبياء والصالحين والعلماء كانت تصور فى المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة واجتهاداً.

وروى أحمد بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن أم حبيبة وأم سلمة - رضى الله عنهما- ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير، فقال رسول الله ﷺ: **«إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا علي قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله عز وجل يوم القيامة»**.

---

(١) السابق: ١١/ ٣٢١.

(٢) لم أجد الحديث بهذا اللفظ وإنما ورد: «إن الله تعالى يحب العبد المؤمن المحترف» رواه الطبرانى بسنده عن ابن عمر.

قال القرطبى: وهذا يدل على أن التصوير كان مباحا، ثم نسخ بشرع محمد ﷺ.

والجفان: جمع جفنة، يكون فيها الطعام ويقعد الناس حولها.

والجوابى: جمع جابية وهى حفرة كالحوض، أو هى القدر العظيمة.

والقدور الراسيات: هى قدور النحاس، وقيل قدور تعمل من الجبال. والراسيات: الثوابت لا تُحمَل ولا تحرك لعظمها.

- وهذه الأشياء والأدوات التى ينتفع بها الإنسان تصنع ولابد أن تكون صناعتها جيدة وجميلة، أى هى فنٌ يعبر عن قدرة الإنسان على تحقيق حاجاته فى الحياة.

● ومن الأدوات النافعة للإنسان الحلىّ وما يتزيَّن به والتزين مشروع وهو مطلب إنسانى فطرى، ومن لم يتزين طالبه الدين بالتزين، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١].

والزينة فى هذه الآية الكريمة هى: اللباس النظيف الجميل الذى يتخذه الإنسان من الأصواف أو الأشعار أو الأوبار أو غيرها مما يصنع منه اللباس.

ومن الزينة الحُلِيُّ من الذهب والفضة واللؤلؤ وغيرها كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

أى: من المعادن التى يصهرونها بالنار ما يتخذون منها حلية كالذهب والفضة، ومنافع ينتفعون بها كالحديد والنحاس، ومنها مالا نفع فيه..

وكما يفهم من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢].

والحُلِىّ التى يستخرجها الإنسان من البحر ويُتزيَّن بها كثيرة؛ منها: اللؤلؤ والمرجان والياقوت - وهو من الرواسب النهرية - والماس - وهو من رواسب الأنهار الجافة - وحجر التوباز وغيرها من الأحجار الكريمة.

وكل تلك الأحجار تدخل فيها الصناعة لتجعلها صالحة للتزيُّن، وهذه الصناعات تُعد من أرقى أنواع الفن وأكثرها حاجة إلى الدقة والمهارة واللمسة الجمالية.

جـ- وصناعة السفن:

إذ الإنسان بحاجة إلى السفن ليعبر بها الأنهار وينتقل بها للصيد فى البحار، وهى صناعة لابد أن تكون مرتبطة بحياة الإنسان على الأرض منذ أقدم العصور، لأن الإنسان ما عرف الأرض إلا بها ماءٌ يجرى فى أنهارها وبحارها.

وقد أوحى الله تعالى إلى نوح عليه السلام أن يصنع سفينة كما جاء ذلك فى قوله تعالى: ﴿ **وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ** ﴾ [هود: ٣٧-٣٩].

والفلك: السفينة ويستعمل للواحد والجمع، وقد ورد لفظ الفلك في القرآن الكريم ثلاثا وعشرين مرة وكلها بمعنى السفينة، أما لفظ السفينة فقد ورد في القرآن الكريم أربع مرات.

ومن أول من صنع السفينة واستخدمها؟

هل هو نبى الله نوح عليه السلام؟ لما قيل من أن الملائكة علموه كيف يصنع السفينة، أم أنها استعملت من قبله عليه السلام؟ هذه الأسئلة والإجابات عنها ليست بذات أهمية تربوية ولكنها تعنى المشغولين بالتاريخ للعصور القديمة، وكل ما قيل فيها حتى الآن ليس له دليل أو برهان.

- والذى يعنينا هنا هو أن صناعة السفن صناعة دقيقة تدخل فى مجال الفنّ الذى يعبر عن حاجة الإنسان إلى أن يعبر الأنهار والبحار للصيد أو السفر والانتقال؛ فصناعة السفن فنٌّ بل فنٌّ جميل نافع يمكن الإنسان من التغلب على عبور الأنهار والبحار.

والفلك وصناعتها وجريها فى البحر بما ينفع الناس من نعم الله تعالى على خلقه ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** ﴾ [لقمان: ٣١] ﴿ ... **وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [فاطر: ١٢].

د- وصناعة السدود:

السَّدُّ: الحاجز بين الشيئين، أو الردم ،أو البناء فى مجرى الماء لحجزه، وصناعة السدود قديمة فى الناس، لجأ الناس إليها لاتقاء الأخطار من الناس والمياه وغيرهما.

فالسدود من حاجات الإنسان التى تقيه المخاطر، وقد طلب الناس من ذى القرنين أن يصنع لهم سداً يقيهم خطر يأجوج ومأجوج كما حكى القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى: **﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾** [الكهف: ٩٣-٩٧].

ويأجوج ومأجوج أمة ورد ذكرهم فى السنة النبوية أيضا، فقد روى أبو داود بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السَّدَّ كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذى عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدا فيعيده الله أشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم، وأراد الله أن يبعثهم على الناس حضروا، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدا إن شاء الله، واستثنوا، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس، فينشّفون الماء، ويتحصن الناس منهم فى حصونهم، فيرمون سهامهم إلى السماء، فترجع وعليها كهيئة الدم الذى اجْفَظَّ(١)، فيقولون: قهرنا أهل الأرض، وعلونا أهل السماء، فيبعث الله عليهم نغفاً(٢) فى أقفائهم فيقتلهم بها، والذى نفسى بيده إن دواب الأرض لتسمن، وتَشْكَر شَكَرًا(٣) من لحومهم ودمائهم».**

ورواه أحمد والحاكم فى مستدركه.

وقد أوضحت الآيات الكريمة كيفية صُنع السد وهى:

- القوة أى العمل البدنى.

---

(١) اجفَظَّ: امتلأ وانتفخ.

(٢) دود قد يوجد فى أنوف الإبل والغنم.

(٣) تَشْكَر: تمتلئ.

– وقِطَع الحديد وصهرها، وصبها بين الجبلين.

– وذوب النحاس يصب على الحديد.

فلما أقام السد وعجز يأجوج ومأجوج عن الظهور عليه كما عجزوا عن هدمه، كان ذلك من رحمة الله بمن طلبوا إقامة السد.

وهكذا نجد أن صناعة السدود عمل فنى بالغ الدقة، وعظيم النفع فى دفع الأخطار عن الناس.

هـ– وصناعة الكتابة والخط:

صناعة الخط والكتابة حرفة يتعلمها الناس، وهى فى الوقت نفسه علم وفنّ، كما أنها من حاجات الناس وضروراتهم، إذ بها تبرم العقود والعهود والمواثيق، وتسجل الديون والحقوق، وقد أمر الله المتداينين أن يكتبوا ديونهم ويشهدوا عليها حفاظا على حقوق الناس.

● وقد امتنَّ الله على رسوله ﷺ وعلى المسلمين بأن علمهم الخط والكتابة بالقلم، فقال تعالى: ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ٣– ٥].

– ومن فضل الكتابة والقراءة وشرفهما وأهميتهما فى حياة الإنسان كانت أول آية نزلت من القرآن الكريم الكتاب الخاتم للكتب على الرسول الخاتم للرسل عليهم الصلاة والسلام هى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق: ١].

قال ابن كثير: «والعلم تارة يكون فى الأذهان – أى ذهنى – وتارة يكون فى اللسان – أى لفظى، وتارة يكون فى الكتابة – أى الرسم.

و«علَّم بالقلم» أى علَّم الخط والكتابة، أى علم الإنسان الخط بالقلم، وروى سعيد عن قتادة قال: القلم نعمة من الله تعالى عظيمة، لولاها لم يقم ولم يصلح عيش.

وقال القرطبى: «قد دَلَّ على كمال كرمه سبحانه بأنه علَّم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونَبَّه على فضل علم الكتابة، لما فيه من المنافع العظيمة التى لا يحيط بها إلا هو.

وما دُوِّنتْ العلوم، ولا قُيِّدت الحكم، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولاها ما استقامت أمور الدين والدنيا»(١).

وقال العلماء: الأقلام فى الأصل ثلاثة:

القلم الأول: الذى خلقه الله بيده وأمره أن يكتب فكتب ما يكون إلى يوم القيامة.

والقلم الثانى: أقلام الملائكة جعلها الله بأيديهم يكتبون بها المقادير والكوائن والأعمال.

والقلم الثالث: أقلام الناس جعلها بأيديهم يكتبون بها كلامهم، ويصلون بها مآربهم»(٢).

فالخط والكتابة صنعة وفن برع فيه المسلمون فى مختلف عصورهم وأتوا فيه وفى تنوعاته بما يبهر ويدل على قدرات فنية عالية المستوى، شهد بها العالم كله.

و- وصناعة السِّحْر والأصنام:

صناعة السحر فنٌّ يتعلم له قواعد وأصول.

قال الراغب الأصفهاني:

السحر يقال على معانٍ:

الأول: الخداع وتخييلاتٌ لاحقيقة لها، نحو ما يفعله المُشعْبِذ بصرف الأبصار عما يفعله لخفة يد، وما يفعله النَّمَّام بقول مزخرف عائق للاسماع، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿**سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ**﴾ [الأعراف: ١١٦].

والثانى: استجلاب معاونة الشيطان بضرب من التقرُّب إليه، كقوله تعالى: ﴿**تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ**﴾ [الشعراء: ٢٢٢] والأفاك هنا: الساحر، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿... **وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ**...﴾ [البقرة: ١٠٢].

والثالث: ما يذهب إليه الأغتام(٣) وهو اسم لفعل يزعمون أنه من قوته يغير الصور والطبائع، فيجعل الإنسان حمارا، ولا حقيقة لذلك عند المحصِّلين.

---

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ١٢٠ مرجع سابق.
(٢) السابق: ٢٠/ ١٢١.
(٣) جمع: غتم أى لم يفصح فى كلامه.

وبكل معنى من معانى السحر فهو صنعة تتعلم وفنٌ يحترفه بعض الناس، وقد عدَّ رسول الله ﷺ السحر من السبع الموبقات.

فقد روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»**.

– وصناعة الأصنام والأوثان:

والصنم: جثَّة متخذة من فضة أو نحاس أو خشب كانوا يعبدونها متقربين بها إلى الله تعالى.

وقال بعض الحكماء: كل ما عبد من دون الله، بل كل ما يشغل عن الله تعالى يقال له: صنم(1).

والوثن: واحد الأوثان وهو حجارة كانت تعبد، قال الله تعالى: **﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** [العنكبوت: ٢٥]. وقال تعالى: **﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا...﴾** [العنكبوت: ١٧].

والأصنام والأوثان كانت تصنع بمهارة عالية، تجعل صنعها فنًّا من الفنون الجميلة عند عابديها.

● والخلاصة أن كلمة الفن وإن لم ترد فى القرآن بلفظها إلا أنها وردت بمعنى الصنعة المتقنة التى يبذل الإنسان فى صناعتها جهده، ويخرجها على مستوى فنى رفيع، يستجيب من خلاله إلى مطالب حياته العقلية والعاطفية والاجتماعية والجمالية.

٢– الحِرْفة عموما فى القرآن الكريم:

حديثنا عن الحرفة اليدوية – قبل أن يحدث التطور الصناعى الهائل الذى أحَلَّ الآلة محل عمل اليد.

فالحرفة هنا هى الأعمال التى يزاولها الصناع مستخدمين فى ذلك مهاراتهم اليدوية.

– والحرفة إحدى وسائل الكسب من زراعة أو صناعة أو تجارة أو غير ذلك.

---

(1) جمع الصنم أصنام قال الله تعالى: ﴿... أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ [الأنعام: ٧٤] وقال: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١].

والحِرْفِيّ: الإنسان الذى يكسب عيشه بالعمل فى حرفة بصفة مستمرة منتظمة.

وحَرَف لعياله بحرَف أى كسب لهم من ههنا وههنا.

– والحرفة: الطعمة والصنعة التي يُرْتزق منها، وهي جهة الكسب ومن ذلك المعنى ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: «إنى لأرى الرجل فيعجبنى فأقول: هل له حرفة؟ فإن قالوا: لا سقط من عينى».

– وكل ما اشتغل الإنسان به يسمى صنعة وحرفة، ويقولون: صَنْعة فلان أن يعمل كذا، وحِرْفة فلان أن يفعل كذا.

ونحاول فى هذه الصفحات أن نتحدث عن حِرَف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وعن حرفة خاتمهم عليه الصلاة والسلام، ثم نختم بكلمة عن وجوب احتراف العبد المؤمن، والله ولى التوفيق.

أ– حِرَف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:

الأنبياء عليهم السلام هم خيرة خلق الله من الناس الذين اصطفاهم الله تعالى وفضلهم على كثير من عباده، وشرفهم بأن أوحى إليهم من شرعه، وكلف عددا منهم بالتبليغ عنه سبحانه لمنهجه ونظامه، وجعلهم حجة على عباده، بل سببا لنعمه على خلقه، وطريقا واضحة المعالم نحوه سبحانه وتعالى.

وخصهم سبحانه وتعالى بالصدق والأمانة والذكاء والفطنة وأمر بعضهم بتبليغ عباده ما أوحى إليهم، يتضح ذلك من قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [آل عمران: ٣٣–٣٤].

وقوله تعالى: ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا** ﴾ [مريم: ٥٨].

- ومن رحمة الله بعباده أن أرسل إليهم الرسل لهدايتهم فى الدنيا إلى منهج الله ونظامه، وفى الآخرة بنيل رضا الله عنهم لأنهم أطاعوا رسله.

- وهؤلاء الأنبياء عليهم السلام كانوا أهل حرف وصناعات وكانوا يأكلون معظمهم من عمل أيديهم، ليكونوا قدوة للناس فلا يقعدون عن العمل، أو يأنفون من مزاولة الحرف والصناعات.

– وقال العلماء من الأسلاف(١): أن آدم عليه السلام كان حرّاثا أى يحرث الأرض ويزرعها ليأكل من ثمار هذا الزرع، وهو قول وإن لم ينسب لعالم بعينه، فإنه منطقى وضرورى بعد أن أهبط آدم عليه السلام إلى الأرض، حتى يجد ما يأكله هو وزوجته وما رزقه الله من أبناء.

– وقال بعض العلماء: إن الله تعالى أرسل إلى آدم وحواء عليهما السلام – بعد أن أهبطا إلى الأرض – ملكًا يعلمهما ما يلبسانه من جلود الضأن والأنعام.

– وذكروا أن حواء – رحمها الله – قد غزلت ونسجت، وعجنت وخبزت، وعملت أعمال النساء كلها، وهى جميعا حرَف يحترفها الناس فى مختلف العصور والأزمان.

هذا عن أبينا آدم عليه السلام، وهو يتماشى مع سنة الله تعالى فى خلقه إذ يأمرهم باتخاذ الأسباب ليعيشوا ويعبدوه سبحانه والحرف والصنائع من الأسباب.

● ونبى الله نوح – أقرب الأنبياء الرسل إلى آدم عليه السلام فى الزمن – كان نوح عليه السلام نجارا عمل بصناعة السفن بوحى الله ورعاية منه.

قال الله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٧–٣٨].

وقال جل شأنه: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا...﴾ [المؤمنون: ٢٧].

قال القاضى أبو بكر بن العربى: لما استنقذ الله سبحانه وتعالى من فى الأصلاب والأرحام من المؤمنين أوحى الله إليه: أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فاصنع الفلك، قال: يارب ما أنا بنجار، قال: بلى، فإن ذلك بعينى، فأخذ القدوم فجعله بيده، وجعلت يده لا تخطئ فجعلوا يمرون به ويقولون: هذا الذى يزعم أنه نبى صار نجارا، فعملها فى أربعين سنة..

وذكر الحافظ ابن عساكر فى تاريخه عن الحسن أن نوحا عليه السلام أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، وكان قد كثرت فيهم المعاصى وكثرت الجبابرة وعتوا عتوا كبيرا، وكان نوح يدعوهم ليلا ونهارا، وسرًّا وعلانية، وكان صبورا حليما، ولم يلق أحد من الأنبياء أشد مما

---

(١) جاء فى كثير من كتب تفسير القرآن الكريم، ونسب إلى العلماء دون تحديد من هم؟

لقى نوح عليه السلام .. «اصنع الفلك بأعيننا ووحينا» قال: يارب وأين الخشب؟ قال: اغرس الشجر، قال: فغرس الساج عشرين سنة وكفَّ عن الدعاء وكفوا عن الاستهزاء، وكانوا يسخرون منه، فلما أدرك الشجرة أمَره ربه فقطعها وجففها، فقال: يارب كيف اتخذ هذا البيت ... وبعث الله جبريل فعلمه صنعة السفينة وجعلت يده لا تخطئ..

ومعنى ذلك أن نوحا عليه السلام احترف حرفة غرس الشجر وتقطيعه وتجفيفه، واحترف صناعة السفينة ومعلمه فى تلك الحرفة هو جبريل عليه السلام.

● ونبى الله هود عليه السلام الذى أرسله الله إلى قومه «عاد» الذين كذبوه فاستحقوا عقاب الله.

وكان قومه عاد أهل زرع وضرع وعمروا البلاد وأذلوا العباد، كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٢٣ - ١٣٤].

وفى هذه الآيات الكريمة ما يدل على الحرف التى كانت سائدة فى المجتمع العادى الذى أرسل الله تعالى إليه نبيه هودا عليه السلام، وهى: البناء على ما ارتفع من الأرض والطريق وما يستلزمه ذلك من مهارة، أو بناء أبراج الحمام للعبث واللعب أو بناء الأبراج العالية للإشراف على السابلة والسخرية منهم. ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ...﴾ واتخاذ المصانع وهى الحصون المتينة المشيدة، أو القصور الضخمة أو المنازل، أو مآجل[1] الماء تحت الأرض، يضعون كل هذا كأنهم خالدون» و﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾.

واتخاذ أدوات البطش والتعذيب والتجبر على الضعفاء كالسوط والعصا والحديد ونحوه ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾.

وتربية الأنعام وتثميرها، والحدائق والبساتين والزروع، مع ما أنعم به عليكم من البنين الأقوياء.

---

(١) أحواض الماء الواسعة، ثم يفجر إلى المزارع ونحوها.

فكل تلك حرف كانت معروفة بل مشهورة بينهم، وكان نبى الله هود عليه السلام يعرف بعض هذه الحرف ويمارسها، وبكل تأكيد كان يرعى الأغنام، تصديقا لقول المعصوم ﷺ فيما رواه ابن ماجه بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما بعث الله نبيا إلا راعى غنم..»**.

● ونبى الله صالح عليه السلام أرسله الله إلى قومه ثمود وهم قبيلة جدها ثمود بن عامر بن إرم بن سام، وقيل: ثمود بن عاد بن عوص بن إرم، كانت مساكنهم بالحجر بين الحجاز والشام إلى وادى القرى، وآثار مساكنهم باقية إلى اليوم.

وقد حذقت ثمود صناعة النحت، ولذلك نحتوا لهم بيوتا بعضها نُقر في الصخر، وبعضها كان بناء كسائر الأبنية التى تتخذ من الصخر، وكانوا عبدة أصنام ينحتونها من الحجر.

وكانت ثمود أهل خصب ورفاهة حال، لما كان لهم من الماشية الكثيرة والجنات الوفيرة الجنى، والعيون التى يستقون منها ويسقون، ماشيتهم وزروعهم.

قال الله تعالى: ﴿ **كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ...** ﴾ [الشعراء: ١٤١-١٥٢].

ومن هذه الآيات الكريمة نعلم أن الصناعات والحرف التى كانت معروفة لديهم هى: النَّحْت: النجر والبَرْى والزراعة وما يتعلق بها من حرف، والرعى للمواشى التى أنعم الله عليهم بها مع الزراعة.

ولابد أن يكون نبى الله صالح قد احترف رعى الغنم، لأنه من أنبياء الله تعالى الذين رعوا الغنم.

● وكان نبى الله إبراهيم أبو الأنبياء عليه السلام ذا مال وفير من عبيد وإماء وجمال وأُتُن ومواشٍ وأغنام، وكذلك كان ابن أخيه لوط عليه السلام ذا حظ وافر من الثروة، وكان الرعاة لهما يختلفون على المراعى والموارد - المياه - فاتفق إبراهيم ولوط عليهما السلام على أن يفترقا فى الإقامة حتى لا يقع بينهما خلاف حفاظا على المودة والقربى، فانتقل

لوط عليه السلام جنوبا إلى سدوم وعامورة وبقى إبراهيم عليه السلام حيث هو.

ويفهم من هذا أن إبراهيم ولوطا عليهما السلام كانا يعملان فى تربية مواشيهما وإدارة أموالهما بالتجارة والزراعة، وفى كل حرفة تقتضيها الثروة والمحافظة عليها وتثميرها.

وكان إبراهيم عليه السلام بنَّاءً أمره الله ببناء البيت فى مكة وعاونه فى البناء ولده إسماعيل عليه السلام.

● ونبى الله داود عليه السلام كان راعى غنم فى صغره، وهيأ الله له فرصة قتل جالوت الذى تحامى الأبطالُ مبارزته، فبارزه داود عليه السلام وقتله، كما جاء ذلك فى القرآن الكريم(١).

– ومن الحرف التي علمها الله لنبيه داود عليه السلام صناعة أدوات الحرب، قال الله تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، وقال جل وعلا: ﴿ ... وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ⑩ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سبأ: ١٠، ١١].

وكان نبي الله داود يصنع الدروع، ويصنع الخوص، وكان يأكل من عمل يده، كما وصفه الرسول الخاتم ﷺ، فقد روى البخارى بسنده عن المقدام رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: **«ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»**.

وكان نبى الله سليمان عليه السلام رجل إعمار وبناء للمصانع العظيمة، فهو الذى بني الهيكل وما حوله من المبانى الضخمة.

● وكان سائر أنبياء الله عليهم السلام قد رعوا الغنم، كيعقوب الذى رعى غنم خاله سنوات نظير تزويجه ابنتيه ليئة وراحيل.

– وكان إخوة يوسف أبناء يعقوب عليهم السلام يرعون الغنم ويعملون بالزراعة.

– وكان نبى الله شعيب عليه السلام راعى غنم.

– وكذلك كان موسى عليه السلام.

– وكذلك كان أيوب عليه السلام.

---

(١) جاء ذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ㉕⓪ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ... ﴾ [البقرة: ٢٥٠-٢٥١].

- وكان نبى الله زكريا عليه السلام نجاراً، كما جاء ذلك على لسان النبى الخاتم ﷺ، فقد روى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله: **«كان زكريا نجارا»**.

- وبعد فهذه كلمة وجيزة قدمتها لأدلل بها على أن الأنبياء عليهم السلام كانوا معظمهم أهل حرف وأنهم جميعا رعوا الغنم.

ب- حرفة النبى الخاتم ﷺ:

كانت حرفة رسول الله ﷺ قبل نبوته رعى الغنم حيناً، والتجارة حينا آخر.

روى البخارى ومسلم وأحمد بأسانيدهم عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما قال: كنا مع رسول الله ﷺ نجنى الكباث - النضيج من ثمر الأراك - فقال: **«عليكم بالأسود منه فإنه أطيبه، وإنى كنت أجنيه إذ كنت أرعى الغنم»** فقلنا: وكنت ترعى الغنم يا رسول الله؟ قالك **«نعم وما من نبى إلا وقد رعاها»**.

وروى أحمد بسنده عن أبى سعيد رضى الله عنه قال: افتخر أهل الإبل والشاء، فقال رسول الله ﷺ: **«بُعث موسى وهو راعى غنم، وبعث داود وهو راعى غنم، وبعثت وأنا راعى غنم لأهلى بأجياد»**.

وقد ذكر العلماء الحكمة فى رعى الأنبياء الغنم قبل نبوتهم، فقالوا: إن الله تعالى أراد لهم برعى الغنم أن يتدربوا برعيها على ما سيكلفون به من القيام برعاية أمر أممهم، ولأن فى مخالطتهم الغنم ورعايتها يحصل لهم الحلم والشفقة والصبر، وذلك فى صبرهم على رعى الغنم وجمعها بعد تفرقها فى مراعى عديدة، واختيار المراعى والمساقى لها، والحرص على دفع أعدائها عنها من سَبُع وسارق ونحوهما مما يهدد حياتها بالخطر.

وفى رعيهم لها تدريب على التعامل معها مع اختلاف طباعها وشدة تفرقها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة والاهتمام، لهذا يعرف بل يألف رعاة الغنم من الأنبياء الصبر على الأمة وهم يدعونها إلى الحق إلى عبادة الله وحده، ويعرفون كيف يتعاملون مع المدعوين المتفاوتين فى عقولهم، المختلفين فى تقبل الدعوة، عندئذ يتدرب الأنبياء عليهم السلام على الرفق بالضعيف من الناس الذين توجه إليهم الدعوة وعلى الحكمة فى التعامل مع المعاندين والمكذبين والمنكرين والمصرين على الاستمرار فى الكفر، ومع الذين يوجهون الأذى للأنبياء عليهم السلام، وهكذا فعل الأنبياء مع من يدعونهم فى كل زمان ومكان.

- وكانت حرفة الرسول الخاتم ﷺ الثانية هى الاتجار للغير لما عرف عنه من أمانة وحسن

خلق، فقد تجر لخديجة - رضى الله عنها - قبل نبوته، مما دعاها إلى أن تعجب بأمانته وبركته، وأن تقبله زوجًا لها - وهى التى تقدم للزواج منها أشراف قريش فرفضتهم.

روى ابن سعد وابن السَّكن وأبو نعيم عن نفيسة بنت مُنْية قالت: لما بلغ رسول الله ﷺ خمسا وعشرين سنة وليس له بمكة اسم إلا الأمين لما تكامل فيه من خصال الخير، قال له أبو طالب: يا ابن أخى أنا رجل لا مال لى وقد اشتد الزمان علينا وألحت علينا سنون منكرة، وليست لنا مادة ولا تجارة. وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك فى عيرانها فيتجرون لها فى مالها ويصيبون منافع، فلو جئتها وعرضت نفسك عليها لأسرعتْ إليك وفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك، وإن كنت أكره أن تأتى الشام، وأخاف عليك من يهود، ولكن لا تجد من ذلك بُداً.

وكانت خديجة امرأة تاجرة ذات شرف ومال كثير وتجارة، وكانت تستأجر الرجال وتدفع إليهم الأموال مُضَاربةً. فقال رسول الله ﷺ لعمه: فلعلها ترسل إلىّ فى ذلك، فقال أبو طالب، إنى أخاف أن تُولِّى غيرك فتطلب أمراً مدْبرًا، فافترقا.

وبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له، وقبل ذلك ما كان من صدق حديثه، وعظم أمانته وكرم أخلاقه، فقالت: ما علمتُ أنه يريد هذا.

ثم أرسلت إليه فقالت: إنه دعانى إلى البعث إليك ما بلغنى من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك، ففعل رسول الله ﷺ ثم لقى عمه أبا طالب فذكر له ذلك فقال: إن هذا لرزق ساقه الله إليك.

فخرج رسول الله ﷺ مع غلامها ميسرة، وقالت خديجة لميسرة: لا تعص له أمرا ولا تخالف له رأيا.

فخرج هو وميسرة وعليه غمامة تظله وجعل عمومته يوصون به أهل العير، فخرج حتى قدم الشام فنزل فى سوق بُصرى فباع سلعته التى خرج بها واشترى، فكان بينه وبين رجل اختلاف فى سلعة، فقال الرجل: احلف باللأت والعزّى، فقال رسول الله ﷺ: «ما حلفت بهما قط» فقال الرجل: القول قولك.

وعن أبى سعد[1] فى «الشرف» أنهم باعوا متاعهم وربحوا ربحا لم يربحوا مثله قط، فقال ميسرة: يا محمد اتجرنا لخديجة أربعين سنة ما رأيت ربحًا قط أكثر من هذا الربح على وجهك..

قال ابن إسحق: فلما رأت خديجة أن تجارتها قد ربحتْ أضعفت له ما سمَّتْ.

وبعد: فهاتان الحرفتان: الرعى للغنم، والتجارة، كانتا حرفتى النبى ﷺ قبل أن يشرفه الله بالنبوة وبرعاية الأمة الإسلامية، ودلالتها على التجارة التى تنجى من عذاب أليم، وهى الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر والجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس للحصول على رضا الله ومغفرته وسعادة الدنيا والآخرة.

جـ- حرفة العبد المؤمن:

الحرفة أو الصنعة أو العمل لابد أن تصحبها لمسة فَنٍّ تعكس ما فيها من جمال.

وكل مسلم مطالب من قبل الشرع بأن يعمل ويبتغى بعمله فضل الله تعالى، أى يسعى على كسب رزقه ورزق من يعول.

والإسلام دين العمل والحركة والسعى فى الأرض واتخاذ الأسباب للرزق والحياة، والدين الذى يرفض التبطل والتواكل، كما يرفض أن يعيش المسلم عالة على أحد وهو قادر على العمل.

وليس فى الإسلام حرفة أو صنعة أو عمل يستحى المسلم من ممارسته ما دام عملا حسنا شريفًا لا تخدش ممارسته الدين والخُلقُ، حتى لو كان هذا العمل من أقل الحرف والأعمال وأبسطها وهو الاحتطاب - أى جمع الحطب من الجبال ونحوها، فقد روى البخارى بسنده عن الزبير بن العوام رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتى الجبل، فيجىء بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها، فيكف الله بها وجهه؛ خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه»** ورواه أحمد وابن ماجة.

والأصل الذى جعل حرفة المسلم وعمله واجبا هو ان المسلم مطالب بأن ينفق على نفسه وعلى من يعول، وأن يتصدق وأن يكف نفسه عن سؤال الناس حتى لا يكون سؤال الناس نكتة فى وجهه يوم القيامة.

---

(١) هو أبو سعد النيسابورى هو عبدالرحمن بن الحسن ت ٣٠٧ هـ وكتابه: «شرف المصطفى».

وقد وردت بذلك السنة النبوية لتقرر هذا الأصل.

فقد روى البخارى ومسلم والنسائى بأسانيدهم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يغدو إلى الجبل فيحتطب فيبيع فيأكل ويتصدق خير له من أن يسأل الناس».**

وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق منه، ويستغنى عن الناس؛ خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه، ذلك أن اليد العليا أفضل من اليد السفلى وابدأ بمن تعول».**

ومعنى ذلك أن الحرفة أو الصنعة أو العمل تحقق للمسلم منزلة وشرفًا فوق أنها توفر له طعامه وشرابه وحاجاته الأساسية، وإنما المنزلة والشرف فى أمرين - كما يظهر ذلك من الحديث الشريف:

أولهما: أن يستغنى عن سؤال الناس.

والآخر: أن يصبح صاحب اليد العليا وهو يعطى.

بل إن خير طعام المسلم ما كان من عمل يده أسوة بأنبياء الله عليهم الصلاة والسلام؛ فقد روى البخارى بسنده عن المقدام رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما أكل أحد طعامًا قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده».**

- وكل حرفة أو صنعة أو عمل تُدرُّ على صاحبها مالاً أو منفعة يشترط فيها أن تكون حرفة أو صنعة مشروعة، لأن الله تعالى يسأل المسلم عن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، إلى غير ذلك مما يسأل عنه بين يدى الله تعالى، كما أوضحت ذلك سنة النبى ﷺ، فقد روى الترمذى بسنده عن أبى برزة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تزول قدما عَبْدٍ حتى يسأل عن أربع:**

عن عمره فيم أفناه.

وعن عمله ما فعل فيه.

وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه.

وعن جسمه فيم أبلاه»؟

ولا يجوز لمسلم أن يترك العمل ويؤثر البطالة، لأن الدين نهى عن ذلك، فى القرآن الكريم - كما يفهم ذلك من قوله تعالى: **﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن**

فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، والابتغاء من فضل هو السعى على الرزق، كما قررت السنة النبوية ذلك.

روى البخارى ومسلم بسنديهما عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال وهو على المنبر وذكر الصدقة والتَّعَفف عن المسألة: **«اليد العليا خير من اليد السفلى، واليد العليا هى المنفقة، والسفلى هى السائلة»**.

وروى مسلم بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال: **«لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس فى وجهه مُزْعة لحم»**.

● ولا تحل المسألة لمسلم إلا أن يكون واحداً من ثلاثة مما انتابتهم إحدى النوائب التى حدَّدها الرسول ﷺ لقبيصة بن المخارق رضى الله عنه، فقد روى مسلم بسنده عن أبى بشْر قبيصة بن المخارق رضى الله عنه قال: تَحَمَّلْتُ حِمالة فأتيْتُ رسول الله ﷺ أسأل فيها فقال: **«أقِم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها»** ثم قال: **«يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة:**

رجل تحمل حِمالة(١)، فَحَلَّتْ له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك. ورجل أصابته جائحة(٢) اجتاحت ماله، فحلَّتْ المسألة حتى يصيب قواماً من عيش- أو قال سداداً من عيش.

ورجل أصابته فاقة (٣) حتى يقول ثلاثة من ذوى الحِجَى من قومه: لقد أصابت فلاناً فاقة، فحلَّتْ له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش- أو سداداً من عيش - فما سواها من المسألة يا قبيصة سُحْتٌ يأكلها صاحبها سُحْتاً».

● ومن أجل إقرار مبدأ الحرفة والعمل حارب الإسلام التبطُّلَ والتواكل والقعود عن العمل مع القدرة عليه؛ إذ العمل فى الإسلام هو الأصل الذى يقوم عليه الكسب وقوام العيش.

روى البخارى بسنده عن على رضى الله عنه قال: كنا جلوساً مع النبى ﷺ ومعه عود ينكت فى الأرض وقال: **«ما منكم من أحد إلا قد كتب مقعده من النار أو من الجنة»** فقال رجل من القوم: ألا نتكل يا رسول الله؟ قال: **«لا، اعملوا فكل ميسر، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾»**.

---

(١) الحمالة: غرم يتحمله من ماله من يصلح بين متقاتلين.

(٢) الجائحة: الآفة تصيب مال الإنسان.

(٣) الفاقة: الفقر.

وروى البخارى بسنده عن على رضى الله عنه قال: كُنَّا فى جنازة فى بقيع الغرقد، فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله، ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكت بمخصرته ثم قال: «**ما منكم من أحد وما من نفس منفوسة إلا كُتب مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبتْ شقية أو سعيدة، قال رجل**: يا رسول الله أفلا نتكل وندع العمل؛ فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان منا من أهل الشقاء فسيصير إلى عمل أهل الشقاء؟ قال: «**أما أهل السعادة فيُيَسَّرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاء، ثم قرأ: فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى**.. الآية..».

● ورفع الإسلام من شأن العمل وجعله من العبادات التى تكفر بعض الذنوب، فقد روى الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من الذنوب ذنوب لا يُكَفِرّها إلا الهَمُّ[1] في طلب المعيشة**».

وروى البيهقي– في شعب الإيمان – بسنده عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ طَلَبَ الدنيا حلالاً؛ تعففًا عن المسألة وسَعْيًا على عياله وتعطفًا على جاره؛ لقى الله ووجهه كالقمر ليلة البدر**».

وروى الطبراني – فى معاجمه الثلاثة –[2] بسنده عن كعب بن عجرة رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ جالسًا مع أصحابه ذات يوم فنظروا إلى شاب ذى جَلَد وقوة وقد بكَّر يسعى، فقالوا: وَيْحَ هذا لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله!!! فقال رسول الله ﷺ: «**لا تقولوا هذا؛ فإنه إن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة ويُغْنيها عن الناس فهو فى سبيل الله، وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليعينهم ويكفيهم فهو فى سبيل الله وإن كان يسعى تفاخرًا وتكاثرًا فهو فى سبيل الشيطان**».

واعتبر الإسلام أن لكل مسلم ثوبين لمهنته، وطالبه عندما يحضر لصلاة الجمعة مع المسلمين أن يتخذ ثوبين غير ثوبى مهنته، يفهم ذلك مما رواه الإمام مالك فى الموطأ بسنده عن يحيى بن سعيد أنه بلغه أن رسول الله ﷺ قال: «**ما على أحدكم أن يتخذ ثوبين لجمعته سوى ثَوْبَىْ مهنته**».

وروى ابن عبد البّر بسنده عن يوسف بن عبد الله بن سلام – رضى الله عنه[3] مرفوعًا:

(١) الهم فى طلب المعيشة اى العمل فيه وبذل المجهود من اجلها اى لا يدع العمل بل يجعله همه وموضع اهتمامه.

(٢) هى المعاجم: الكبير والأوسط والصغير: وكلها فى الحديث النبوى الشريف.

(٣) الصحابى عبد الله بن سلام أبو يوسف توفى سنة ٤٣ هجرية، أسلم عند قدوم النبى ﷺ المدينة وكان اسمه =

«لا يضر أحدكم أن يتخذ ثوبين للجمعة سوى ثوبَىْ مهنته» وفى رواية أخرى لابن عبد البر: عن يوسف بن عبد الله أيضًا عن أبيه قال: «خطبنا رسول الله ﷺ يوم الجمعة فقال: **«وما على أحدكم لو اشترى ثوبين لجمعته سوى ثوبى مهنته»**.

فكأن ثياب المهنة أصل عند الناس فى ذلك الوقت، واتخاذ الزينة عند كل مسجد يقتضى اتخاذ ثوبين غير ثوبى المهنة. واحتراف المسلمين لحرف يمتهنونها يجعلهم أحب إلى الله تعالى، وما ذلك إلا لقيمة المهنة أو الحرفة فى الإسلام.

روى الطبرانى فى الكبير بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله يحب المؤمن المحترف»**.

وروى أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: **«خير الكَسْبِ كسْبُ يد العامل إذا نصح»**.

وروى أحمد بسنده عن أبى بردة رضى الله عنه قال: سُئِل رسول الله ﷺ عن أفضل الكسب فقال: **«بيعٌ مبرور، وعمل الرجل بيده»**.

وفى رواية أخرى لأحمد بسنده عن رافع بن خديج رضى الله عنه قال: قيل يا رسول الله أى الكسب أطيب؟ قال: **«عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور»**.

وقال الإمام الغزالى – فى كتابه الإحياء –[1]: رُوِىَ أن عيسى عليه السلام رأى رجلاً، فقال: ما تصنع؟ قال: أتعبد، قال: من يعولك؟ قال أخى، قال: أخوك أعبد منك.

وروى البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: لما استُخلف أبو بكر الصديق –رضى الله عنه– قال: لقد علم قومى أن حرفتى لم تكن تعجز عن مئونة أهلى، وشُغلتُ بأمر المسلمين، فسيأكل آل أبى بكر من هذا المال، ويحترف للمسلمين فيه.

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقنى، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذَهَبًا ولا فضةً»[2].

والخلاصة أن كل مسلم يجب أن تكون له حرفة أو صنعة أو مهنة أو أى عمل يكسب

= الحصين فسماه رسول الله ﷺ عبد الله، وفي الآية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ...﴾ [الأحقاف: ١٠]، له ٢٥ حديثًا رواها عن النبي ﷺ. ويقال إنه من نسل يوسف بن يعقوب عليهما السلام.

(١) الإمام أبو حامد الغزالى حجة الإسلام: إحياء علوم الدين ج٢ ص ٥٧ ط الحلبي ١٣٥٢هـ – ١٩٣٣م القاهرة.

(٢) الإمام الغزالى أبو حامد: المرجع السابق: ٢/٥٧..

منه رزقه، وأن هذه الحرفة تتسع فى معناها لتشمل كل عمل يمارسه المسلم ليكسب من ورائه رزقه ما دام عملاً مشروعًا لا يخالطه حرام أو مكروه.

وبعد: فإن الحرفة والصنعة فَنٌّ يحتاج إلى إتقان وإحسان، بل العمل كله نوع من الفنّ يحتاج إلى تجويد وإحسان وإتقان.

وإذا قلنا: إن الإتقان لأى عمل هو من الفن الرفيع ومن التعبير الجميل عن إحساس الإنسان وإدراكه وحاجاته المعنوية والمادية؛ فإن من المعروف لدينا معشر المسلمين أن الإسلام قد طالب المسلم بإتقان كل عمل يقوم به، كما دَلَّتْ على ذلك آيات القرآن الكريم وكلمات السنة.

قال الله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وروى البيهقى – فى شعب الإيمان – بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»**.

وروى البيهقى – فى الشعب – بسنده عن كليب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله يحب من العامل إذا عمل أن يحسن»**.

■■■■

المبحث الثانى

الجمال والفن فى السنة النبوية المطهرة

الجمال والفن بوصفهما مطلبَينْ من مطالب الإنسانية فى كل عصورها وأزمانها، لايزهد فيهما إلا مَنْ به قصور فى عقله، وجمود فى قلبه وتبلد فى أحاسيسه، وجهل بدينه وقيم هذا الدين الخاتم الذى أنعم الله به على الناس.

والجمال والفن إذا خلت منهما حياة الإنسان؛ فقد خَلتْ من أسباب البهجة والرضا، بل قد خلتْ من أسباب التمسك بالحياة الإنسانية؛ وليس هذا من صالح الإنسانية فى شىء.

والجمال والفن بهذا الوصف لابد أن يكونا من محتويات السنة النبوية التى أوصى الله بها[1] إلى نبيه الخاتم محمد ﷺ، وسبب هذا الاحتواء للجمال والفن أن السنة النبوية تتسع للحديث عن كل مطالب الإنسان، بل إنها تعينه على التمسك بما هو صالح من هذه المطالب، وتحول بينه وبين ما هو غير صالح له فى دنياه وآخرته، لأن الرسول ﷺ ما ترك من خير إلا وأمر المسلمين به وحثهم عليه وحببهم فيه، وما ترك من شر إلا ونهى المسلمين عنه وحذرهم منه ونفرهم فيه.

والجمال بلفظه وبما اشتق منه، وبمعناه أو بكل معانيه تحدثت به السنة النبوية المطهرة.

والفن بكل معنى من معانيه وردت به أحاديث نبوية كثيرة لا تحصى عدداً إلا بصعوبة بالغة وجهود مضنية فوق قدرة فرد واحد مهما كان من العلم والذكاء؛ وذلك أن الفن فى عموم معناه هو المهارة والدقة والإتقان لابد أن تتحدث عنه السنة النبوية وتدعو إليه وتحبب فيه؛ لأن الإتقان والإحسان متشابهان، ولأن الله تعالى قد كتب الإحسان على كل شىء يأتيه الإنسان فى سلمه وحربه، فى رضاه وغضبه.

والسنة النبوية المطهرة حببَّت المسلمين فى الجمال والتجمل عند كل مقتضٍ من مقتضيات حياته.

بل إن السنة النبوية المطهرة تكفلت بأن تضع للجمال معايير دقيقة إذا أخذ المسلمون بها، والتزموا بتفاصيلها ما فاتهم خير فى دنياهم ولا فى أخراهم.

---

(١) القرآن الكريم وحى الله إلى خاتم رسله بلفظه ومعناه، والسنة وحى الله إلى خاتم رسله بمعناها لا ألفاظها.

إن الجمال والفن فى السنة النبوية قِيَم يجب أن يتمسك بها المسلمون فى كل أمورهم، لأن الأصل فى المسلم ألا يصدر منه إلا كل جميل وكل دقيق وكل صيغة معجبة.

ومن أجل ذلك فإن الأخذ بالمعايير التى وضعها الإسلام للجمال والفن يعلم المسلمين ويبصرهم، ويوجه أعمالهم ويسددهم إلى أهدى ما يجب أن يسلكوه من سبيل.

إن سيادة المعايير الجمالية والفنية التى وضعها الإسلام تجعل المسلمين يتمثلون الجمال والفن فى أنفسهم أولاً ثم فيما يحيط بهم من ناس وأشياء، ونظم اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية.

إن على المسلم أن يكون جميلاً فى نفسه، فى عقله وقلبه وخلقه وسلوكه، جميلاً فى التعامل مع أهله وأبنائه وذويه وأقاربه وجيرانه، بل عليه أن يكون فى سلوكه مع البيئة التى يعيش فيها على المستوى الذى يريده له الإسلام من الجمال والفن.

إن الجمال فى الإسلام هدف يصبو إليه المسلم فى كل أمر من أموره، لأن الله تعالى يحب الجمال بكل أنواعه: الجمال فى الشكل والصورة والجمال فى المضمون والجوهر؛ لأنه سبحانه جميل يحب الجمال.

ونحاول فى هذا المبحث أن نتحدث عن الجمال بلفظه وبما اشتق منه، وبمعناه فى السنة النبوية المطهرة، ثم نتحدث عن الفن بمعناه فى المواطن التى ورد فيها فى سنة المعصوم ﷺ.

والله ولى التوفيق.

■■■■

١- الجمال بلفظه وببعض ما اشتق منه وبمعناه فى السنة النبوية

ما دام الجمال بلفظه وببعض ما اشتق من لفظه قد ورد فى القرآن الكريم على نحو ما بينا فى المبحث الأول من هذا الفصل،؛ فلابد أن يكون قد ورد فى السنة النبوية ، لأن السنة النبوية وهى ما أوحاه الله إلى خاتم رسله ليفصل بها ما أجمله فى كتابه الخاتم، وليشرح ويفسر بها ما يحتاج إلى شرح وتفسير، وأحيانًا ليضيف بها أحكامًا إلى ما جاء فى القرآن الكريم من أحكام.

إن ارتباط السنة بالقرآن هو ارتباط فرعين بأصل واحد هو الوحى الإلهى الحكيم.

ومن المسلم به أنّ ما أوحاه الله تعالى إلى خاتم رسله عليه السلام هو الحق، وإنه إما أن يكون جاء من عند الله بلفظه أو جاء من عنده بمعناه، وذلك ما يجعل السنة النبوية مشتملة على كل ما جاء فى القرآن الكريم بل مضيفة إليه فى بعض الأحيان.

ولفظ الجمال أو ما اشتق منه، أو الجمال بمعناه قد جاء فى السنة النبوية لصالح الناس، ولتربيتهم على حب الجمال لأن الله تعالى يحبه.

والسنة النبوية تتناول فى ثناياها كل ما يكون الناس فى حاجة إليه، مادية كانت تلك الحاجة أو معنوية، والجمال من حاجات الإنسان الملازمة له دائمًا إذ هو بحاجة إلى الجمال المعنوى فى عقله وفكره وما يعتقده ، وبحاجة إلى الجمال المادى فى مسكنه وملبسه ومأكله ومشربه، وزوجه وولده.

بل إن كل ما يحتاج إليه الإنسان فى دنياه وآخرته يستطيع أن يلتمسه فى السنة النبوية على نحو جميل، لأن السنة فى جوهرها هى منهج حياة الإنسان مفصلاً، مهما تغير مع الإنسان زمانه أو مكانه، إلى أن يلقى ربه ويقوم الناس لرب العالمين.

ومهما تكن حياة الإنسان على درجة من البساطة أو البداوة أو دخلها التحضر والتطور، فإن حبه للجمال فى مختلف أطوار حياته مركوز فى فطرته التى فطره الله عليها، فليس من الناس أحد إلا يحب أن يكون جميلاً فى نفسه: عقله وبدنه وشكله وما يحيط به من مسكن وملبس ومأكل ومشرب، بل من يتعاملون معه من الناس.

إن الجمال وحبه فطرة فى الناس، فطرهم الله عليهما لأنه سبحانه يحب عباده ويحب أن يحيوا على هذه الدنيا حياة جميلة، ولذلك أرسل إليهم خاتم رسله بالمنهج المتكامل .

وما دام الله تعالى جميلاً يحب الجمال؛ فإن عباده جميعًا يحبون الجمال إلا من شذَّ منهم أو خرج على المنهج الذى ارتضاه الله الناس.

إن الصفات الجميلة التى يكتسبها الإنسان وهو يقتدى بالمعصوم ﷺ، أو الصفات الجميلة التى يحاول بها المسلم أن يحاكى صفات الله تعالى فى حدود قدراته. إن هذه الصفات جميعًا تعزز فى الإنسان الاتصاف بالجمال، وإن النتيجة المرجوة من ذلك هى أن يصبح خلق الإنسان جميلاً وتعاملاته مع الله ومع نفسه ومع منهج الإسلام ونظامه جميلاً، فضلاً عن تعاملاته مع الناس، مما ينعكس عليه بالجمال فى ذاته وفى سلوكه وفى المجتمع الذى يعيش فيه.

وسوف تظل - إلى أن يشاء الله - أسماء الله تعالى وصفاته وأخلاق الرسول ﷺ وشمائله وسيرته هى المعين الذى لا ينضب لكل من أراد أن يكون جميلاً فى صفاته وفى أخلاقه ومعاملاته.

والسنة النبوية المطهرة فى سعتها وشمولها واشتمالها على كل صفة جميلة يجب أن يتصف بها الإنسان، وعلى كل قيمة رفيعة يجب أن يلتزم بها الإنسان هى البحر الزاخر الذى يستقى منه الناس على مدى الزمان وتعدد المكان، وكل من ارتوى من بحر السنة النبوية فلن يظمأ أبداً، ولن يعجز عن أن يكون الإنسان الجميل فى كل أمره.

إن شأن المسلم الذى يرجو رحمة ربه أن يستجيب لكل ما جاء فى سنة النبى ﷺ فى حدود استطاعته؛ لأن الرسول ﷺ قال فيما رواه مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه : **«ما نهيتكم عنه فانتهوا، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم»**.

وفى استجابة المسلم لما جاء فى السنة من نهى وأمر هو استجابة لأمر الله تعالى ونهيه، لأن الله تعالى يقول: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ [الحشر: ٧].

وكل استجابة لأمر الله ورسوله وكل اجتناب لما نهى الله عنه ورسوله هو استجابة لما فيه حياة الإنسان الطيبة فى الدنيا والآخرة، لأن الله تعالى أكد ذلك فى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ [الأنفال: ٢٤].

ولقد حفلت السنة النبوية بعدد كبير من أحاديث الرسول ﷺ التى ورد فيها لفظ

الجمال وبعض ما اشتق من لفظه، كما اشتملت على سيل زاخر من الجمال بمعناه، وما حولنا وطولنا فى هذا الكتاب إلا أن نشير إلى بعض ذلك ولا نحصيه؛ لأن إحصاءه فوق طاقة فرد مهما يكن وسعه وإنما يحتاج إلى جهود عديدة من العلماء، فحسبنا ما فى وسعنا ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، ونسأل الله أن يغفر لنا القصور والتقصير، فهو حسبنا ونعم الوكيل.

أ - الجمال بلفظه فى السنة النبوية المطهرة:

وردت كلمة الجمال بلفظها فى الأحاديث النبوية التالية:

- روى مسلم بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: **«لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كِبْر** قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة. قال: **«إن الله جميل يحب الجمال، الكِبْر بَطَرُ الحق، وغَمْطُ الناس»**[1]

فالجمال فى هذا الحديث الشريف جمال الثوب والنعل أى التزين والتجمل، وليس فى ذلك شىء من الكبر كما يتوهم بعض الناس.

- وروى أحمد بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لايدخل النار مَنْ كان فى قلبه مثقال حبة من إيمان، ولايدخل الجنة مَنْ كان فى قلبه مثقال حبة من كِبْر»** فقال: رجل يا رسول الله: إنى ليعجبنى أن يكون ثوبى غسيلاً، ورأسى دهيناً، وشراك نعلى جديداً، وذكر أشياء حتى ذكر عُلاقة سوطه، أفَمِنَ الكبر ذاك يا رسول الله؟ قال: **«لا، ذاك الجمال، إن الله جميل يحب الجمال، ولكن الكبر من سفه الحق، وازدرى الناس»**[2].

- وروى أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما مِنْ صاحب كنز لا يؤدى حقه إلا جُعل صفائح يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جبهته وجنبه وظهره حتى يحكم الله عز وجل بين عباده فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»**...[3] ثم سُئل عن الخيل فقال: **«الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وهى لرجل أجر، ولرجل ستر وجمال، وعلى رجل وزر؛ أما الذى هى له أجر؛ فرجل يتخذها يعدها فى سبيل الله، فما غيبت فى بطونها فهو له أجر... حتى ذكر أرواثها وأبوالها، وأما التى هى له ستر وجمال، فرجل يتخذها تكريماً وتجملاً ولا ينسى**

---

(١) غمط الناس: أى استصغارهم واحتقار شانهم، وبطر الحق: إنكاره ورفضه.

(٢) سفه الحق: أى جهله وانكره، وازدرى الناس: أى احتقرهم.

(٣) انظر الحديث الشريف كاملاً فى: الإمام أحمد مسنده ج٢، ص٢٦٢ ط مؤسسة قرطبة - القاهرة دون تاريخ.

حق بطونها وظهورها وعسرها ويسرها، وأما الذى هى عليه وزر فرجل يتخذها بذخًا وأشرًا رياءً وبطرًا..»

– وروى أحمد بسنده عن أبى زيد الأنصارى رضى الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ: ادْنُ منى، قال: فمسح بيده على رأسه ولحيته، ثم قال: «**اللهم جمِّله وأدم جماله**» قال: فلقد بلغ بضعًا ومائة سنة وما فى رأسه ولحيته بياض إلا نَبْذٌ يسير، ولقد كان منبسط الوجه، ولم ينقبض وجهه حتى مات.

– وروى الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: أخبرنى رسول الله ﷺ: «**أن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم، ثم يؤذن فى مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا فيزورون ربهم**»... **ثم ننصرف إلى منازلنا فيتلقانا أزواجنا فيقلن: مرحبا وأهلا، لقد جئتَ وإن بك من الجمال أفضل مما فارقتنا عليه، فيقول: إنا جالسنا ربنا الجبار، ويحقُّنا أن ننقلب بمثل ما انقلبنا**».

وفى رواية ابن ماجة: «وإن لك من الجمال والطيب..»

– وروى مسلم بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن فى الجنة سوقا يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثو فى وجوههم وثيابهم فيزدادون حسنا وجمالا، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنا وجمالا فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا**».

– وروى أحمد بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه: كنتُ لا أُحجب عن النجوى ولا عن كذا إلا عن كذا.. فأتيته وعنده مالك بن مرارة الرهاوى، فادركت من آخر حديثه وهو يقول: يا رسول الله، قد قسم لى من الجمال ما ترى، فما أحب أن أحدا من الناس فضلنى بشراكين فما فوقهما، أفليس ذلك هو البغى؟

قال: «**لا، ليس ذلك بالبغى، ولكن البغى من بطر أو قال سفه الحق، وغمط الناس**».

● **الجمال فى هذه الأحاديث النبوية السبعة جاء ليدل على أنواع من الجمال منها:**

– جمال الصورة والشكل والملبس والتزين.

– وجمال اتخاذ الخيل فى سبيل الله والفرح بها.

– وجمال الخُلُق والسلوك بترك الكبر وغمط الناس وإنكار الحق.

ثم ورد الجمال فى أحاديث النبى ﷺ فيما يرغب فيه الرجال من جمال فى النساء، ليؤكد ذلك أن الجمال مطلب فطرى يرغبه الرجل فيمن يريد أن يتزوج بها، وهو مطلب مشروع لا حرج فيه، وإن كان المعول عليه فى اختيار الزوجة هو الدين فإن صاحبه فبها ونعمت وإلا فذات الدين أولى بالزواج، فإن تعارض الجمال مع العقم فى المرأة فإن السوداء الولود خير من الحسناء العقيم التى لا تلد.

والأحاديث التى وردت فى جمال المرأة منها:

- ما رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**تنكح المرأة لأربع، لمالها ولحسبها وجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك**»

- وما رواه أحمد بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه، أن امرأة أتت النبى ﷺ فقالت: يا رسول الله: ابنة لى كذا وكذا، ذكرت من حسنها وجمالها، وآثرتك بها، فقال: «**قد قبلتها**» فلم تزل تمدحها، حتى ذكرت أنها لم تصدع، ولم تشتك شيئا قط!!! فقال «**لا حاجة لى فى ابنتك**».

- وما رواه أحمد بسنده عن عوف بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة وجمع بين إصبعيه السبابة والوسطى، امرأة ذات منصب وجمال آمت من زوجها حبست نفسها على أيتامها حتى بانوا أو ماتوا**».

- وما رواه أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله، الإمام العادل، وشاب نشأ بعبادة الله، ورجل قلبه متعلق بالمساجد، ورجلان تحابا فى الله عزوجل، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل تصدق بصدقة أخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها فقال أنا أخاف الله عزوجل**».

- وما رواه أبو داود بسنده عن معقل بن يسار رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ، فقال: إنى أصبت امرأة ذات حسب وجمال، وإنها لا تلد، أفأتزوجها؟ قال: «**لا**» ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة فقال: «**تزوجوا الودود الولود: فإنى مكاثر بكم الأمم**».

- وما رواه البخارى بسنده عن عروة بن الزبير رضى الله عنه أنه سأل خالته – عائشة رضى الله عنها– عن قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا**﴾

[النساء:٣] قالت : يا ابن أختي : اليتيمة تكون في حجر وليها، فيرغب في مالها وجمالها يريد أن يتزوجها بأدنى من سنة صداقه، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن فيكملوا الصداق وأمروا بنكاح من سواهن من النساء».

ب- الجمال ببعض ما اشتق منه في السنة النبوية:

وردت في السنة النبوية ألفاظ اشتقت من لفظ «الجمال» منها: جميلة وجميل، وأجمل، وأجمله، وأجملت، وأجملوا، وتجمل واتجمل، ويتجملوا.

فمن الأحاديث التي جاء فيها: جميلة وجميل.

- روى ابن ماجة بسنده عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ ذات يوم لأصحابه: **«ألا شمروا للجنة، فإن الجنة لا خطر لها(١)، هي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر يطرد، وفاكهة كثيرة نضيحة، وزوجة حسناء جميلة، وخلال كثيرة في مقام أبداً(٢)، في حبرة ونضرة، في دور عالية سليمة بهية** قالوا: نحن المشمرون لها يا رسول الله، قال: **«قولوا: إن شاء الله ثم ذكر الجهاد وحرض عليه».**

- وروى أبو داود بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ غير اسم عاصية، وقال: «أنت جميلة».

- وروى أبو داود بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا أتى النبي ﷺ وكان رجلا جميلا، فقال: يا رسول الله: إني رجل حبيب إلى الجمال وأعطيت منه ما ترى، حتى ما أحب أن يفوتني أحد إما قال: بشراك نعلي أو قال بشسع نعلي، أفمن الكبر ذلك؟ قال: **«لا ولكن الكبر من بطر الحق وغمط الناس».**

ومن الأحاديث التي جاء فيها: أجمل، وأجمله وأجملت وأجملوا:

- روى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كرجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هَلاَّ وُضِعَتْ هذه اللبنة، قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين».**

---

(١) لا خطر لها: أي لا مثل لها في القدر.
(٢) أبداً: أي دائماً.

- وروى ابن ماجة بسنده عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يأيها الناس اتقوا الله وأجملوا فى الطلب[1] فإن نفسا لن تموت حتى تستوفى رزقها وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب، خذوا ما حَلَّ ودعوا ما حَرُم».**

وفي رواية أخرى لابن ماجة بسنده عن أبى حميد الساعدى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أجملوا فى طلب الدنيا فإن كُلاً ميسر كما خُلق له».**

- وروى أحمد بسنده عن أبى بن كعب رضى الله عنه قال: قرآت آية وقرأ ابن مسعود خلافها، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: ألم تقرئنى آية كذا وكذا؟ قال: **«بلى»** فقال ابن مسعود: ألم تقرئنيها كذا وكذا؟ قال: **«بلى، كلاكما محسن مجمل» قال: فقلت له: فضرب صدرى فقال: «يا أبى بن كعب، إنى أقرئت القرآن، فقيل لى: على حرف أو على حرفين، قال: فقال الملك الذى معى: على حرفين، فقلت: على حرفين، فقال: على حرفين أو ثلاثة؟ حتى بلغ سبعة أحرف ليس منها إلا شافٍ كافٍ، إن قلتَ: غفورا رحيما أو قلت سميعًا عليمًا، أو عليما سميعا فالله كذلك، ما لم تختم آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب».**

- وروى النسائى بسنده عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت: قلت يا رسول الله ألا نخرج فنجاهد معك فإنى لا أرى عملا فى القرآن أفضل من الجهاد، قال: **«ولكن أحسن الجهاد وأجمله حج البيت حج مبرور»** ورواه البخارى، وأحمد بسنديهما عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها.

ومن الأحاديث النبوية التى جاء فيها ألفاظ: تجمل، وتجَّملَ، ويتجملوا:

- ما رواه أحمد بسنده عن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ استجد ثوبا فلبسه فقال حين يبلغ ترقوته: الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى وأتجمل به فى حياتى، ثم عمد إلى الثوب الذى خلق، فتصدق به كان فى ذمة الله تعالى، وفى جوار الله وفى كنف الله حيًا وميتا، حيًّا وميتًا، حيًّا وميتًا».**

- وما رواه البخارى بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: أخذ عمر جُبَّة من إستبرق تباع فى السوق فأخذها، فاتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ابتع هذه تجمل بها للعبد وللوفود، فقال له رسول الله ﷺ: **«إنما هذه لباس من لا خلاق له...»**

---

[1] أى لا تستعجلوا فتقعوا فى الحرام.

– وما رواه الدارمي بسنده عن حبيب بن عبيد قال: كان يقال: تعلموا العلم وانتفعوا به ولا تعلموه لتتجملوا به، فإنه يوشك إن طال بكم عمر أن يتجمل ذو علم بعلمه كما يتجمل ذو البزة ببزته».

جـ – الجمال بمعناه في السنة النبوية المطهرة:

كما قلنا ونحن نتحدث عن الجمال بمعناه في القرآن الكريم، نقول ونحن نتحدث عن الجمال بمعناه في السنة النبوية المطهرة، فنؤكد أن ورود الجمال بمعناه في السنة النبوية كثير كثرة تلفت نظر من يقرأ السنة بتأمل وتدبر.

إن السنة النبوية المطهرة بوصفها وحيا من الله تعالى بلسان رسوله ﷺ، وبوصفها شرحا وتفصيلا للقرآن الكريم، فلابد أن تكون حافلة بكل معنى للجمال، لأن القرآن الكريم قد حفل بذلك – كما رأينا –، فما معنى من معاني الجمال – على كثرتها سواء أكانت هذه المعاني الجميلة في خلق الإنسان وسلوكه أو في كلامه وصمته أو في عمله وتركه أو في حياته كلها – إلا جاءت فيه أحاديث نبوية عديدة.

- وإذا كان الجمال – كما أوضحنا في هذا الكتاب – يحمل معنى الحُسْن الخُلقي والخَلقي، وحسن السلوك وحسن العبادة وحسن التوكل على الله، وحسن التعامل مع الله تعالى، ومع النفس ومع الناس، فإن السنة النبوية حافلة بكل هذه المعاني.
- وإذا كان الجمال يعني الحق والصدق والعفة وحب الخير وفعل الخير، فإن الأحاديث النبوية كلها لا تخلو من هذه المعاني بل تدعو إليها وتؤكدها.
- وإذا كان الجمال يعني تنقية المجتمع مما فيه من الشرور والآثام، وغرس الخير والبر في النفوس، فإن ذلك هو مضمون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأطر الناس على الحق أطرًا، وذلك أجمل ما في الحياة الإنسانية كلها.
- وليس من المبالغة في شئ القول بأن السنة النبوية بأسرها تعني بالحديث عن الجمال بكل معنى من معانيه في كل شعبة من شعب الحياة، وذلك أن السنة النبوية كلها هي الجمال بمعانيه المتعددة، فكل فضيلة أو خلق كريم أو صفة نبيلة، تدعو إليها السنة وتحض على التمسك بها، وذلك معنى عميق وأصيل من معاني الجمال.

وكل رذيلة دعت السنة إلى تركها والتَّخلِّي عنها – وقد دعت السنة النبوية إلى طرح جميع الرذائل – هي معنى من معاني الجمال.

● ولقد قرأت السنة النبوية أكثر من مرة، فما وقعت عينى على حديث نبوى منها إلا ورأيته يدعو إلى قول جميل أو عمل أو خلق جميل، أو تدبر فى خلق الله، وفى كل ذلك من معانى الجمال ما فيه.

ولقد جمعت من معانى الجمال فى السنة شواهد وأمثلة مستدلا بها على ورود الجمال بمعناه فى السنة النبوية، واكتفيت بمعنيين من معانى الجمال هما:

- الحُسْن.

- والحق والصدق.

أما الحُسْن بمعنى الجمال فقد جاء صفة للإسلام نفسه فورد على لسانه ﷺ: حسن الإسالم، كما ورد صفة للخلق، فورد: حسن الخلق، وصفة للكلام والعمل، وصفة للثناء وصفة للبلاء وصفة للصحبة وصفة للاختيار، وقد جاءت فى ذلك الأحاديث النبوية التالية:

● فى حُسْن الإسلام:

روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله قال: قال النبى ﷺ: **«إذا أحسن أحدكم إسلامه، فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وكل سيئة يعملها تكتب له بمثلها».**

- وروى أحمد بسنده عن حسين بن على رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«حسن إسلام المرء قلة الكلام فيما لا يعنيه».**

● وفى حسن الخلق:

- روى الترمذى عن عبد الله بن المبارك تعريفا جامعا فى تفسير حسن الخلق بأنه: طلاقة الوجه وبذل المعروف وكف الأذى.

وأما الأحاديث النبوية الواردة فى ذلك فمنها:

- ما روى البخارى ومسلم بسنديهما عن عمرو بن العاص رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: **«إن من خياركم أحسنكم أخلاقا».**

- وما روى أبو داود بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم».**

- وما روى الترمذى بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«ما من شىء أثقل فى ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله يبغض الفاحش البذىّ».**

– وما روى الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وخياركم خياركم لنسائهم»**.

– وما روى أبو داود بسنده عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنا زعيم ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًا، وببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا، وببيت فى أعلى الجنة لمن حَسن خلقه»**.

– وروى مسلم بسنده عن النواس بن سمعان رضى الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: **«البر حسن الخلق، والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»**.

– وروى الترمذى بسنده عن جابر رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ قال: **«إن من أحبكم إلى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا..»**

● وفى حُسْن الكلام والعمل:

– روى مسلم بسنده عن أبى طلحة رضى الله عنه قال: كنا قعوداً بالأفنية نتحدث، فجاء رسول الله ﷺ فقام علينا فقال: **«مالكم ولمجالس الصعدات»**(١) فقلنا: إنما قعدنا نتذاكر ونتحدث، قال: **«أما لا فأدوا حقها، غض البصر ورد السلام وحسن الكلام»**.

– وروى أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه انه اتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله: إنى إذا رأيتك طابت نفسى، وقرَّتْ عينى، فانبئنى عن كل شيء، فقال: **«كل شيء خلق من ماء»** قال: فانبئنى بعمل إن عملت به دخلت الجنة، قال: **«أفشِ السلام، وأطب الكلام، وصل الأرحام، وقم بالليل والناس نيام، تدخل الجنة بسلام»**.

● وفى حسن الثناء:

– روى البخارى بسنده عن أبى بكر رضى الله عنه قال: أَثْنَى رجل على رجل عند النبى ﷺ فقال له: **«ويْلك قطعت عنق صاحبك»** مراراً، ثم قال: **«من كان منكم مادحًا أخاه لا محالة فليقل: أحسب فلانًا والله حسيبه ولا أزكي على الله أحدًا أحسبه كذا وكذا إن يعلم الله ذلك منه»**.

ومن هذا الحديث الشريف يتضح للمسلمين أدب ثناء المسلمين بعضهم على بعض.

---

(١) الصعدات: الطرق.

– وروى أبو داود بسنده عن جابر رضى الله عن قال: قال النبى ﷺ: «مَنْ أُعْطِىَ عطاءً، فوجد[1] فليجز به، ومن لم يجد فليثن به، فإن من أثنى فقد شكره[2]، ومن كتمه فقد كفره».

وفى رواية للترمذى: «من تَحَلَّى بما لم يعطه كان كلابس ثَوْبَى زور».

● وفى حسن البلاء:

– روى أحمد بسنده عن كعب بن مالك رضى الله عنه[3] قال: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة غيرها إلا فى غزوة تبوك... وتاب الله عليَّ فقال: يا رسول الله: من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله تعالى وإلى رسوله. قال رسوله الله ﷺ: «أمْسك بعض مالك فهو خير لك» فقلت: إنما أمسك سهمى الذى بخيبر، قال: فقلت يا رسول الله: إنما الله تعالى نجانى بالصدق، وإن من توبتى ألا أُحَدِّث إلا صدقًا ما بقيتُ، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق فى الحديث مذْ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلانى الله تبارك وتعالى، والله ما تعمدت كذبة مُذْ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقى..».

● وفى حُسن الاختيار:

– روى أبو داود بسنده عن أبى الدرداء – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم».

– وروى أبو داود بسنده عن نافع عن ابن عمر – رضى الله عنهما – أن رسول الله ﷺ غَيَّر اسم عاصية فقال: «أنت جميلة».

– وروى أبو داود بسنده عن أبى وهب الجشمى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تسموا بأسماء الأنبياء، وأحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقها: حارث وهمام، وأقبحها حرب ومرة».

– وروى أبو داود بسنده عن محمد بن عمرو بن عطاء أن زينب بنت أبى سلمة سالته؛ ما سميتَ ابنتك قال: سميتها برَّة، فقالت: إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم؛

---

(١) أى وجد لديه من الخير ما يرد به فليفعل.

(٢) شكره: أى شكر تلك النعمة.

(٣) هو أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك.

سُمِّيتُ بَرَّة فقال النبى ﷺ «لا تزكوا أنفسكم، الله أعلم بأهل البرّ منكم» فقالت: ما نسميها؟ قال: «سموها زينب».

– وروى أبو داود بسنده عن أسامة بن أخدريّ – رضى الله عنه – أن رجلاً يقال له: «أصرم» فى النفر الذين أتوا رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ما اسمك»؟ قال: أصرم، قال: «بل أنت زُرْعة».

– وروى أبو داود بسنده عن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُسَمِّين غلامك[1] يسارا، ولا رباحا، ولا نجيحًا، ولا أفلح، فإنك تقول: أثَمَّ[2] هو؟ فيقول: لا، إنما هن أربع فلا يزيدُن علىّ».

وأخرجه مسلم والترمذى.

وفى رواية للترمذى عن سمرة أيضًا – رضى الله عنه – نهى ﷺ أن نسمى رقيقنا أربعة أسماء: أفلح ويسارا ونافعًا ورباحًا.

– وروى أبو داود بأسانيد عديدة تركها للاختصار – كما قال – قال أبو داود: غَيَّر رسول الله ﷺ اسم العاصى، وعزيز. وعقلة، وشيطان، والحكم، وغُراب، وحباب، وشهاب، فسماه: هشامًا، وسمى حربًا: سلمًا، وسمى المضطجع؛ المنبعث، وأرضًا تُسمَّى عَفِرة سماها: خضرة، وشعْب الضلالة سماه؛ شِعْب الهدى، وبنو الزِّنية سماهم: بنو الرشدة، وسمى بنى مُغْوية بنى رِشْدة».

● ومن معانى الجمال؛ الحق والصدق.

أما الحق:

فإنه اسم من أسماء الله تعالى والله جميل وصفة الجميل جميلة، فالحق جميل، وكل حق جميل فى ذاته، وتجمل ممارسته، والحق هو الثابت الذى لا يسوغ إنكاره.

والحق يقابله الباطل.

وأما الصدق فهو مطابقة الحكم للواقع، وذلك معنى من معانى الجمال، أو هو قول الحق فى مواطن الهلاك.

---

(١) أطلق الرسول ﷺ الغلام على العبد الرقيق.

(٢) أثم: أى: أهُنا.

وللإمام القشيرى تعريف للصدق يقول فيه:

«الصدق ألا يكون فى أحوالك شَوْب، ولا فى اعتقادك ريب، ولا فى أعمالك عيب»، وكل ذلك جمال أو فى غاية الجمال.

والصدق ضد الكذب.

● وقد ورد الحق فى السنة النبوية فى أحاديث عديدة، عند التأمل فيها وتدبر معانيها نجدها من معانى الجمال، نذكر بعضها فيما يلى:

– روى أحمد بسنده عن عمرو بن الجموح رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا يَحق العبد حقَّ صريح الإيمان حتى يحب لله تعالى ويبغض لله، فإذا أحب لله تبارك وتعالى وأبغض لله تبارك وتعالى فقد استحق الولاء من الله، وإن أوليائى من عبادى وأحبائى من خلقى الذين يُذكرون بذكرى وأُذكر بذكرهم».**

– وروى البخارى بسنده عن معاذ رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: **«يا معاذ أتدرى ما حق الله على العباد»** قال: الله ورسوله أعلم، قال: **«أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، أتدرى ما حقهم عليه؟** قال: الله ورسوله أعلم، قال: **«ألأ يعذبهم»**.

– وروى النسَّائى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ثلاثة حق على الله عز وجل عونهم، المكاتَبُ[1] الذى يريد الأداء، والناكح الذى يريد العفاف، والمجاهد فى سبيل الله».**

– وروى أحمد بسنده عن رجل من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ عن النبى ﷺ قال: **«ثلاث حقٌ على كل مسلم؛ الغسل يوم الجمعة والسواك، ويَمَسَ من طيب إنْ وَجَد».**

وفى هذا الحديث الشريف من الجمال طهارة الجسم والفم والتطيب وكل ذلك من السنن.

– وروى البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان النبى ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: **«اللهم لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد لك ملك السموات والأرض، ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق وقولك**

---

(١) المكاتب: عبدٌ كاتب سيده ومالكه على أن يدفع له مالاً مسمًّى بينهما ليتحرر بذلك من العبودية، ومساعدة المكاتب على أن يؤدى ما عليه لينال الحرية قربة إلى الله تعالى – وذلك نظام قديم يوم كان هناك رق أما اليوم فلا رقيق فى الظاهر وإن كان موجوداً فى الخفاء.

حق، والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد ﷺ حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت، وبك خاصمت وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت».

– وروى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«للمسلم على المسلم خمس؛ رد السلام، وزيارة المريض، واتباع الجنازة، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس».**

● ومن خلال تدبر هذه الأحاديث النبوية وأمثالها مما ورد فيها لفظ الحق بمعنى الجمال ندرك عدداً من الحقائق:

منها:

أنَّ من صفات الجمال والكمال والرحمة عند الله أن يجعل لعباده حقوقًا عليه سبحانه إن أطاعوه وأطاعوا رسوله أن يثيبهم ولا يعذبهم.

وأنّ من صفات الجمال ومحاولة الكمال عند الناس أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئًا، وأن يخلصوا عبادته ويتوجهوا إليه بخالص أعمالهم، وأن يتوكلوا عليه ويطلبوا العون منه، وذلك من أجمل صفات الإنسان.

وأن هناك حقًا على العبد نحو نفسه هو أن يلزمها طاعة الله ورسوله بامتثال أمره واجتناب ما نهى عنه، وليس أجمل بالإنسان من أن يكون في طاعة الله.

وأن على كل إنسان حقًا نحو أخيه في الإنسانية الا يظلمه ولا يتعدى على ماله أو عرضه، وحقًا نحو أخيه المسلم أن يحبه في الله وأن يعامله بمقتضى شرع الله تعالى ومنهجه ونظامه، ولا شك أن ذلك يضفي على صاحبه جمالاً، بل يضفي على الحياة كلها أنواعًا من الجمال، مما يؤكد أن كل حق ينتمي إلى الجمال.

وأما الصدق فهو كالحق جميل، و ليس من المبالغة القول بأن كل صدق جمال في الصادق، وأن من معاني الجمال الصدق على كل مستوياته وأنواعه، صدق القول وصدق العمل وصدق الموقف.

وقد ورد الصدق في الأحاديث النبوية مرات عديدة، وفي كل حديث ورد فيه الصدق فإنه يحمل معنى من معاني الجمال، ومن تلك الأحاديث النبوية:

– روى البخارى بسنده عن طلحة بن عبيد الله أن أعرابيًا جاء إلى رسول الله ﷺ ثائر الرأس فقال : يا رسول الله : أخبرنى ماذا فرض الله علىّ من الصلاة؟ قال : **«الصلوات الخمس إلا أن تطوع شيئًا»** فقال : أخبرنى ما فرض الله علىّ من الصيام؟ قال : **«شهر رمضان إلا أن تطوع شيئًا»** قال : أخبرنى بما فرض الله علىّ من الزكاة؟ فأخبره رسول الله ﷺ بشرائع الإسلام . قال – أى الأعرابى السائل – : والذى أكرمك ، لا أتطوع شيئًا ولا أنقص مما فرض الله علىّ شيئًا ، فقال رسول الله ﷺ : **«أفلح إن صدق ، وأدخل الجنة إن صدق»** .

– وروى ابن ماجه بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **«ألا وإياكم والكذب ، فإن الكذب لا يصلح [1] بالجد ولا بالهزل ، ولا يعد صَبِيّه[2] ثم لا يفى له ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وإن الصدق يهدى إلى البرّ ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وإنه يقال للصادق صدق وبرّ ، ويقال للكاذب ؛ كذب وفجر ، ألا وإن العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذابًا»** .

– وروى مسلم بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **«عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا»** .

– وروى أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : **«أربع إذا كُنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا ؛ حفظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خليقة ، وعفة فى طعمة»** .

وتلك الأحاديث النبوية التى ذكرناها موضوعها صدق القول وصدق العمل ، ولا شك أن كلاً منهما جميل فى ذاته ، وجميل فيمن يقوم به ، فالصدق فى هذه الأحاديث الشريفة جمال فى الخلق وفى السلوك .

وأما صدق الموقف أى الثبات على الحق حِسْبَةً لوجه الله تعالى فوردت فيه أحاديث نبوية كثيره منها :

– روى النسائى بسنده عن شداد بن أوس رضى الله عنه أنّ رجلاً من الأعراب جاء إلى النبى

(١) أى لا يحل ولا يجوز.
(٢) أى : صغيرهُ أو طفلهُ.

ﷺ ؛ فآمن به واتبعه ثم قال: أهاجر معك، فأوصى به النبى ﷺ بعض أصحابه، فلما كانت غزوةٌ وغنم النبى ﷺ سبيًا [1]، فقسم، وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قسمٌ قسمه لك النبى ﷺ، فأخذه فجاء به النبى ﷺ فقال: ما هذا؟ قال: «**قسمتُه لك**» قال: ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أُرمى إلى ههنا – وأشار إلى حلقه – بسهم فأموت فأدخل الجنة، فقال: «**إن تَصْدُق الله يَصْدُقْك**»، فلبثوا قليلاً ثم نهضوا فى قتال العدو، فأُتى به النبى ﷺ يُحْمَل، وقد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبى ﷺ: «**أهو هو**»؟ قالوا: نعم، قال: «**صدق الله فصدقه**»، ثم كفنه النبى ﷺ فى جبة النبى ﷺ، ثم قدَّمه فصلى عليه، فكان فيما ظهر من صلاته: «**اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً فى سبيلك فقتل شهيداً، أنا شهيد على ذلك**».

فهذا رجل صدق فى موقفه مجاهداً فى سبيل الله حتى ينال إحدى الحسنيين، النصر أو الشهادة فى سبيل الله، صدق الله فى عمله هذا فصدقه الله فأناله الشهادة فى سبيله.

وليس هناك جمال أروع من صدق الموقف والثبات على الحق.

– وروى ابن ماجه بسنده عن محمد بن عمرو بن أبى سلمة عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان يأتى على آل محمد ﷺ الشهر ما يُرى فى بيت من بيوته الدخان، قلتُ:[2] فما كان طعامهم؟ قالت: الأسودان؛ التمر والماء، غير أنه كان جيران من الأنصار جيران صدق، وكانت لهم ربائب[3] فكانوا يبعثون إليه ألبانها، قال محمد:[4] وكانوا تسعة أبيات».

ورواه أحمد بسنده عن عائشة رضى الله عنها.

– وروى أحمد بسنده عن هشام بن عروة عن أبيه – الزبير – رضى الله عنهم عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما، قالت: تزوجنى الزبير – بن العوام – وما له فى الأرض من مال ولا مملوك ولا شىء غير فرسه، قالت: فكنت أعلف فرسه وأكفيه مئونته وأسوسه، وأدق النوى لناضحه، وأعلف، وأستقى الماء، وأغرز غربه[5]، وأعجن ولم أكن أحسن أخبز،

---

(١) السَّبىَ: المأسور فى الحرب من رجل أو امرأة، وقد أمر الإسلام بحسن معاملتهم، والسبيَّة من النساء تجمع على سبايا.

(٢) القائل هو أبو سلمة رضى الله عنه، والسؤال منه موجَّه إلى عائشة رضى الله عنه.

(٣) الربائب هنا: الأغنام.

(٤) هو: محمد بن عمرو بن أبى سلمة.

(٥) الغرب: الدلو تتخذ من الجلد، وغرزها خياطتها.

فكان يخبز لى جارات من الأنصار، كنّ نسوة صدق، وكنت أنقل النّوى من أرض الزبير الذى أقطعه إياها رسول الله ﷺ وهى منى على ثلثى فرسخ- والفرسخ يقَدر بثلاثة أميال – قالت: فجئت يومًا والنوى على رأسى فلقيت رسول الله ﷺ ومعه نفر من أصحابه فدعانى، ثم قال: أخ أخ ليحملنى خلفه، قالت: فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرتُ الزبير وغيرته، قال: وكان أغير الناس، فعرف رسول الله ﷺ أنى قد استحييت فمضى، وجئت الزبير فقلت: لقينى رسول الله ﷺ وعلى رأسى النوى ومعه نفر من أصحابه فأناخ لأركب معه فاستحييت وعرفتُ غيرتك. فقال: والله لحملك النوى أشد علىّ من ركوبك معه، قالت: حتى أرسل إلىّ أبو بكر بعد ذلك بخادم فكفتنى سياسة الفرس فكأنما اعتقتنى».

– وروى ابن ماجه بسنده عن أبى قتادة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على هذا المنبر: «**إياكم وكثرة الحديث عنى، فمن قال علىّ فليقل حقًا أو صدقًا ومن تقوّل علىّ ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار**».

– وروى أحمد بسنده عن الحسن بن علىّ رضى الله عنهما قال: كان النبى ﷺ يقول: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، وإن الكذب ريبة**».

ورواه الترمذى بسنده عن الحسن رضى الله عنه أيضًا.

– وروى أحمد بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الشهداء أربعة؛ رجل مؤمن جيد الإيمان لقى العدو فصدق الله فقُتل، فذلك الذى ينظر إليه الناس هكذا**، ورفع رأسه حتى سقطت قلنسوة رسول الله ﷺ – أو قلنسوة عمر رضى الله عنه – والثانى: **رجل مؤمن لقى العدو فكأنما يضرب ظهره بشوك الطلح جاء سهم غرب[1] فقتله، فذلك فى الدرجة الثانية، والثالث: رجل مؤمن خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا؛ لقى العدو فصدق الله عز وجل حتى قُتل، فذلك فى الدرجة الثالثة، والرابع: رجل مؤمن أسرف على نفسه إسرافًا كثيراً لقى العدو فصدق الله حتى قُتل، فذلك فى الدرجة الرابعة**».

– وروى أحمد بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: جاء جبريل عليه السلام إلى النبى ﷺ، فقال: يا محمد ما الإسلام؟ فقال: «**تعبد الله ولا تشرك به شيئًا وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان، وتحج البيت**»، قال: فإذا فعلتُ ذلك فأنا مسلم؟

(١) أى حادٌ وسريع.

قال : «نعم» قال : صدقت، قال : فما الإحسان؟ قال : «تخشى الله كأنك تراه، فإن لاتكُ تراه فإنه يراك» قال : فإذا فعلت ذلك فأنا محسن؟ قال : «نعم» قال : صدقت، قال : فما الإيمان؟ قال : «تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنة والنار والقدر كله» قال : فإذا فَعَلت ذلك فأنا مؤمن؟ قال : «نعم» قال : صدقت» .

– وروى أحمد بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان، وجعل قلبه سليمًا ولسانه صادقًا ونفسه مطمئنة، وخليقته مستقيمة، وجعل أذنه مستمعة وعينه ناظرة، وقد أفلح من جعل قلبه واعيًا» .

– وروى أحمد بسنده عن شداد بن أوس رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات ندعو بهن فى صلاتنا– أو قال : فى دبر صلاتنا – : «اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر، وعزيمة الرشد، وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك، وأسألك قلبًا سليمًا ولسانًا صادقًا، واستغفرك لما تعلم، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم» .

■■■■

٢ - الفن بمعناه فى السنة النبوية المطهرة

لم ترد كلمة الفن بلفظها ولا بما اشتق منها فى السنة النبوية المطهرة، كما لم ترد بلفظها ولا بما اشتق منها فى القرآن الكريم كما ذكرنا ذلك آنفًا.

لكنها وردت بمعناها فى القرآن الكريم كما بينا ذلك آنفًا، ووردت بمعناها فى السنة كما سنوضح الآن.

وإذا كان الفن – كما قلنا غير مرة – هو التعبير الجمالى عن المدركات والعواطف، ونقل المعانى إلى الآخرين عن طريق إنتاج العمل الذى يتميز بالصنعة المتقنة والمهارة الجيدة التى تبذل لإنتاج عمل جميل، فإنه بهذا المعنى قد ورد فى السنة النبوية كثيراً، كما سنذكر بعد قليل.

إن الفن يرتبط بالعمل والإجادة والقدرة على جذب إعجاب من يشاهده لما فيه من جمال.

وإن السنة النبوية منهاج حياة للمسلم فى يومه وليلته وعمره كله، بل هى منهاج لتصحيح الحياة الدنيا كلها وإخلائها من القبح والشر والباطل، وملئها بالجمال والخير والحق، من أعمال صالحة جيدة يرضى الله عنها لموافقتها شرعه ومنهاجه.

وكل مسلم مطالب بأن يجيد أى عمل يقوم به ويتقنه ويبذل فيه كل ما فى وسعه من قدرة على أن يكون عمله متقنًا جيداً جميلاً، وليس لواحد من المسلمين أن يعيش بغير عمل يمارسه، إذ العمل ضرورة للحياة الإنسانية الكريمة، وترك العمل مع القدرة عليه بطالة وإهدار طاقة، وقبول لأن يعيش الإنسان عالة على غيره. وذلك ما حظره الإسلام على المسلمين.

والعمل الذى طولب به كل مسلم هو صنعة أو حرفة يمارسها وفق شرطين جوهريين هما:

– أن تكون مشروعة أى ليس مما حرم الله ممارسته.

– وأن تكون جيدة متقنة داخلة فى الإحسان الذى كتبه الله تعالى على كل شيء.

وإنما كان هذان الشرطان لأن الله تعالى أمر بالعمل وأمر بإجادة العمل وإتقانه، فقد قال الله تعالى: ﴿ ... **فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ** ... ﴾ [البقرة: ١٤٨].

– وروى الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«بادروا بالأعمال الصالحة...»** والعمل الصالح لابد أن يكون جيداً متقناً أحسن عامِلُه فيه.

– وروى البيهقي – في الشعب – بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»**.

– وروى مسلم بسنده عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحدّ أحدكم شفرته وليرح ذبيحته»** ورواه الأربعة[1] وأحمد.

– وروى البيهقي – في الشعب – بسنده عن كليب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله يحب من العامل إذا عمل أن يحسن»**.

– وروى البخاري بسنده عن المقدام رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما أكل أحدٌ طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود –عليه السلام– كان يأكل من عمل يده»**.

● هذه الأحاديث النبوية الخمسة التي ذكرنا وغيرها مما يماثلها تؤكد عدداً من الحقائق التي تتصل بحياة المسلمين وترسم أبعادها ومن تلك الحقائق:

– أن المسلمين جميعاً مطالبون بأن يعملوا، ومحظور عليهم أن يتبطلوا أو أن يعيشوا عالة على الناس، إلا من عجز منهم عن العمل.

– وأن المسلمين مطالبون بأن يتقنوا ما يقومون به من عمل وأن يحسنوه على قدر ما في استطاعتهم، حتى يخرج العمل جيداً وجميلاً.

– ومع وجوب العمل ووجوب الإتقان تأتي أعمال المسلمين أعمالاً جميلة تسر من يراها ومن تعمل من أجله، فتتحقق للناس متعة عقلية فنية جمالية، فضلاً عن أنها أعمال تسهم في أداء وظيفي لمطالب الإنسان في الحياة.

ومعنى ذلك أن الفن بمعناه الذي هو الصنعة والحرفة بشرط الإتقان والإحسان مطلب شرعي بالنسبة لكل مسلم حريص على الالتزام بقيم دينه.

---

(١) الأربعة هم: البخاري والترمذي وأبو داود والنسائي.

وسوف نذكر من السنة النبوية بعض الأحاديث الشريفة التى تعزز وتؤكد وجوب العمل صناعة أو زراعة أو تجارة أو نحوها، وتؤيد وجوب الإتقان والإحسان.

- روى الإمام أحمد بسنده عن رائطة[1] امرأة عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه وعنها - وكانت امرأة صناعًا[2] وكانت تبيع وتتصدق، فكانت تنفق عليه وعلى ولده من صنعتها، قالت: فقلت لعبد الله بن مسعود - رضى الله عنه -: لقد شغلتنى أنت وولدك عن الصدقة، فما أستطيع أن أتصدق معكم بشيء، فقال لها عبد الله: والله ما أحب إن لم يكن فى ذلك أجر أن تفعلى، فأتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله: إنى امرأة ذات صنعة أبيع منها، وليس لى، ولا لولدى، ولا لزوجي نفقة غيرها، وقد شغلونى عن الصدقة، فما أستطيع أن أتصدق بشيء، فهل لى من أجر فيما أنفقت؟ فقال لها رسول الله ﷺ: **«أنفقى عليهم فإن لك فى ذلك أجر ما أنفقت عليهم»**.

- وروى ابن ماجة بسنده عن أم سلمة رضى الله عنها، قالت: أمرنا رسول الله ﷺ بالصدقة، فقالت زينب[3] امرأة عبد الله بن مسعود: أيجزينى من الصدقة أن أتصدق على زوجي وهو فقير، وبنى أخ لى أيتام وأنا أنفق عليهم هكذا وهكذا وعلى كل حال، قال: **«نعم»** وكانت صناع اليد.

ورواية أخرى لابن ماجه بسنده عن عمرو بن الحارث بن المصطلق ابن أخى زينب امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وعنها قالت: سألت رسول الله ﷺ: «أتجزى عنى من الصدقة والنفقة على زوجي وأيتام فى حجرى؟ قال رسول الله ﷺ لها: **«لك أجران أجر الصدقة وأجر القرابة»**.

- وروى البخارى بسنده عن سعيد بن أبى الحسن قال: كنت عند ابن عباس رضى الله عنهما، إذ أتاه رجل، فقال: يا أبا العباس: أنا إنسان إنما معيشتى من صنعة يدى، وإنى أصنع هذه التصاوير، فقال ابن عباس رضى الله عنهما: لا أحدثك إلا ما سمعت من رسول الله ﷺ، سمعته يقول: **«مَنْ صور صورة فإن الله معذبه حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ فيها أبدًا»** فَرَبا[4] الرجل ربوة شديدة واصفر وجهه، فقال له ابن عباس رضى الله

---

[1] رائطة: تذكر في بعض الكتب باسم ريطة، وهى بنت عبد الله بن معاوية، من ثقيف، وأحيانًا تذكر باسم: زينب..

[2] صناع: أى تجيد صنعةً وتحترفها.

[3] هى ريطة أو رائطة.

[4] ربا: من معانيها انتفخ من فزع،كان الرجل فزع لما علم أن الرسول ﷺ نهى عن التصاوير وهى مهنة الرجل وحرفته التى منها معيشته.

عنهما: ويحك إن أبيت إلا أن تصنع، فعليك بهذا الشجر، وكل شيء ليس فيه روح »
وبفتوى ابن عباس رضى الله عنهما يجوز تصوير ما ليس فيه روح، وعلى ذلك اعتمد الذين أجازوا تصوير – أى رسم – ما ليس فيه روح.

– وروى البخارى بسنده عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال: «بعث رسول الله ﷺ إلى امرأةٍ أن مُرى غلامك النجار يعمل لى أعوادًا أجلى عليهن» يقصد المنبر.

– وروى البخارى بسنده عن جابر رضى الله عنه أن امرأة قالت: يا رسول الله ألا أجعل لك شيئًا تقعد عليه، فإن لى غلامًا نجارًا، قال: «إن شئت» فعملت المنبر.

– وروى أحمد بسنده عن سهل بن سعد رضى الله عنه أنه سُئل عن المنبر؛ من أى عود هو؟ قال: أما والله إنى لأعرف من أى عود هو؟ وأعرف مَنْ عمله، وأى يوم صُنع وأى يوم وُضع، ورأيت النبى ﷺ أول يوم جلس عليه: أرسل النبى ﷺ إلى امرأة لها غلام نجار، فقال لها: «مُرى غلامك النجار أن يعمل لى أعوادًا أجلس عليها إذا كلمت الناس، فأمرته فذهب إلى الغابة فقطع طرفَاء[1] فعمل المنبر ثلاث درجات فأرسلت به إلى النبى ﷺ، فوضع فى موضعه هذا الذى ترون، فجلس عليه أول يوم وضع فكبر هو عليه ثم ركع ثم نزل القهقرى فسجد وسجد الناس معه، ثم عاد حتى فرغ، فلما انصرف قال: «أيها الناس، إنما فعلت هذا لتأتموا بى ولتعلموا صلاتى» فقيل لسهيل رضى الله عنه: كان من شأن الجذع ما يقول الناس؟ قال: قد كان منه الذى كان.

– وروى أحمد بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما قال: كان جذع نخلة فى المسجد يسند رسول الله ﷺ ظهره إليه إذا كان يوم جمعة، أو حدث أمْر يريد أن يكلم الناس، فقالوا: ألا نجعل لك يا رسول الله شيئًا لِقدْرِ قيامك؟ قال: « لا عليكم أن تفعلوا » فصنعوا له منبرًا ثلاث تراقٍ، قال: فجلس عليه، فَخَارَ الجذع كما تخور البقرة جزعًا على رسول الله ﷺ، فالتزمه ومسحه حتى سكن.

– وروى أبو داود بسنده عن سمرة رضى الله عنه أنه كتب إلى ابنه: (٢)
أما بعد: فإن رسول الله ﷺ كان يأمرنا بالمساجد أن نصنعها فى ديارنا، ونصلح صنعتها ونطهرها.

---

(١) الطرفاء: جنس من النبات منه أشجار، ومن أشجاره: الأثل.
(٢) الذى كتب هو سمرة رضى الله عنه، والمكتوب إليه هو ولد سمرة رضى الله عنه.

والمعنى أنه ﷺ كان يأمرهم أن يصنعوا في داخل ديارهم مكانًا يتخذونه مسجداً وأن يحسنوا صنعته ويتعهدوه بالنظافة والتطهر، وكان الرجال يصلون في هذا المسجد بعض النوافل وتصلي فيه النساء، لأن صلاتهن في بيوتهن أفضل من صلاتهن في المساجد العامة.

– وروى أبو داود بسنده عن عائشة رضي الله عنها، قالت: أمر رسول الله ﷺ **ببناء المساجد في الدور وأن تنظف وتُطيَّب».**

والبناء في هذا الحديث كالصناعة في الحديث السابق.

– وروى الإمام مالك بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«للمملوك طعامه وكسوته، ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق».**

والمعنى أن كلاً من الناس له عمل على قدر ما يطيق حتى لو كان مملوكًا، فليس معنى رِقِّه أن يكلف بعمل فوق طاقته.

– وروى الإمام مالك بسنده عن عمه سهيل بن مالك[1] عن أبيه – مالك – أنه سمع عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو يخطب وهو يقول: لا تكلفوا الأمَةَ غير ذات الصنعة الكسْب، فإنكم متى كلفتموها ذلك كسبت بفرجها، ولا تكلفوا الصغير الكسب فإنه إذا لم يجد سرق، وعفّوا إذ أعفكم الله، وعليكم من المطاعم بما طاب».

– وروى أحمد بسنده عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: **«كان في بني اسرائيل امرأة قصيرة، فصنعت رجلين من خشب، فكانت تسير بين امرأتين قصيرتين، واتخذت خاتمًا من ذهب وحشتْ تحت فصه أطيب الطيب المسك، فكانت إذا مرت بالمجلس حركته فنفخ ريحه».**

وفي رواية لأحمد عن أبي سعيد أيضاً رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ ذكر الدنيا فقال: **«إن الدنيا خضرة حلوة فاتقوها واتقوا النساء، ثم ذكر نسوة ثلاثًا من بني اسرائيل، امرأتين طويلتين تعرفان، وامرأة قصيرة لا تعرف، فاتخذت رجلين من خشب، وصاغتْ خاتمًا فحشته من أطيب الطيب المسك، وجعلت له غَلَقًا فإذا مرت بالملأ أو المجلس قالت به[2] ففتحته ففاح ريحه».**

وبعد سرد هذه الأحاديث النبوية الشريفة، نعود فنؤكد أن هذه الأحاديث النبوية

---

(١) الإمام مالك هو مالك بن أنس بن مالك وعمه سهيل أخو أبيه أنس.

(١) قالت به: أي حركته وفتحته.

وأمثالها توضح لنا أن العمل مطلب شرعى إنسانى لا تقوم الحياة إلا به، وأن هذا العمل يعتبر عبادة لله تعالى مادام الإسلام قد أمر به وجعله من أسباب الرزق والعيش، وأنه عمل يثاب فاعله إن كان من الخير، ويعاقب فاعله إن كان من الشر، لأن الله تعالى يقول: ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

وهذا العمل يتنوع فى كل مجتمع على نحو ما تقتضيه طبيعة هذا المجتمع وقربه أو بعده من حياة المدينة أو القرية، وأن أبرز أنواع هذا العمل هو ما يسد حاجة الناس ويؤمن حياتهم.

والصنعة أو الحرفة قادرة فى كل وقت أن تفى بحاجات الناس، وأن الرجل والمرأة فى احتراف الحرف سواء، وإن تلك المرأة التى وصفت بأنها صناع اليد، وأنها تنفق من صنعة يديها على زوجها وأولادها وأيتام فى حجرها ليست بدعا فى نساء عصرها، وإنما شاركها فى ذلك عديد من النساء.

وكلمة صناع اليد تؤكد أنها تجيد صنعتها وتتقنها وتدخل بها فى مجال الفن من حيث الجودة والنفع والجمال، ولذلك أقبل الناس على ما تصنع فباعت وربحت وأنفقت وتصدَّقت.

وهذه الصناعات والحرف المتقنة الجيدة تعبير جمالى عن المدركات والعواطف فى أى مجتمع، وهى تسهم إلى جوار ذلك فى نقل المعانى والقيم والمهارات إلى الآخرين.

وقد سبق لنا الحديث عن الحرفة فى القرآن الكريم وهناك أكدنا أن الأنبياء جميعا ومنهم خاتمهم ﷺ كانوا أهل حرف، وهناك استشهدنا على تلك الحرف لأنبياء الله عليهم السلام ببعض آيات القرآن الكريم وببعض الأحاديث النبوية الشريفة، مما يقطع بأن الحرفة عمل لا يعاب ولا يستحى منه - كما تسرب ذلك إلى بعض الناس فأنفوا من الحرف، جاهلين أو متجاهلين لما تعود به الحِرف على المجتمع كله من خير واستجابة لمتطلبات الحياة الإنسانية. ولقد عبَّر الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن تقديره لمن كان ذا حرفة فإن لم يكن صاحب حرفة سقط من عينه.

ومن نافلة القول أن نؤكد أن فى الحرفة فوائد عديدة منها:

- أنها مصدر للرزق ولكسب العيش بعمل شريف.

- وأنها وقاية من البطالة والتعطل وسؤال الناس.

– وأنها تسهم فى تأمين حاجات المجتمع.

– وهى مجال لكسب ثواب الله تعالى إن كان يحترف لكى ينفق على نفسه أو أبويه الضعيفين أو ذرية ضعاف ويؤكد هذا حديث رسول الله ﷺ.

– فقد روى الطبرانى – فى معاجمه الثلاثة[1] بسنده عن كعب بن عجرة رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ جالسا مع أصحابه ذات يوم فنظروا إلى شاب ذى جلد وقوة، وقد بكر يسعى، فقالوا: وَيحْ هذا لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله!! قال رسول الله ﷺ: **«لا تقولوا هذا، فإنه إن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة ويغنيها عن الناس فهو فى سبيل الله، وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعافا ليعينهم ويكفيهم فهو فى سبيل الله، وإن كان يسعى تفاخراً وتكاثرا فهو فى سبيل الشيطان»**.

● ونحاول فى هذه الصفحات أن نجمع من أحاديث النبى ﷺ ما فيه إقرار للحرفة بوصفها مجال عمل وكسب للرزق، أو ما فيه إشادة بالحرفة والمحترفين، أو ما فيه تصريح بأن خير ما يكسب الإنسان وخير ما يأكل هو ما كان من حرفة يده، وقد ذكرنا بعض هذه الأحاديث فى مجال آخر من هذا المبحث.

مع تذكيرنا بما سبق أن أثبتناه من الأحاديث النبوية ونحن نتحدث عن الحرفة فى القرآن الكريم، والله المستعان:

– روى الإمام مالك – فى الموطأ – بسنده عن يحيى بن سعيد أنه بلغه أن رسول الله ﷺ قال: **«ما على أحدكم أن يتخذ ثوبين لجمعته سوى ثوبَىْ مهنته»**.

والمهنة الحرفة وينبغى أن يكون لها ثوبان غير ثوبى صلاة الجمعة اللذين يأخذ المسلم بهما بزينته وهو ذاهب إلى المسجد.

– وروى الطبرانى – فى الكبير – بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: **«إن الله تعالى يحب العبد المؤمن المحترف»**.

– وروى النسائى بسنده عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«على كل مسلم صدقة، فإن لم يجد فيعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق، فإن لم يستطع فيعين ذا الحاجة الملهوف، فإن لم يفعل فيأمر بالخير، فإن لم يفعل فيمسك عن الشر، فإنه له صدقة»**.

---

(١) هى: المعجم الكبير والمعجم الأوسط والمعجم الصغير، وكلها فى السّنة.

ورواه البخارى ومسلم وأحمد بأسانيدهم عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه.

– وروى أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: **«خير الكسْب كسْب يد العامل إذا نصح»**(١).

– وروى أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سُئل رسول الله ﷺ عن أفضل الكسب، فقال: **«بيع مبرور، وعمل الرجل بيده»**. والبيع حرفة، وعمل اليد حرفة ومنهما يكون أفضل الكسب.

– وروى البيهقى– فى شعب الإيمان – بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»**.

– وروى البيهقى – فى الشعب أيضاً – بسنده عن كليب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله يحب العامل إذا عمل أن يحسن»**.

– وروى الترمذى بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: كان أَخَوَان على عهد النبى ﷺ؛ فكان أحدهما يأتى النبى ﷺ، والآخر يحترف، فشكا المحترف أخاه إلى النبى ﷺ، فقال له: **«لعلك تُرزق به»**.

أى ببركة مجيئه إلى النبى وحرصه على التفقه فى الدين.

– وروى البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: لَمّا استُخلِف أبو بكر الصديق – رضى الله عنه – قال: لقد علم قومى أن حرفتى لم تكن تعجز عن مئونة أهلى، وشُغِلتُ بأمر المسلمين؛ فسيأكل آل أبى بكر الصديق من هذا المال، ويحترف للمسلمين فيه».

ومن المعروف أن حرفة أبى بكر الصديق – رضى الله عنه – كانت التجارة.

– وروى أحمد بسنده عن جابر رضى الله عنه قال: كان معاذ يصلى مع رسول الله ﷺ ثم يرجع، فيؤُمّنا، وقال مرة: ثم يرجع فيصلى بقومه – فأخَّر النبى ﷺ ليلة الصلاة – وقال مرة العشاء – فصلَّى معاذ – رضى الله عنه – مع رسول الله ﷺ، ثم جاء قومه؛ فقرأ البقرة، فاعتزل رجل من القوم فَصلَّى؛ فقيل له: نافقتَ، فأتى النبى ﷺ، فقال: إن معاذاً يصلى معك ثم يرجع فيؤمنا يا رسول الله، وإنما نحن أصحاب نواضح نعمل بأيدينا، وإنه

---

(١) نصح فى عمله: أخلص فيه وأجاد.

جاء يؤمنا فقرأ سورة البقرة، فقال رسول الله ﷺ : «يا معاذ أفتَّان أنتَ، أفتان أنتَ، اقرأ كذا...».

وبعد هذه الجولة فى السنة النبوية نؤكد أن الفن بمعناه قد ورد فيها، على معنى أن الفن صنعة متقنة وحرفة أجاد صاحبها فيها وأحسن، مما يؤكد عمومية السنة النبوية واشتمالها على كل ما يحتاج إليه الإنسان من خير ، وتنبيهها على كل ما يجب أن يمتنع عنه الإنسان من شر، أو قعود عن العمل أو السعى على الرزق.

وذلك شأن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة دائمًا، وبهذا الشأن وبمثله مما ينفع الناس ويجلب لهم الخير ويدفع عنهم الشر، لذلك كان الكتاب والسنة دستور المسلمين فى كل عصر وفى كل مكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

■■■■

الفصل الثانى

الجمال والفن عند المسلمين

ويتناول :

التقديم

١ - الفرق بين مفهومى الفن الإسلامى، والفن عند المسلمين.

٢- تأثير الحضارات الأجنبية فى فنون المسلمين:

أ- الفُرس والتُرك وأثرهما فى فنون المسلمين.

ب- اليونان والروم والصليبيون وأثرهم فى فنون المسلمين.

٣- تأثير العثمانيين فى فنون المسلمين.

٤- فنون المسلمين فى التعبير عن الجمال:

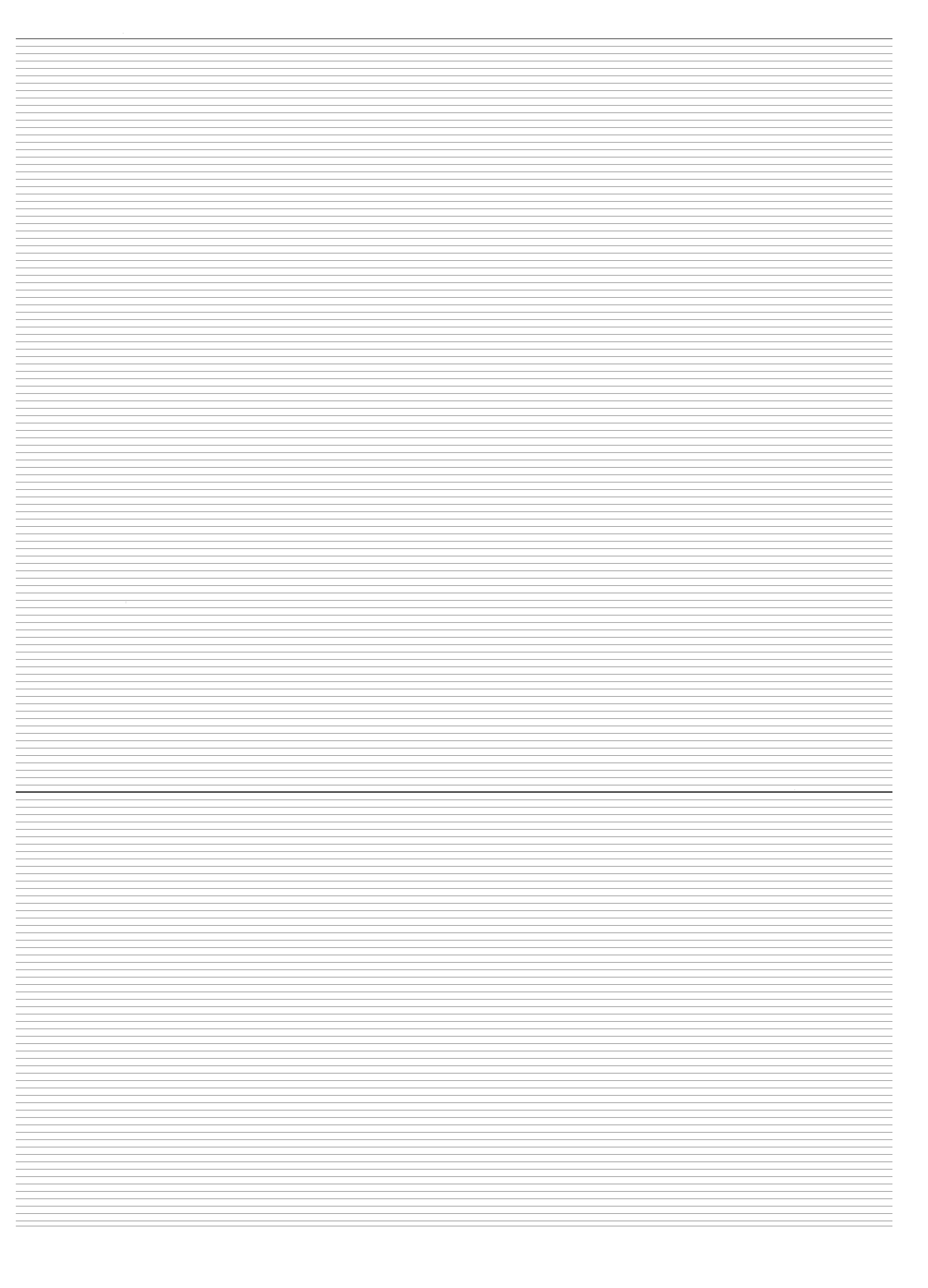
أ- فن التعبير عن الجمال بالكلمة.

ب- فن التعبير عن الجمال بأدوات التصوير، والزخرفة.

جـ- فن التعبير عن الجمال بأدوات النحت.

د- فن التعبير عن الجمال بالألحان والموسيقى.

هـ- فن التعبير عن الجمال بالهندسة المعمارية.



التقديم لهذا الفصل

أكدنا -فيما سبق من هذا الكتاب- أن الفنَّ أداة معرفة ذات أهمية خاصة فى حياة الإنسان، وهى معرفة تشبه المعرفة العلمية؛ لأن موضوع الفن وأنواعه، وموضوع العلم وأنواعه هو الخبرة الإنسانية، هذا وجه شبه بين الفن والعلم. وهناك وجه شبه آخر هو:

أن الفن فكر وإبداع، والعلم فكر وإبداع أيضا، حتى ليخطئ من يقول: إن الفن أو العلم يمكن تصورهما دون فكر وإبداع، وأشد خطأً من يقول: إن الفن أو العلم ليسا فى خدمة الحياة الإنسانية، وخدمة تطويرها نحو الأحسن والأكثر ملاءمة لحياة الإنسان.

إن الفن والعلم يستجيبان لحاجات الإنسان النفسية والعقلية والاجتماعية، بما يحققان له من متعة وفائدة، تتمثل المتعة بهما فى تحقيق اللذة والرضا، وتتمثل الفائدة منهما فى التغلب على مشكلات الحياة، ثم على تحسين مفردات الحياة الإنسانية فى كل زمان ومكان.

والعلم والفن من نعم الله تعالى على الإنسان، أنعم بهما عليه حين منحه نعمة العقل والوجدان ورقة المشاعر ورهافة الأحاسيس؛ ليعيش حياة إنسانية كريمة تناسب تكريم الله تعالى للإنسان بأن سخَّر له ما فى الأرض جميعًا، وبعض ما فى السموات، وفضّله على كثير ممن خلق، قال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا** ﴾ [الإسراء: ٧٠].

● إن الفن عمل إبداعى يتناول عديداً من الفنون مثل:

- الشعر والنثر الفنى والقصة وسائر فنون التعبير عن الجمال بالكلمة.
- والتصوير بكل أنواعه، والزخرفة بسائر أنواعها من فنون التعبير عن الجمال بالشكل.
- والنحت على الحجر أو الخشب باستعمال آلات النحت وأدواته للتعبير عن الجمال الذى أحسه الإنسان وأراد أن يعبر عنه.
- والألحان والموسيقى للتعبير عن جمال الطبيعة وجمال ما فيها من أصوات، ومسموعات.
- والهندسة المعمارية فى المعابد والقصور والمقابر، للتعبير بذلك عما يرغب فيه الإنسان من جمال فى مسكنه وملعبه ومقره الأخير.

والإنسان وهو يبدع هذه الفنون إنما يحاول من خلالها أن يحقق لنفسه ولغيره متعة من خلال إحداث توازن وانسجام بينه وبين ما يحيط به من أشياء وناس وأحداث، وطبيعة تقهره أحيانًا، وتبهره أحيانًا أخرى، وتحيره وتعجزه عن فهمها في كثير من الأحيان.

وهذا التوازن والانسجام بين الإنسان والحياة هو هدف الفن بمختلف أنواعه، وعند سائر الناس وفى كل زمان ومكان، لذلك نرى الفن من ضرورات الحياة الإنسانية وفروضها وليس أبدا من كمالياتها أو نوافلها، فى أى بيئة يعيش فيها الإنسان.

ولقد كان ذلك شأن الإنسان وشأن عطاءاته الفنية منذ أقدم أيام التاريخ، لا يحاكى الطبيعة -كما يقول بعض الناس- ولكن يجعل بينه وبين الطبيعة تواؤمًا وتوازنًا ليحقق لنفسه نوعًا من الطمأنينة والرضا.

نجح الإنسان فى إحداث هذا التواؤم والتوازن حينا، وفشل أحيانًا، وعند فشله وقف عاجزًا عن فهم ما يحيط به من مفردات هذا الكون ومخلوقاته العديدة، فالتجأ فى حقبة متقدمة من عمره إلى الفلسفة لعلها تذهب عنه هذا العجز عن الفهم أو تذهب بعضه، ثم مزج بين الفلسفة وفنه أو فنونه لعله يهتدى، على الرغم مما بين الفلسفة والفن من تباين فى وسائل التعبير، بل وفى الأهداف، لكنه حاول هذا المزج ليخرج من دائرة الجهل بمفردات الكون، ولكن هيهات هيهات لما مَنَّى به نفسه.

غير أن مزجه بين فنه الذى هو خيالى والفلسفة التى هى ذهنية عقلية لم يعدمه فائدة هامة هى أنه استعان بالفلسفة على اختيار موضوع فنه، وانتخاب موادّه وانتقاء وسائله، لأن الفنان وهو يمارس عمله الفنى إنما ينقد الحياة والوجود إذ ينظر إلى كل ما حوله نظرة فنية ناقدة شديدة القرب من نظرة الفلسفة إلى الكون والحياة؛ لأن الفيلسوف وإن كان يقوم من خلال فلسفته بتفسير الكون والحياة الإنسانية محللا ومدققا ومفكرًا ومُعلّلاً ومُدلّلاً إلا أنه لا يستطيع أن يتجاهل الفن وبخاصة فى جانبه الأخلاقى وتعبيره عن العواطف الإنسانية.

وإذا بدا أن بين الفلسفة والفن تضاربًا شكليًا يتمثل فى أن الفلسفة تُعلى من شأن الروح أكثر من عنايتها بالجسد أو على حسابه فى بعض الأحيان، وتهتم بالمعنوى أكثر من اهتمامها بالمادى، الفلسفة تفعل ذلك بينما الفن يفعل عكسه، فيهتم بالجسد وبالمادة اهتمامًا ملحوظًا؛ فإن الفلسفة والفنّ يلتقيان عند نقطة محورية هى أن موضوعهما أو موضوعاتهما هى كل ما يتصل بالإنسان والوجود.

ولقد دأبت الإنسانية وبخاصة مفكروها وفنانوها؛ منذ عصور سحيقة على أن تمزج بين الفن والفلسفة حينا، وأن تفصل بينهما حينا آخر، بهدف استجلاء حقيقة الكون والحياة الإنسانية، وظلت هذه حالها لا تنجح فى الاهتداء إلى حقيقة الكون والحياة ولا إلى مكانة الإنسانية فى هذا الكون والحياة، إلى أن مَنّ الله تعالى عليها بالأديان السماوية وبالأنبياء والرسل والكتب، لتعرف الإنسانية عن الحياة والكون ما لا بد لها أن تعرفه لتعيش حياتيها الدنيا والآخرة، ولتدرك أنها ليست فى صراع مع الكون والحياة. وإنما ينبغى أن تكون على وئام مع كل ذلك.

ومن المؤكد أن هذا شأن الدين الذى يساويه بعض الغافلين بالعلم والفن، بل إن بعض من كان منهم أشد غفلة وأبعد عن الصواب والهدى يفضل العلم والفن على الدين، ويتهم الدين بما يفعله بعض من يسمون أنفسهم رجال الدين من أخطاء أو خطايا، والدين برىء من هؤلاء وما يفعلون؛ فما كان دين من عند الله يرضى الظلم والاحتكار وبيع صكوك الغفران وقراريط من الجنة أو نحو ذلك.

- إن الله تعالى جعل للأديان السماوية التى أنزل كتبها على رسله عليهم السلام، جعل لهذه الأديان الكلمة الفصل فى كل القضايا ذات الصلة بالإنسان فى حياتيه الدنيا والآخرة.

وقد شاء الله تعالى أن يكون الدين الإسلامى خاتم الأديان؛ وأتمها وأكملها وأبعدها من التحريف والتبديل وأفضلها للتعامل مع الكون وخالق الكون سبحانه، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر، والإنسان نفسه خيِّراً أو شرِّيراً، بل أفضلها للتعامل مع الشيطان وما يوسوس به من شر وإثم.

- لقد أراد الله تعالى أن يكون آخر أديانه كاملاً شاملا مستوعبا لكل ما يحتاج إليه الإنسان فى معاشه ومعاده، فى صورة جيدة متكاملة تعترف بأن للإنسان مطالب مشروعة بوصفه مخلوقًا من روح وجسد، ومشمولا بنعمتى العقل والوحى، ومحاطا بنعمة الإيمان وما يهدى إليه الإيمان من قيم خلقية تحكم كل مفردات الحياة الإنسانية، وتحتكم إلى الشريعة الخاتمة الكاملة، فتحقق لها كل احتياجاتها الروحية والعقلية والمادية بحيث لا يطغى فيها جانب على آخر، وإنما تحقق النماء والاكتمال الذى يجعل من هذا الإنسان إنسانًا يعيش فى أحسن تقويم، وأكمل نظام وأيْسر تشريع.

لقد جاء خاتم الأديان ليعلن أن الله تعالى قد خلق الإنسان فى أحسن تقويم ونفخ فيه من روحه، وكرمه وحَمَله فى البرّ والبحر ورزقه من الطيبات، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا يليق بهذه المكانة، ويلائم حمله للأمانة بعد أن أبى حملها السموات والأرض والجبال.

لقد جاء الإسلام خاتم الأديان السماوية بالمنهج -الكتاب والسنة- الذى لا يعدله منهج آخر من وضع الناس للناس، وبهذا المنهج وما تضمنه من قيم ومبادئ وإيمان وإسلام وإحسان يستطيع الإنسان أن يمارس حياته ممارسةً تحقق له سعادة الدنيا والآخرة.

- إن الإسلام بوصفه الدين الخاتم الشامل الأتم؛ ينظر إلى الناس وسائر المخلوقات نظرة ملؤها الرعاية والرحمة والحرص على ما يحقق مصالح الإنسان فى معاشه ومعاده، من خلال تعامل كريم وصحيح وحيادى مع نفسه ومع غيره من الناس بل مع سائر المخلوقات.

ونظرة الإسلام إلى الفنون والعلوم وسائر ما يصلح حياة الإنسان هى نفس النظرة المحايدة الموضوعية المليئة بالرعاية والرحمة والحث على العمل والإبداع، لأن هذه الفنون وتلك العلوم هى من نتاج العقل الذى أنعم الله به على الإنسان بل جعله به قابلاً لتكليف الله تعالى وأمره ونهيه.

والعقل الإنسانى كله وفى كل زمان ومكان وسيلة من وسائل الإنسان فى التمييز بين ما ينفعه أو يضره فى معاشه ومعاده؛ ولأن العقل الإنسانى قد يعجز لما فيه من قصور عن التمييز بين الخير والشر؛ فإن الله تعالى أتم نعمته على الإنسان بأن أرسل الرسل ونزّل الكتب؛ ليكون الإنسان على بصيرة بما يضره أو ينفعه، وليجد بهذا الوحى الذى جاء به الرسل منهجًا يتعامل به تعاملا صحيحا مع نفسه، وربه وسائر ما خلق الله.

- إن الفنون والعلوم مهما تقدمت وتطورت وأتتْ بكثير مما كان يحلم به الإنسان لتكون حياته الدنيا أكثر يسراً وأقدر على مواكبة ركب الحياة، فإنها لا تعدو أن تكون من وسائل تحسين الحياة الإنسانية عن طريق هذا العقل الذى هو أكبر نعم الله على الإنسان، أما الوسيلة المثلى لتحسين حياة الإنسان وتحقيق سعادته فى معاشه ومعاده فهى المنهج - القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة- فبه يحيا الإنسان أكرم حياة ويلقى ربه وهو عنه راض.
- والفنون والعلوم جميعها، وعلى جميع مستويات تقدمها إنما تستهدف الجمال بأن يكون

كل ما في الحياة الإنسانية جميلاً، كما تستهدف أن يحسن الإنسان الإحساس بالجمال، وأن يفكر ويبدع لكي يعبر عن هذا الجمال، إن الجمال والإحساس به والتعبير عنه من خواص الإنسان وحده من بين مخلوقات الله تعالى، وقد وجّه الإسلام إلى ذلك الجمال وإلى وجوب الحرص عليه في الكلام والصمت وفي العمل والتّرك، فقد روى مسلم بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله جميل يحب الجمال..»** ومن عناصر الإيمان أن نحب ما يحبه الله تعالى وأن نكره ما يكرهه سبحانه وتعالى، بل إن من الفطرة الإنسانية السوية أن يتمثل الإنسان بكل صفة من صفات الله التي تستطيع فطرته أن تتمثلها، فما دام الله جميلا فلا بد أن يحاول الإنسان أن يكون جميلا في كل أمره، وما دام الله تعالى يحب الجمال فلابد أن يكون حب الجمال من واجبات الإنسان المؤمن.

- والجمال من نعم الله على الإنسان في روحه وعقله وبدنه وكل ما يحيط به من مخلوقات، وأقرب مثل لنا في ذلك؛ أن خَلَق الله تعالى لنا الأنعام، لنا فيها دفء ومنافع ومنها نأكل وعليها نحمل متاعنا، ولنا فيها جمال حين نسوقها إلى حقولنا ونعود بها إلى بيوتنا، كما يفهم ذلك من قول الله تعالى: ﴿ **وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ⑤ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ⑥ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ⑦ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [النحل: ٦- ٩].

- والفن بمعنى الإبداع عَلّمه الله لبعض أنبيائه عليهم السلام ليتعلمه منهم الناس، ثم ينتفعون به ويعبرون من خلاله عن إحساسهم بالجمال.

- قال الله تعالى مخاطبًا نوحا عليه السلام أقدم المرسلين وأول أولي العزم من الرسل: ﴿ **وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا..** ﴾ [هود: ٣٧]. فالله تعالى يرعى صناعة السفينة ويوحي بها والصناعة -كما أسلفنا- فَنّ، بل علم وفَنّ.

- وقال سبحانه وتعالى عن نبيه داود عليه السلام - وهو النبي الملك-: ﴿ **وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٨١]. فقد علمه الله تعالى صناعة الدروع، ليقيه وجنده من حرب أعدائه له، وصنعة الدروع فَنّ وأيّ فن، بل هي علم وفن.

- فالجمال والإحساس بالجمال والتعبير عنه من خلال الفنون القولية أو العملية الصناعية التطبيقية، أو غير ذلك من الوسائل، كل ذلك من الأمور الأساسية التى تحتاج إليها حياة الإنسان، وهى فى ذات الوقت من نعم الله تعالى على الإنسان لتكون حياته أحسن وأكرم وأكثر ملاءمة لتكريم الله تعالى للإنسان.

غير أن ممارسة الفنون وفق قيم الإسلام ومبادئه بحيث لا يخرج فن من الفنون على تلك القيم والمبادئ هو ما يمكن أن نطلق عليه تعبير: «الفن الإسلامى» أما ما يخرج على تلك القيم والمبادئ فلا يجوز تسميته فناً إسلامياً حتى وإن أبدعه مسلمون، لأن خروج أى عمل على قيم الإسلام ومبادئه لا يسمح له بأن يحمل صفة إسلامى.

ومعنى ذلك أن بعض الفنانين المسلمين فى عصورهم العديدة حين يخرجون بفنهم عن قيم الإسلام ومبادئه، يحسب عليهم هذا الخروج، ولا يحسب على الإسلام كما يفعل بعض الغافلين أو الحاقدين على الإسلام الذين يتربصون به وبأهله الدوائر.

فالفن الإسلامى شىء والفن عند المسلمين شىء آخر. وسوف نوضح هذه الحقيقة فى النقطة الأولى من هذا الفصل والله المستعان.

■■■■

١- الفرق بين مفهومى الفن الإسلامى والفن عند المسلمين

أ- الفن الإسلامى :

هذا الفن الملتزم بقيم الإسلام ومبادئه بغض النظر عن نوعه، من الشعر أو النثر الفنى أو القصة أو غيرها من فنون القول، أو من التصوير والزخرفة، أو من النحت، أو من الألحان والموسيقى، أومن الهندسة المعمارية، لأن كل هذه الأنواع وسائل يلجأ إليها الفنان للتعبير عن مشاعره ورؤاه نحو الجمال من خلال الكلمة أو الريشة أو اللون أو الصوت أو المعمار الهندسى، هو الفن الإسلامى لكن بشرط أن لا يخالف قيمة إسلامية مما أمر الإسلام بها، أو مما حرم ممارستها أو الاقتراب منها.

وبيان ذلك أن الحواس الخمس التى يتعامل معها الفنان فيبدع فيما ينتج، فتحدث له البهجة والسرور والمتعة بهذا الفن. هذه الحواس – التى توصل الإنسان إلى المتعة – لها فى الإسلام ضوابط ومناطق حظر يحرم ارتيادها مهما حققت لصاحبها من متعة وسعادة.

وعلى سبيل المثال :

فإن الفن المرئى أو المشاهد، فى كتاب أو صورة أو إحدى وسائل المشاهدة المعروفة اليوم من مسرح أو سينما أو تليفزيون أو شبكة من شبكات «المعلومات» أو «التليفون الجوال» المشاهد فيه صور أو غير ذلك مما يتجه الفن فيه إلى حاسة البصر ليبتهج البصر برؤيته ويستمتع الإنسان بذلك.

إن هذا الفن يصبح مخالفًا لقيم الإسلام ومبادئه، إن عرض على حاسة البصر مالا يجوز أن تقع عليه العين شرعًا؛ لأنه ينهى عن رؤية العورات وعن رؤية ما يجرح الحياء، أو يجر إلى محرم، لأن المسلم لاينبغى أن يقع فيما نهى الله عنه. فقد قال الله تعالى: ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ** ﴾ [النور: ٣٠].

فإذا عرض فنان مسلم شيئًا لايجوز النظر إليه، فقد أخطأ وتجاوز ما أحل الله له فيما قدم من فن يُرى أو يشاهد، فإن عرض فنًا يبهج العين ويمتع النفس مما أباح الله تعالى رؤيته ومشاهدته فإنه عندئذ يعرض فنًا إسلاميًا.

وكذلك الشأن فى التعامل مع حاسة السمع، فقد منع الله تعالى الإنسان من أن يستمع

إلى الفحش والبذاء، والخوض فى آيات الله تعالى، والخوض فى أعراض الناس، والغيبة، ونحو ذلك من كل ما يغضب الله تعالى الاستماع إليه.

وكذلك منع الله الاستماع إلى كل كلمات أو أصوات تحدث فى نفس الإنسان ميوعة واسترخاء مفسداً للإنسان أو داعياً إياه إلى الكف عن عمل الخير، أومغرياً إياه بعمل الشر، أو جعله يركن إلى اللهو، أو إلى أى صوت أوكلمة تزين له الخنوع والذل، أو تجنُّب القيم الإسلامية.

وفى الوقت نفسه سمح الله تعالى من خلال شرعه ومنهجه للإنسان أن يستمع إلى ما يشاء من الأصوات والألحان التى لا تسبب له شيئًا مما نهى الله عنه أو كره فيه.

- والفنان الذى يبدع فنًا صوتيًا أو نغميًا ليسمعه أو يسمعه غيره وهو ملتزم بقيم الإسلام وآدابه، فإنه عندئذ يبدع فنًا إسلاميًا متفقًا مع أهداف التشريع الإسلامى، بل هومثاب على عمله ذلك إن دعا إلى خير أو نهى عن شر.

- أما الذين ينتجون أو يبدعون فنًا بصريًا أو سمعيًا غير ملتزم بقيم الإسلام، كتلك الأصوات الخليعة، والألحان الهابطة الداعية إلى الباطل والشر، المحفزة على تخنث الرجال، وترجل النساء؛ فإنما يحسب عليهم عملهم ذلك أمام الله ليحاسبهم عليه، وعلى المجتمع المسلم أن يمتنع عن الاستماع إلى ما يبدعون أو ينتجون، فهؤلاء المبدعون – وإن كانوا من المسلمين – فإنهم ينشرون أصوات الشياطين ومزاميرهم.

- وكذلك الشأن فى التعامل مع سائر حواس الإنسان، إن أنتج أحد المسلمين مالا يتعارض مع القيم الإسلامية، فلا يتسبب لهذه الحواس فى أن تقع فيما لا يغضب الله تعالى ولا يخالف قيمة من قيم الإسلام، فإنه يبدع فنونًا يمكن أن تسمى فنونًا إسلامية بغير أدنى حرج.

- والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى فى مجال الفنون كلها، فن الكلمة شعراً ونثراً فنيًا وقصة ومقالاً وغيرها.

وفن الصورة والزخرفة.

وفن الأصوات والألحان.

وفن الهندسة المعمارية، وسائر ما يمكن أن يسمى فنًا لأنه يعبر عن إحساس الإنسان بالجمال.

كل ذلك يخضع للمعيار الذى ذكرنا ليكون فنًا إسلاميًا، أو يكون من أعمال المسلمين الذين لم يلتزموا فيه بالقيم الإسلامية، فهو عندئذ فن أبدعه مسلمون غير ملتزمين بمنهج الإسلام ونظامه، بغض النظر عن الزمان والمكان اللذين أنتج فيهما هذا الفن. وسنزيد الأمر إيضاحًا فى السطور التالية:

ب- الفن عند المسلمين:

● أما الفن عند المسلمين فقضية أخرى تختلف عن الفن الإسلامي؛ كما أوضحنا خصائصه.

إن تسمية الفنون بأسماء المسلمين الذين أبدعوها، مهما كانت على درجة عالية من الإبداع، لا ينبغى أن تنسحب تلك التسمية على الإسلام نفسه، لأن المسلمين - كما أوضحنا - قد لا يكونون ملتزمين بقيم الإسلام فيما أحل الله وما حرم، ولكنهم ينتسبون إلى الإسلام بأسمائهم وألقابهم وكناهم أو الأماكن التى يعيشون فيها، فنسبة أعمالهم الفنية إلى الإسلام من الخطأ العظيم، لأن العبرة فى نسبتها إلى الإسلام هى بالتزام مبدعها، وعندئذ نقول عنها: إنها فنون المسلمين لا فنون إسلامية.

والفرق واضح بل حاسم - عند المنصفين - بين فنان مسلم ملتزم بقيم الإسلام ومبادئه فيما يبدع من فن، وآخر غير ملتزم بهذه القيم والمبادئ فيما يبدع من فن، إن الأول يبدع فنًا إسلاميًا، والآخر يبدع فنًا لا يجوز نسبته إلى الإسلام.

● والمسلمون جميعًا فنانين وغير فنانين نوعان:

- مسلمون ملتزمون بقيم الإسلام ومبادئه فى كل ما يقولون وما يعملون، وهؤلاء قلة فى كل عصر، إذ استثنينا أهل القرون الثلاثة الأولى خير القرون.
- ومسلمون غير ملتزمين بتلك القيم والمبادئ، وإن كان لهم أسماء المسلمين، وهؤلاء كثرة فى كل عصر - إذا استثنينا أهل القرون الثلاثة الأولى خير القرون - إنهم كثرة أعانهم شياطين الإنس والجن على عدم الالتزام بقيم الإسلام ومبادئه.

جـ- أسباب الانفصال عن قيم الإسلام:

● ولقد كان للانفصال عن قيم الإسلام ومبادئه بدايات، وأسباب نرجو أن نوضحها فى هذه السطور بإيجاز:

– أما البدايات فكانت منذ القرن الرابع الهجرى – العاشر الميلادى – عندما دخل على المسلمين من الآفات والعيوب الخلقية والاجتماعية والسياسية ما أبعد كثيراً منهم – حكامًا ومحكومين – عن الالتزام بقيم الإسلام ومبادئه.

– وأما الأسباب المباشرة وغير المباشرة لهذا الانفصال فأكثر من أن تحصى فى هذا الفصل من ذلك الكتاب عن التربية الجمالية الإسلامية، وإنما نشير إلى بعض هذه الأسباب على النحو التالى:

– الأسباب المباشرة فى الانفصال عن قيم الإسلام ومبادئه:

أولاً: كثرة الذين دخلوا فى دين الإسلام يحملون معهم من القيم الأخلاقية والعادات والتقاليد ما يخالف قيم الإسلام ومبادئه. مع صعوبة تخلصهم من هذا التراث فى زمن وجيز، مما جعل بعضهم – على الرغم من دخوله فى دين الإسلام – لا يتقيد بكل قيم الإسلام ولكن يجمع إليها قيماً موروثة تخالف ما جاء به الإسلام إلى حد كبير.

ثانياً: وكثرة من دخلوا فى الإسلام رغبة فى أن يكون لهم مكان ومكانة فى هذا الدين الجديد الذى اتسع انتشاره ودانت له البلدان ودخل الناس فيه أفواجًا.

ثالثًا: وكثرة الذين دخلوا فى الإسلام رهبة وخوفًا من أن ينالهم من المسلمين أذى فى أموالهم أو أنفسهم، ظانين أن المسلمين كغيرهم من المنتصرين الذين يعتدون على المهزومين ويستبيحون أموالهم وأعراضهم – على نحو ما فعل الصرب والكروات فى مسلمى البوسنة فى عصرنا هذا – فضلاً عن الاستيلاء على بلادهم واستيطانها، كما فعلت دول الاستعمار فى القرنين التاسع عشر والعشرين، وكما فعلت إسرائيل فى فلسطين، وكما تفعل اليوم أمريكا فى أفغانستان والعراق وما تنوى فعله فى العالم العربى مستقبلاً. إن هؤلاء الذين دخلوا فى ذلك الزمان فى الإسلام خوفًا ورهبة، لم تغلغل فى أنفسهم قيم الإسلام ومبادئه كما هو حال من يدخل فى الإسلام اقتناعًا بمبادئه وقيمه ونظمه.

رابعًا: وكثرة الداخلين فى الإسلام نفاقًا ورياء وطمعًا فى أن يسيئوا إلى الإسلام والمسلمين، عندما يجدون فى المسلمين غفلة فيميلون عليهم ميلة واحدة، كما تحدث بذلك القرآن الكريم فى حياة الرسول ﷺ، فكشف عن نوايا هؤلاء وأمثالهم فى كل زمان، فى قوله تعالى: ﴿ ..وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢].

خامساً: وكيد اليهود للإسلام والمسلمين وحقدهم على الإسلام الذى دعا بعضهم إلى أن يدخل فى الإسلام ليضلل المسلمين ويصرفهم عن دينهم وقيمه ومبادئه، وتلك أخلاق يهود مع المسلمين ومع غير المسلمين من النصارى وأهل أى دين!!!

إن هذه صفتهم دائماً عبر عنها القرآن الكريم فى قول الله تعالى عنهم: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٦]. فهم يستحلون الإساءة والظلم لكل من خالفهم فى الدين ويزعمون نسبة هذا إلى أمر الله تعالى لهم بذلك!!! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

سادساً: وانحراف بعض المسلمين عن الفهم الصحيح للدين وقيمه، حيث خلط بعضهم الصحيح بالسقيم كما بدا ذلك – مثلاً – فى التصوف[١]، فقد أدخل عليه بعض المنحرفين عن قيم الإسلام فى الزهد والعبادة، أدخلوا عليه الغناء والرقص، وترددت على ألسنتهم كلمات العشق والسكر والشعر الصوفى، مع اعتزال الناس والإقامة فى رباطاتهم وزواياهم وتكاياهم، واتخاذ أزياء تخصهم ذات ألوان خاصة بهم، وزادت مزاعمهم فقال بعضهم: إن فى الجنة كراسى دوارة تخص أهل التصوف حتى تكفيهم مئونة الرقص.

وبلغ الانحراف عن قيم الإسلام ببعض الصوفية مصادقة النساء والأحداث، كما يقول الحجويرى فى كتابه: «كشف المحجوب»: «وبلغ من جهال الصوفية أنهم جعلوا صحبة الأحداث بما فيها من مفاسد قاعدة فى مذهبهم.

ويقول عنهم الإمام ابن حزم فى كتابه: «الفصل فى الملل والأهواء والنحل»: «من الصوفية من يقول: إن مَن عرف الله سقطت عنه الشرائع، واتصل بالله.... وأن بعضهم كان يصلى فى اليوم ألف ركعة، ومرة لا يصلى فريضة ولانافلة».

وزاد شذوذ بعضهم عن الإسلام وقيمه بقولهم: إن أولياء الله – أى الصوفيين – أفضل من الأنبياء والرسل.

---

(١) الصوفية: اسم أطلقه ابن قُدَيْد المتوفى سنة٣١٢هـ – ٩٢٥م، أطلقه على جماعة كانت تحيط بعيسى بن المنكدر الذى ولى قضاء مصر فى عصر المأمون العباسى، وكان هؤلاء القوم فى بدايتهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وعندما وَلِىَ ابن المنكدر القضاء كانوا يذهبون إليه ويقولون: أيها القاضى: ذهب الإسلام، فُعل كيت وكيت، فيترك المجلس ويمضى معهم إلى الوالى ويرفع إليه مقالهم، وكان يقال لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين الزهاد والعباد، ثم أطلق عليهم الصوفية.

ومنهم من قال بالاتحاد مع الله وحلول الله فيه، فوصفوا الله تعالى بما لا يجوز أن يوصف به.

ومنهم من وصف الله تعالى بصفات الإنسان.

● هؤلاء المنحرفون عن الإسلام وقيمه يرون أنفسهم مع كل هذه المخالفات من المسلمين، هؤلاء المنحرفون من أهل التصوف منهم فنانون لهم إبداع فى التعبير بالشعر والنثر الفنى والقصة والأصوات والألحان والرقص، وهى فنون تنسب إليهم ولا يجوز أن يقال عنها: إنها فنون إسلامية.

سابعًا: ولاشك فى أن الحروب التى شنتها أوروبا على العالم العربى على مدى قرنين من الزمان فيما عرف عندهم بالحروب الصليبية التى بلغ عدد حملاتها على العالم العربى سبعًا، لاشك فى أن هذه الحروب بما حملت إلى العالم العربى من قيم وأخلاق وعادات مخالفة لقيم الإسلام ومبادئه كان لها أثركبير فى انحراف كثيرمن المسلمين عن القيم الإسلامية، تمثل ذلك فى ملابس المرأة أولاً، ثم فى كثير من الأخلاق والعادات من بعد ذلك، وذلك أن هذه الحروب كان أثرها الاجتماعى والأخلاقى لا يقل عن أثرها السياسى والاقتصادى.

- الأسباب غير المباشرة للانفصال عن قيم الإسلام:

- وأما الأسباب غير المباشرة لابتعاد بعض المسلمين عن قيم الإسلام ومبادئه فكثيرة أيضًا، نشير إلى بعضها فيما يلى:

أولاً: خصاء بعض الغلمان بجب أعضاء الذكورة منهم، ثم تحويلهم إلى خدم يخالطون النساء فى القصور والبيوت بعد أن فقدوا الرغبة فى النساء لخصائهم.

وهذا الخصاء محرم فى الإسلام لأنه عدوان على فطرة الإنسان التى فطره الله عليها، وامتهان لإنسانيته، وبعض الناس يسمون هؤلاء المخصين «الأغوات».

ثانيًا: والولع ببعض الغلمان المرد وعشقهم، واللواط بهم فى بعض الأحيان، وكتابة الشعر الغزلى فيهم، وكل ذلك مما يخالف الإسلام؛ قيمه ومبادئه.

وكان اقتناء الغلمان مظهرًا من مظاهر الثروة والجاه، ولكنه صار مظهرًا من مظاهر الانحراف عن الإسلام وقيمه والدخول فيما حرم الله ورسوله.

ويقال: إن مما أشاع اللواط بالغلمان أن بعض الجنود كانوا يصطحبون غلمانًا لهم فى القتال ويأبون اصطحاب نسائهم خشية وقوعهن فى الأسر.

ثالثًا: وانتشار عادة إلباس الخادمات أثواب الخدم من الذكور، لابتذالهن فى الخدمة دون أن يطمع فيهن طامع من أهل الفساد، وأيا ما كان الدافع على هذا العمل، فإنه وقوع فى مخالفة الإسلام وقيمه ومبادئه.

رابعًا: وانتشار فاحشة الزنا، والاستهانة بها، لتوقف تطبيق عقوبتها فى كثير من البلدان، وبخاصة أن عدداً من الحكام المسلمين سمح للراقصات والزوانى بأن تكون لهن بيوت خاصة، وبأن تجبى منهن ضرائب، ويقال: إن عضد الدولة الخليفة العباسى المتوفى سنة٣٧٣ هـ - ٩٨٢م قد جبى ضرائب منهن.

وقد ساعد وجود بيوت خاصة للراقصات والمغنيات والزوانى على إشاعة فاحشة الزنا، وكانت إيذانًا بفقر هذه الدول وخرابها.

خامسًا: وانتشار ألفاظ الفحش والبذاء والهجاء فى فن الشعر وفن النثر، وكل ذلك مما يخالف الإسلام وقيمه، لأن المؤمن لا يجوز أن يكون فاحشًا أو طعانًا أو لعانًا أو بذيئًا.

وهذه الألفاظ الفاحشة البذيئة لا يجوز التلفظ بها فى جميع الأحوال جداً أو هزلاً أو حتى رداً على فاحش أو بذئ، لأن النهى عنها عام كالنهى عن قول الزور وعن كل المنكر، لأن تلك هى أقوال الشيطان الذى يأمر بالفحشاء والمنكر لأن تلك هى خطواته التى نُهى المؤمنون عن اتباعها.

وهذا الفحش والبذاء والرغبة فى نشرهما فى الناس أو وصفهم بهما توعد الله عليها بالعذاب الأليم فى قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾** [النور: ١٩] وعذاب الدنيا هو حد القذف وعذاب الآخرة عند الله تعالى يوم القيامة جزاء على مخالفة الله، وأخذاً لحقوق العباد من العباد.

سادسًا: وظهور مجالس الخمر والغناء فى بعض المجتمعات المسلمة، والخمر -كما هو معروف فى الإسلام - هى أم الكبائر، وشربها حرام كبيعها وشرائها ونقلها وصناعتها والجلوس فى مجالسها. وهى آفة من الآفات التى تنسب إلى بعض الحكام منذ زمن بعيد وإلى يومنا هذا، وإذا عرف هذا عن الحكام ساعد على انتشارها فى الناس.

ومع انتشار الخمر ينتشر الغناء الهابط ورقص النساء وكثير من أنواع الميوعة فى الأخلاق، وكل ذلك من الباطل الذى نهى عنه الله تبارك وتعالى، وهو مخالف للقيم الإسلامية فى كل حين.

سابعًا: وانتشار الظلم والاعتساف من بعض الحكام فهانت على كثير من هؤلاء الظالمين حقوق الإنسان التى حافظ الإسلام عليها أى محافظة؛ حين أعلن أن الله تعالى كرم بنى آدم جميعا وأنعم عليهم بنعم لا تحصى ورزقهم من الطيبات وفضلهم على كثير ممن خلق، وجعل النبى ﷺ حرمة المسلم أكبر من حرمة الكعبة نفسها، أى المحافظة على حق كل إنسان؛ دمه وعرضه وماله، وأن لا يظن به إلا الخير.

واستمرت هذه الآفة حتى يومنا هذا، حيث يشتط بعض الحكام وأذنابهم فى تعذيب معارضيهم وقهرهم وإهدار كل حقوقهم، وفى مقدمتها حقهم فى الحياة، حيث يعذب كثير من المعارضين حتى الموت، وتصادر أموالهم وتنتهك حرمات نسائهم وأبنائهم وذويهم.

واشتهر بذلك بعض الحكام فى بعض العصور حتى يومنا هذا، امتداداً لسيرة الحجاج بن يوسف، والمقتدر والقاهر الخليفتين العباسيين، كما اشتهر عدد من الوزراء والأمراء بالولوغ فى دماء الناس والعدوان على حرماتهم.

● وكل هذه الأسباب التى أدّت إلى ابتعاد المسلمين عن قيم الإسلام ومبادئه، كلها وجدت من الفنانين من أبدعوا فى وصفها أو الحديث عنها نفاقًا للحكام، أو ذمًّا لهم، واستعملوا فى ذلك فنون القول أولاً من شعر ونثر فنى وقصص ومقالات، وبعضهم لجأ إلى فنون أخرى سجل بها هذه الانحرافات، كالتصوير والموسيقى وغيرهما.

ولقد استمر هذا الانفصال بين بعض المسلمين وقيم دين الإسلام ومبادئه إلى يومنا هذا؛ الربع الأول من القرن الخامس عشر الهجرى، مطلع القرى الحادى والعشرين الميلادى، وبالتالى كثرت الإبداعات الفنية وتعددت لرصد هذه الظواهر رضًا بها لدى الملحدين وأعداء الإسلام ومنهجه ونظامه، أو اعتراضًا عليها من الغيورين على دينهم وقيمه ومبادئه، يخافتون باعتراضاتهم فى أغلب الأحيان خشية الظالمين الباطشين، وعملا بمبدأ التقية، أو يجهرون بهذه الاعتراضات فيدفعون حرياتهم وكثيراً من حرماتهم ثمنًا لهذا الجهر بكلمة الحق وربما دفعوا دماءهم فى المحاكمات الظالمة الهزلية أو الطارئة أو العسكرية، التى تهزأ بحقوق الإنسان.

● ومن يرى ما فعله بعض حكام المسلمين فى نصف القرن الأخير حتى يومنا هذا من إبادة للمعارضين لهم وتعذيبهم حتى الموت، وحرمانهم من المحاكمة العادلة أمام قاضيهم الطبيعى.. يدرك إلى أى مدى ابتعد هؤلاء الطغاة عن قيم الإسلام ومبادئه وكيف جاهروا

بل افتخروا بأنهم حكام علمانيون أى لا يقيمون للاديان وزنًا، ابتداء بمصطفى كمال في تركيا، وبغير انتهاء لهذا التحدى لدين الإسلام وقيمه ومبادئه بإهدار حقوق الإنسان من حكام يتسمون بأسماء المسلمين.

● ومن يرى ما تفعله أمريكا بمن تتهمهم بالإرهاب – دون دليل بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م – يدرك أن أمريكا تستبعد فى تعاملها مع المعتقلين فى « جوانتاموا » كل قيمة جاء بها دين المسيح الذى تدعيه، وتهدر حقوقهم جميعها بأساليب ورثتها بكل تأكيد عن محاكم التفتيش المشهورة فى التاريخ، ثم تجعل أمريكا شعارها « تمثالا للحرية » !!!

ولكن كلمة حق تقال فى هذا المجال لأن الساكت عنها شيطان أخرس، هى أن بعض الحكام العرب الثوريين العسكريين الذين دبروا أو دبرت لهم انقلابات عسكرية، يفعلون بمن يعارضونهم أو لا يمالئونهم قريبا مما تفعل أمريكا اليوم، ثم لا يستحيون جميعًا أن يعلنوا أن حكمهم تسوده « الديمقراطية » ألا كبرت كلمة تخرج من أفواههم وأبواقهم ومنافقيهم خوفًا وهلعا أن يصيبهم ما أصاب من لا يمالئون هؤلاء الحكام الظالمين، كبرت كلمة تخرج من أفواهم إن يقولون إلا كذبا وبهتانًا ».

● نعم.. لقد استمر هذا الانفصال بين بعض المسلمين وقيم الإسلام ومبادئه، وقد كثرت إبداعات الفنانين من المسلمين فى مجالات التعبير بالكلمة أو الريشة أو « الأزميل » أو اللحن والموسيقى أو الهندسة المعمارية، ولكنها إبداعات تعبر عن المسلمين الذين أبدعوها فهى فنونهم، وليست فنونًا إسلامية إلا فى حدود ما التزم الفنان فى إبداعاته بقيم الإسلام ومبادئه، وبمقدار ما وظّف فنه وإبداعه لخدمة الإسلام والمسلمين.

وبعد : فذلك ما أردت إيضاحه بقولي : إن هناك فرقا بين مفهومى الفن الإسلامى والفن عند المسلمين.

وأرجو أن أكون بعون الله تعالى قد بلغت ما أريد .

■■■■

٢- تأثير الحضارات الأجنبية فى فنون المسلمين

لا يستطيع المسلمون وقد اتسعت رقعة الأرض التى يعيشون عليها وتزايدت اعدادهم، وتعددت أوطانهم ولغاتهم وثقافاتهم، لا يستطيعون ان يعيشوا بمعزل عمن يجاورهم من الناس ذوى الحضارات المختلفة والثقافات المتباينة عن حضارتهم وثقافتهم.

تلك حقيقة تؤكدها سنة الحياة البشرية على هذه الأرض ولا ينكرها إلا من يتعامى عنها.

- حتى الأماكن التى انتقل إليها المسلمون جيوشاً لمقاومة الوثنية وهداية الوثنيين، أو انتقلوا إليها دعاة إلى الله ينشرون دين الحق، ويدعون الناس إلى الدخول فيه بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن، أو تلك الأماكن التى انتقلوا إليها للتبادل السلعى والتجارى، أو العمل أو غير ذلك من أسباب التنقل إلى تلك البلاد؛ أقول:

حتى هذا الأماكن التى لم تكن إقامة المسلمين بها دائمة، ولا دولة لهم فيها أو سلطان، لم يستطع المسلمون ان يكونوا بمعزل عن التأثر بحضارة أهل هذه الأماكن وثقافتهم، أو التأثير فيهم من خلال حضارة المسلمين وثقافتهم.

- ومن المسلّمات لدى الباحثين فى العلاقات بين الدول والشعوب ان تأثر حضارة بأخرى لا يعنى تميز الحضارة التى أثّرت عن الحضارة التى تأثرت، وإنما يعنى مجرد التأثر والتبادل لمفردات هذه الحضارات المتعددة.

- وهنا علينا أن نشير إلى ان القائلين بصراع الحضارات بمعنى تعاديها والتحارب بينها أصحاب خيال مريض، وفكر سقيم أسقمه الغرور والشعور بالاستعلاء على الآخرين، وَوَجّهه الحقد والتعصب، والبعد عن النظرة الإنسانية الواعية.

- وما القائلون بصراع الحضارات إلا فلول منهزمة عقليًا وثقافيا لا تزال تقول كما قالت يهود؛ بتميز العرق وأفضلية الأصل والمنبت، فهم يقولون كما قالوا بنظريات مشابهة لنظرية اليهود كتفوق الجنس الابيض، أو دول الشمال وشعوبه، وما ذلك إلا عمى أصاب القلوب والبصائر قبل أن يصيب الرؤى والأبصار.

- ونعنى بتلك الحضارات التى أثرت فى المسلمين أو فى فنون المسلمين تلك الحضارات التى اتصل أهلها بالمسلمين عن أى طريق من طرق الاتصال العديدة، وتركوا أثراً من

مفردات حضاراتهم فى فنون المسلمين، فأخذه عنهم بعض المبدعين المسلمين دون أن ينخلوه أو يعايروه بمنخل القيم الإسلامية ومعاييرها، فجاء فنًا معبرًا عن المسلمين لا عن الإسلام - على نحو ما أوضحنا من فرق بين الفن الإسلامى وفنون المسلمين -.

● كما نعنى بتلك الحضارات الأجنبية جميع الحضارات التى أثرت فى الحضارة الإسلامية من شرق العالم الإسلامى كحضارة الفرس، أو من شمال العالم الإسلام كحضارة الروم، أو ما بعد هاتين الحضارتين عندما اتسعت رقعة العالم الإسلامى فيما بعد.

ولقد اتسعت رقعة العالم الإسلامى لتشمل -فى فترة طويلة من التاريخ امتدت إلى قرون عديدة من السنين- الأندلس والمغرب العربى كله، ومصر والشام بمعناه الكبـ ـر (سوريا ولبنان وفلسطين والأردن)، والعراق وفارس وما والاها فى الشرق من بلدان الهـ ـد وصولا إلى اقصى الشرق وأطراف الصين، وتتجه نحو الشمال إلى الدولة البيزنطية، فعـ ـيد من بلدان أوربا الشرقية وعديد من بلدان أوربا الغربية حتى وصلت إلى بلاد الغال (فرنسا) وكانت على مقربة من «باريس» ثم تتجه جنوبا حتى تصل إلى عديد من بلدن إفريقية سواء فى شرقيها أو وسطها أو غربيها، مما لا يزال المسلمون باقين فيه حتى يومنا هذا.

● أقول إن الحضارة الإسلامية وهذه رقعتها المترامية الأطراف يستحيل عليها أن تكون بمعزل عن حضارات أهل تلك البلدان التى وصل إليها المسلمون، فلا بد من تأثير وتأثر وتبادل لمفردات الحضارة هنا وهناك.

غير أن أبرز الحضارات التى أثّرتْ فى المسلمين؛ علومهم وفنونهم حضارتان:

إحداهما؛ الحضارة الفارسية، وعند التدقيق نقول: الفرس والترك.

والأخرى؛ الحضار ة الأوروبية، وعند التدقيق نقول: اليونان والروم، وما تركته هاتان الحضارتان من أثر فى الحضارة الإسلامية عمومًا وما تركته فى فنون المسلمين على وجه الخصوص.

غير أن لنا ملاحظتين على كل حضارة من هاتين الحضارتين هما:

الملاحظة الأولى: أن الفرس والترك قد دخلوا فى الإسلام مؤثرين له على ما كان لديهم من مِلل ونِحَل، منذ زمن باكر فى تاريخ دخول الإسلام لديهم، لكنهم لم يتخلصوا من مفردات حضاراتهم كما تخلصوا من مِلَلِهم ونِحَلِهم، فكان لحضارة الفرس والترك أثر بارز فى الفنون عند المسلمين.

والملاحظة الثـانيـة : أن اليـونان والروم وإن لـم يدخـل منهـم الإسـلام إلا القليـل، إلاّ أن اتصالهم بالمسلمين كان من خلال وفود المسلمين إليهم وبخاصة فى جزر البحر المتوسط من جانب، ومن خلال ما شنته أوروبا من حروب على العالم العربى وبخاصة الشام ومصر مع تركيزهم الشديد على فلسطين والقدس، تلك الحروب التى أطلقوا عليهاحروباً صليبية وقادتها الكنيسة؛ من جانب آخر.

ذلك مـا نرجـو أن نلقى عليـه ضـوءاً لنكشف بعض أبعـاده ونوضح بعض آثاره فى الصفحات التالية بإذن الله تعالى، لنؤكد أن تأثر الحضارة الإسلامية بهاتين الحضارتين كان حقيقـةً لا ينكرها إلا المكابرون أو الجاهلون، ولنؤكد أن تأثر الحضارة والثقافة الإسلامية بهاتين الحضارتين لا يعنى تأثيراً أدى إلى تغيير فى قيم الإسلام ومبادئه، وإنما عنى تأثر بعض الفنانين المسلمين بحيث لم يلتزموا بقيم الإسلام ومبادئه وهم يتأثرون بهاتين الحضارتين.

كما نؤكد ما سبق أن أشرنا إليه آنفا أن ذلك لم يكن صراعا بين الحضارات وإن شُنَّت فيه الحروب، وإنما كان تبادلاً للمفردات بين حضارة الإسلام وهاتين الحضارتين.

أما الحروب بين أهل حضارتين فتعنى الصراع بين السياسيين من أهل كل حضارة، كما تعنى القـادة الذين يتخذون قرار الحرب والصراع، ومهمـا دارت الحروب والصـراعات بين القادة والجنود فإن تأثير الحضارات بعضها فى بعض يمضى فى طريقه بغض النظر عن الغالب والمغلوب فى هذه الصراعات، وهذا التأثير الحتمى من حضارة فى أخرى ينفى مقولة الصراع بين هذه الحضارات، لأنه لو كان صراعاً حقيقياً بين الحضارات ما حدث تأثير ولا تأثر.

ومن يقل منهم بغير ذلك فإنما يحركه الحقد على أهل حضارة بعينها، أو التعصب الأعمى لأهل حضارة بعينها، ونسأل الله لهؤلاء الهداية بسلامة القلب والبصيرة والبصر.

ولنتحدث فى الصفحات التالية عن تأثير هاتين الحضارتين فى الحضارة الإسلامية، أما تأثير الحضارة الإسلامية فى هاتين الحضارتين فقد اعترف به غير المسلمين من أهل هاتين الحضارتين وهو ليس موضوعنا فى هذا الكتاب.

والله المستعان.

■■■■

أ- الفرس والترك وأثرهما فى فنون المسلمين

الفرس أمة ذات حضارة عريقة عتيقة أثرت فى العالم القديم الذى عاصر نفوذ هذه الحضارة وقوتها، وحضارة الفرس كانت منافسة لحضارة الروم قبل ظهور الإسلام ومؤثرة ومتأثرة بها على الرغم من الحروب الضارية التى شنت بين قادة كل من الحضارتين. والحضارة الفارسية إحدى أكبر حضارتين عرفهما العالم قبل الإسلام وتأثر المسلمون بهما.

- وكان للفرس ظهور واضح فى دولة الخلافة العباسية، فقد كانوا أبرز العناصر التى مهدت لقيام دولة بنى العباس، وكان أبرزهم أبا مسلم الخراسانى ومؤيدى دعوته إلى بنى العباس حيث وضعوا الأسس لقيام الدولة العباسية.

كما كان من أبرز عناصر الذين وطّدوا أركان الدولة العباسية « البرامكة » وآل سهل،وآل وهب، وآل الفرات، وآل الخصيب، وآل طاهر وغيرهم وهم من الفرس.

وقد ازداد نفوذ الفرس فى الدولة العباسية حتى تمكنوا من الخلفاء والدولة، فكان بيدهم تولية الخلفاء أو عزلهم أو الوصايا على الصغار منهم، بل بلغ بهم النفوذ أن استقل بعض قادة الفرس ببعض أطراف الدولة عن الدولة.

وهم قبل ذلك وبعده أهل حضارة تليدة أثرت فى الحضارة الإسلامية عموما وأثرت فى فنون المسلمين على وجه الخصوص.

- وكذلك كان شأن الترك فى دولة بنى العباس، لهم فيها نفوذ ومكانة، حيث كان كثير من كبرائهم وقوادهم أخوالا لبعض الخلفاء العباسيين، وكان للفرس أعوان وأجناد وقادة وخدم فى قصور الخلفاء، كما كان للترك أعوان وأجناد من بنى جلدتهم، وقادة فى الجيش وأصحاب وزارة ومناصب فى الدولة، كما كان لهم سيطرة على ما بداخل بعض قصور الخلفاء من خدم وأرقاء، ومديرين لهذه القصور لتأمين مصالحهم الحالية والمستقبلية، فكم كشف هؤلاء المزروعون فى القصور من مؤامرات ودسائس وقضوا عليها قبل أن يستفحل أمرها.

وقد شاعت لديهم تسمية الأرقاء البيض اللون « مماليك » وتسمية الأرقاء السود البشرة « عبيداً ».

وكان للترك حضارة تخصهم وإن كانت لم تبلغ مبلغ حضارة الفرس فى العراقة، لكنها حضارة لاينتقص من قدرها إلا الجاهلون أو الذين يحبون الخلط والتضليل.

● وما من شك فى أن هاتين الحضارتين الفارسية والتركية كان لهما تأثير كبير فى الحضارة الإسلامية، وفى علوم المسلمين وفنونهم وعاداتهم وتقاليدهم، وفى أخلاقهم أحيانا.

وكان من أثر هاتين الحضارتين الاجتماعى أن زاد لدى المسلمين عدد الأسرى وعدد الأرقّاء، بل زاد عدد الخصيان والجوارى والقَيْنات[1].

بل إن الخصاء صار صناعة وحرفة احترفها اليهود أولا وبعض الأوروبيين، واتجروا فيهم وورّدوهم إلى قصور الخلفاء والأمراء المسلمين أولا ثم إلى قصور ذوى النفوذ فى الدولة من بعد ذلك.

وعرفت التجارة فى المخصيين بالنخاسة، وكان المخصيون أو المعدون للخصاء يستجلبون من بلاد عديدة كالهند وبلاد الترك وأرمينيا والروم والبربر والنوبة والحبشة والزنج.

كما كانت الفتاة تشترى بثمن معين فإذا دُربت على الغناء أو الرقص أو نحو ذلك مما يثير الشهوات بيعت بأضعاف ما اشتريت به.

ومن هؤلاء الجوارى من كانت تدرب على المجالسة والمؤانسة.

وقد ترتب على انتشار هؤلاء المخصيين والجوارى أن أصبح لهم نفوذ فى قصور بعض الخلفاء والأمراء والوزراء والقادة، وبخاصة إذا صارت الجارية أم ولد للخليفة أو للأمير أو للوزير، وتأمل ما ترتب على ذلك واضح لكل ذى بصر أو بصيرة، حيث كان الأثر المباشر لذلك هو انتشار مجالس الشراب والغناء، والفساد مما ترتب عليه ضعف الدولة، وسيطرة هؤلاء عليها سياسيا واجتماعيا وثقافيا، وكل تلك من مفردات الحضارة عند المسلمين التى تأثرت بحضارة الفرس والترك.

● وأما تأثير هاتين الحضارتين فى فنون المسلمين، فقد زاد وضوحه فى كثير من أنواع الفنون مثل:

- الشعر والغناء.

- والموسيقى وما معها من رقص.

---

(١) هى الجارية التى تحترف الغناء ونحوه.

– والتصوير والزخرفة، والنحت.

فقد كان لأهل هاتين الحضارتين إبداعات فى هذه الفنون ذات طابع يميزها، فأثرت فى فنون المسلمين تأثيراً كبيراً فحاكوها أولاً بكل ما فيها من أمور قد تخالف قيم الإسلام ومبادئه، ثم أبدعوا هم فى تلك الفنون فلم يلتزم كثير منهم بقيم الإسلام ومبادئه، فجاءت فنونهم معبرة عن إبداعاتهم الفنية، ولم تكن فنونا إسلامية ترعى قيم الإسلام ومبادئه إلا فى القليل مما أبدع الملتزمون من الفنانين.

ومن المعروف أن كل فن من تلك الفنون له وضعه الخاص فى الإسلام، إذ لم يحرمه على إطلاقه ولم يحلّه مطلقا، وإنما جعل لكل من هذه الفنون إطارا يتحرك فيه، فإن جاوزه فدخل به فيما حرم الله من قول أو فعل، فلم يعد فنا إسلاميا، وإنما هو فن أحد المسلمين غير الملتزمين بقيم الإسلام ومبادئه فيما يبدعون.

ولكل فن من هذه الفنون حكم تفصيلى يتعلق بحله أو حرمته، ومعرفة ذلك ميسورة للمثقف المسلم حتى وإن كان من غير المتخصصين فى علوم الفقه والأحكام.

وعلى سبيل المثال:

فإن فن الشعر الذى يخوض فى أعراض المسلمين والمسلمات ويتتبع عوراتهم، أو يشيع الفاحشة فيهم ببذاءة ألفاظه وفحش معانيه، فما يختلف على حرمة قرضه أحد من علماء الشريعة الإسلامية، وكذلك شأن الغزل والهجاء.

وما عدا ذلك من الشعر فلا بأس به إذا كان يدعو إلى فضيلة، أو يثير حماسة للجهاد فى سبيل الله، أو رثاء لعلم من أعلام المسلمين، أو وصفًا لما يجوز وصفه فى الناس وعناصر الطبيعة، وهذا أمر واضح لمعظم المسلمين.

وأما الرقص الذى تقوم به النساء فيما سموه رقصا شرقيا فلا شك فى حرمته لعدة أسباب منها: إثارته للغرائز، وكشف عورات الراقصة أو وصف جسمها أو شفوف ملابسها عن جسمها ومحاسنها، ولا خلاف على هذا بين المسلمين الذين يعرفون ما أحل الإسلام وما حرم.

وأما النحت فمثله مثل التصوير، فإن كان نحتا لعمل فنى فى مجال ما يجوز تصويره من النبات وما ليس بذى روح، فهو كالتصوير كما أفتى بذلك ابن عباس رضى الله عنهما – كما أوضحنا ذلك آنفا – وبشرط ألا يكون منحوتا لكى يُعظم أو يقدس.

وأما الموسيقى والألحان، فإن كانت تثير حماس المقاتلين جهادا فى سبيل الله وتحضهم على الثبات والنصر فهى لا غبار عليها، بل هى مطلوبة كما لو كانت خطبة حماسية تلقى فى ميدان القتال.

أما الموسيقى والألحان التى تحرك الغرائز الجنسية، وتشجع على أى عمل لا يرضى الله فهى محظورة لا تجيزها قيم الإسلام ومبادئه.

والخلاصة أن الفنون جميعا، وكل الإبداعات إنما ينظر إليها من خلال مضمونها وما تستهدفه، كما تقاس بمقياس موافقتها أو مخالفتها لقيم الإسلام ومبادئه.

وهكذا نستطيع أن نقول: إن الفن عند المسلمين كان قد حدث له تنوع حيث دخل عليه التصوير والزخرفة والنحت والموسيقى والهندسة المعمارية، متأثرا بالفن عند الفرس والترك، ونستطيع أن نلمس ذلك فى غاية الوضوح فى مجالات عديدة منها:

- زخرفة المساجد، حيث لم تكن المساجد على عهد الرسول ﷺ ولا فى القرون الثلاثة الأولى مزخرفة، لأن الإسلام نهى عن زخرفتها حتى لا تشغل المصلين عن الخشوع فى الصلاة، ولأن المسلمين فى هذه الثلاثة القرون الأولى من تاريخ الإسلام كانوا ملتزمين بقيم الإسلام ومبادئه.

أما بعد اتصالهم بالفرس والترك فقد أصبحت زخرفة المساجد ظاهرة عامة حتى فى بعض المحاريب نفسها.

- ودخل على المسلمين فى مجال الموسيقى آلات طرب وعزف ذات أوتار هى من صناعات الفرس والترك، فتعامل معها المسلمون ومارسوا فن الألحان من خلالها بالإضافة إلى الطنابير والعيدان وغيرهما من المعازف.

دخل ذلك على المسلمين، وكثير منه مخالف لقيم الإسلام ومبادئه، وقد أبدع فى ذلك موسيقيون مسلمون فكانت لهم فى إبداعاتهم شهرة واسعة طوفت آفاق العالم الإسلامى، لكن الملتزمين منهم بقيم الإسلام ومبادئه فى هذا المجال قلة.

- ودخل على الفنانين المسلمين فى مجال التصوير كثير من المتغيرات تأثراً بفن التصوير الفارسى أو التركى، مما خرج بكثير منهم عن القيم والمبادئ الإسلامية فيما يصورون، وفيما يبدعون، فجاء فنهم ممثلا لهم لا للإسلام إلا فى حدود ما التزموا فيه بقيم الإسلام ومبادئه، فهو إذن الفن عند المسلمين وليس الفن الإسلامى.

ب- الروم واليونان وأثرهم فى فنون المسلمين

● كان الروم فى بداية أمر الدولة الإسلامية – على عهد عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – يكادون ينحصرون فى نصارى الشام، وكانت صلتهم بالمسلمين على نوعين.

نوع منهم:

دخل فى الإسلام وصار له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، كما يوجب ذلك الإسلام، وهذا النوع أثر فى المسلمين وتأثر بهم بحكم ما له من خلفية ثقافية، وتراث علمى وفنى، وقد ظهر تأثير علومه وفنونه فى المسلمين على المدى القريب والبعيد على السواء.

ونوع منهم:

بقى على دينه وعاش فى ظل دولة الإسلام ينعم بما كفل الإسلام لأهل الكتاب من حقوق، وما أوجب عليهم من واجبات.

غير أن بعض هؤلاء الذين بقوا على دينهم كانوا عيونا لدولة الروم على المسلمين، وبعضهم كان يؤوى جواسيس لدولة الروم مستغلين ما يتمتعون به في الدولة المسلمة من حفاظ على حريتهم وسائر حقوقهم.

وعن طريق بعض هؤلاء النصارى الجواسيس والمؤوين لجواسيس دولة الروم، استطاع البيزنطيون احتلال أنطاكية فترة من الزمن، كما استطاعوا دخول حلب، وقد أخرجوا منهما ثم دخلوهما أكثر من مرة.

● ثم كانت الحملات العسكرية التى سميت بالحروب الصليبية حيث أسس الصليبيون خمس ممالك فى أرض الشام، واستمر بعضهم فى أرض الشام إلى ما يقرب من مائتى عام إلى أن أخرجوا منها جميعا.

ولقد كانت تأثيرات الروم فى المسلمين؛ علومهم وفنونهم كبيرة تناولت مع العلم والفن كثيرا من العادات اليومية والموسمية، مما يؤكد تأثر حياة المسلمين بما عرفوه عن الروم أو عن اليونان بعد ذلك.

وكانت حركة الترجمة من المعابر التى عبرت عليها تأثيرات الأجانب عن المسلمين من روم ويونان فى المسلمين علومهم وفنونهم، وقد حدث اهتمام كبير بحركة الترجمة فى

الدولة العباسية، حتى كانت موضع اهتمام الخلفاء أنفسهم كالخليفة المأمون وغيره، فلقد نستطيع القول بأن المسلمين منذ ذلك العصر قد عمدوا إلى نقل وترجمة كل ما استطاعوا نقله وترجمته من علوم الأمم الأخرى وفنونها وفلسفتها، فأكثروا الترجمة والنقل عن: اليونان والروم، كما كانوا قد نقلوا عن الفرس والهند. ولقد أجمع العلماء من مؤرخي الحضارة على أن المسلمين قد استطاعوا أن يترجموا وينقلوا عن سواهم من الأمم على مدى قرنين من الزمان ما لم يستطع الرومان نقله عن سواهم في عدة قرون.

- ونتيجة لهذه الحركة الكبيرة في الترجمة شاعت العلوم العقلية كالفلسفة والمنطق، وعلم الكلام - قضايا التوحيد - مما جر المعتزلة إلى القول بخلق القرآن الذي أدى إلى فتنة بين المسلمين ومحنة لكبار علمائهم كالإمام أحمد بن حنبل رحمه الله.

ثم كثر التأليف والإبداع في عديد من العلوم والفنون حتى أصبحت بغداد عاصمة الخلافة العباسية كعبة العلم ومحج العلماء من كثير من أنحاء العالم، فكانت بحق أم العواصم العالمية في العلوم والفنون، ومهوى أفئدة الطلاب للعلم سواء أكان علما عقليا أو نقليا، وبخاصة الأدب والفلسفة والطب والصيدلة والأدوية والعمارة والزخرفة والموسيقى.

- وما كان ذلك التأثر بحضارات الآخرين إلا نتيجة للانفتاح على الآخر، فحدث تلاقح الثقافات وتبادل مظاهر الحضارة، وتواصل هذا وذاك وأخذ بعضه عن بعض، على الرغم من الحروب والصراعات بين الحكام والنظم السياسية، لأن الحروب - كما أسلفنا - معبر من المعابر التي تنتقل من خلالها الثقافات ومظاهر الحضارات ومفرداتها.

وكان القرن الرابع الهجري وما بعده بسبب هذا التواصل الحضاري مجالاً لنهضة علمية فنية كبرى أخذت تنتقل إلى أقاليم أخرى؛ لتؤثر فيها أبلغ التأثير - بعد أن كانت متأثرة بها - مثل: خراسان والري وأذربيجان وما وراء النهر، ومصر والشام كله، والأندلس، ثم غيره من بلدان أوروبا.

- ثم كان سيل من التأليف للكتب التي تناولت مختلف العلوم والفنون، وكان هدف أغلب مؤلفيها هو الإبداع فيما تناولوا من موضوعات، وكان أغلب هذه الكتب مُهدى إلى بعض الخلفاء أو الأمراء أو الوزراء.

وكان هناك تنافس بين المترجمين، وتنافس بين المؤلفين لما يحظى به المترجم أو المؤلف من مكافأة أو جائزة على ما ترجم أو ألف، ثم انتقل بين علماء المشرق والمغرب، وكثرت

مكافأة الخلفاء والأمراء والوزراء للمترجم أو المؤلف بوزن كتابه وإعطائه مثل وزنه ذهبا.

وأصبح التأليف مفخرة للمؤلف يرفع من قدره، وشاع التأليف بين بعض الخلفاء والوزراء والأمراء، وزاد عدد ما ترجم وما ألف زيادة كبيرة، وعُرفت المكتبات العامة فى العالم الإسلامى بعد أن كانت مكتبات خاصة فقط.

وتفرغ بعض العلماء للتأليف وبخاصة فيمن كانت حرفتهم الوراقة، حتى كان لبعضهم أكثر من مائة مؤلف، أو مائتين مثل: الكندى، والفارابى وابن سينا والغزالى، وغيرهم فى مصر والأندلس.

● وقد تأثر المسلمون بالعلوم والفنون التى دخلت عليهم، كما أثروهم بعلومهم وفنونهم فيمن عداهم من الناس.

ومما سجله باحثو الغرب ومؤرخوه أن أوروبا فى عصر نهضتها العلمية اتخذت من علوم المسلمين أساسا بنت عليه نهضتها، وبخاصة فى علوم:

الطبيعات.

والكيمياء.

والرياضيات كالحساب والجبر وغيرهما.

وعلم الفلك.

والهندسة، وغير ذلك من العلوم.

● على وجه الإجمال، فإن اليونان برعوا فى العلم والفلسفة، وأن الروم أخذوا عن اليونان العلم والفلسفة، وزادوا عليهم وضع القوانين والتنظيم.

وكان اليونان أهل تصور وخيال، والرومان أهل حرب وفتح.

أما المسلمون فقد جمعوا بين أحسن ما عند هؤلاء وأولئك، وزادوا على ذلك كله شيئا كثيرا فى مجالات العلم والفلسفة والقوانين والنظم، والحرب والفتح، وأصول التمدن والعمران.

ولما كانت الحروب الصليبية واستمرارها ما يقرب من مائتى عام، تبادل المسلمون والغربيون النقل بعضهم عن بعض فى كثير من الثقافات ومفردات الحضارة، وانتفع كل بما أخذ عن الآخر.

غير أن الملحظ الجدير بالاهتمام والتسجيل أن كثيراً مما أخذه المسلمون عن اليونان والروم والصليبيين لم يكن مقبولا من الإسلام؛ قيمه ومبادئه وإن كان بعض المسلمين قد أقبلوا عليه وتمثلوه وحاكوه ونسجوا على منواله في كثير من الفنون، فكان أدباء المسلمين وفنانوهم يبدعون في التعبير عن هذا الفن الوافد مخالفين بذلك قيم الإسلام ومبادئه – كما أوضحنا ذلك فيما سلف – فجاء تعبيرهم عن هذه الفنون وتصويرهم لها منتميا إليهم لا إلى الإسلام، لما يتضمنه من مخالفات للإسلام.

إن نتاج الفنانين المسلمين لا يمكن أن يكون فنا إسلاميا وهو يخالف قيم الإسلام ومبادئه، وفهذا الإنتاج من فنون المسلمين وليس من الفنون الإسلامية.

وقد كانت بعض فنون المسلمين غاية في جمال التعبير عن الجمال الذي أحسوا به، بالقياس إلى القيم الجمالية العامة في الفنون كالشكل والصورة والقالب والزخرف والألوان والنسب وغيرها من القيم الجمالية، ولكن مخالفتها لقيم الإسلام ومبادئه تجعلها بعيدة عن أن تكون فنا إسلاميا، وحسبها أن تكون من فنون المسلمين.

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال، هو:

ما دام الفنان مسلما، فلماذا يبدع فنا يخالف قيم الإسلام ومبادئه؟.

والجواب معروف وهو: أنهم فعلوا ذلك وخالفوا قيم دينهم لأسباب عديدة مجتمعة أو متفرقة مثل:

– جهلهم بالإسلام وقيمه ومبادئه.

– أو انبهارهم بفنون الأجانب شكليا، ومحاكاتها دون النظر أو دون التدقيق في المضمون الذي يخالف الإسلام، وهذا نوع من الغفلة يقرب من الجهل بالإسلام.

– أو تقصيرهم في الالتزام بقيم الإسلام ومبادئه، مما يدخل في مجال المعصية لما جاء به دين الإسلام.

– أو الرغبة في الخروج من كل ما هو ديني لزعمهم أن الدين قيود على حرية الإبداع، وهي موجة سادت الغرب ثم انتقلت إلى المسلمين، وقد يكون لها في الغرب مبرر أوجدته الكنيسة ورجال الدين عندهم، ولكن لا مبرر لها عند المسلمين.

والمحصلة التي نصل إليها بعد هذا الاستعراض الوجيز لتأثر فنون المسلمين بالفرس والترك

قبل أن يدخلوا فى الإسلام، أو بعد أن دخلوه ولكنهم لم يلتزموا بقيمه ومبادئه، وتأثرهم باليونان والروم والصليبيين، المحصلة هى : أن التربية الجمالية الإسلامية تقوم على تقدير الجمال وحبه ونشره بين الناس وتدعو إلى ممارسته فى القول والملبس والمسكن والمآكل وكل ما يحيط بالإنسان، ولكنها لا تكون تربية إسلامية جمالية إلا إذا التزم الفنان أو المبدع فيها بقيم الإسلام ومبادئه فى كل ما ينتج من فن.

تلك قضية ملحة وجوهرية ولابد أن نذكر بها ما بين حين وآخر من موضوعات هذا الكتاب.

■■■■

٣- تأثير العثمانيين فى فنون المسلمين

كان لدولة الخلافة العثمانة التى اتسع نفوذها ليشمل العالم الإسلامى معظمه نحواً من ستة قرون أو يزيد قليلا (من سنة ١٢٩٩م - ١٩٢٢م) وبخاصة بعد استيلائها على الشام ومصر وغيرهما من البلدان التى كانت تتبع نظام حكم المماليك أو غيرهم.

هذه الدولة التى أطلقت على نفسها دولة الخلافة العثمانية امتد نفوذها خارج العالم الإسلامى فى أوروبا، بل توغلت فى شرق أوروبا ووسطها - على نحو ما كما بينا آنفا - وبسبب هذا الامتداد وتلك الانتصارات، افترى الغربيون على تلك الدولة المفتريات وتابعهم على ذلك الحاقدون على هذه الدولة بسبب عسف بعض ولاتها من جانب وبسبب بعدهم وحقدهم على كل ما هو إسلامى من جانب آخر.

ثم تحالفت دول أوروبا ومن شاركها فى الحقد على الدولة وعلى الإسلام، تحالفوا فى العمل على إسقاط دولة الخلافة العثمانية، حتى تم لهم ما أرادوا على يد مصطفى كمال نصف اليهودى ومن أيده لبطشه وجبروته وكان ذلك عام ١٩٢٢م، حيث حارب مصطفى كمال كل ما هو إسلامى من قيم ومبادئ وأنظمة، ومساجد ومدارس لتعليم العربية والقرآن وعلوم الإسلام، ليحل محل كل ذلك نظام حكم علمانياً معادياً للإسلام، وكان ذلك بتأييد من دول الغرب، وأصحاب النفوذ من يهود دول الغرب فى قصة معروفة الأحداث والحبكة يعرفها كل من يقرأ تاريخ العصر الحديث بعين تبصر وعقل يعى، وقلب ينبض بحب العدل والإنصاف.

- ولقد تركت دولة الخلافة العثمانية فى المسلمين آثارا عميقة تناولت الفكر والأدب والعلوم والفنون، والنظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ما فى ذلك من شك، وكان تأثيرها فى كل ذلك إيجابيا فى الغالب وسلبيا فى بعض الأحيان.

أما أثر دولة الخلافة فى الفنون فلا يزال كثير منه باقيا إلى يومنا هذا، وأوضح ما كان من تأثير فنى لها فى العالم الإسلامى من الناحية الجمالية بدا فى فن العمارة، حيث كان لها طراز تميزت به، سريعا ما انتقل إلى كل بلدان المسلمين الذين يعيشون فى ظلها، ويلتمس ذلك حتى اليوم فى المساجد من حيث هندسة مبانيها وقبابها ومآذنها وما دخلها من زخرف فى المحراب والمنبر والحوائط والأعمدة وغيرها.

كما اتضح هذا الأثر الفنى فى بناء القصور للولاة والأمراء والوزراء على النحو الذى كان سائدا فى دولة الخلافة العثمانية وكذلك تأثرت فى فنون أخرى كالنحت والتصوير والزخرفة والموسيقى وغيرها.

على أن فن بناء السفن فى البلاد التى تطل على البحار وفيها نهضة صناعية تأثرت بشكل مباشر أو غير مباشر بما كان لدى العثمانيين من خبرات وفنون فى هذا المجال.

وكذلك أثرت دولة الخلافة العثمانية وما أحاط بها من ظروف فى النهضة العلمية فى معظم بلدان العالم الإسلامى، حيث كانت العلوم الإسلامية عندهم شروحًا وتعليقات وحواشى وتقريرات حتى ليمكن ان يسمى عصرهم عصر الشروح والحواشى، متأثرين فى ذلك بعصر سلاطين المماليك عصر الموسوعات والكتب الجامعة والشروح والحواشى عوضا عما فقده المسلمون من كتب ومكتبات على يد المغول حين سقطت بغداد فى أيديهم، ثم انتقل ذلك إلى غيرهم من المعاصرين لهم والذين جاءوا بعدهم.

ولأن دولة الخلافة أصلها تركى - والأتراك متمسكون بمذهب أهل السنة - فقد حدث على أيديهم نوع من التضييق الذى يصل أحيانا إلى حد الاضطهاد لكثير من الشيعة داخل الدولة أو خارجها، وفى مقابل ما عاناه الشيعة من تضييق، فإن دولة الخلافة أطلقت العنان بل شجعت أصحاب الطرق الصوفية بكل ما لهم من فضائل وما عليهم من مآخذ.

وليس من المبالغة القول بأن الأتراك قد جعلوا للطرق الصوفية ازدهارا وانتشارا.

ومن أشهر هؤلاء الصوفيين الذين عبروا عن التجلى الصوفى والنشوة الدينية ابن عربى (٥٦٠ - ٦٣٨هـ) الذى لقيت كتبه رواجًا لدى العثمانيين بعد موته بعد أن كان متهما من قبل بالقول بوحدة الوجود.

ومن أشهر تلاميذ ابن عربى التلمسانى (٦١٠ - ٦٩٠هـ) الذى شاعت كتبه فى هذا العصر أيضًا.

ثم كان الشعرانى عبد الوهاب بن أحمد (٨٩٨ - ٩٧٣هـ) والصدر الشيرازى (٠٠٠ - ١٠٥٩هـ) وغيرهم ممن ذاع صيتهم وانتشرت كتبهم فى العهد العثمانى على الرغم مما قيل عن أفكارهم وشطحاتهم.

● ولم يقتصر تأثير العثمانيين على ذلك وإنما جمع إليه تأثيرات سلبية عديدة منها:

– انكماش اللغة العربية فى العالم العربى، لتحل محلها اللغة التركية التى أصبحت لغة الحكام والدواوين والإدارات الحكومية بل لغة كثير من الناس.

– كذلك ضعفت الأساليب العربية لهذه المزاحمة، بل شاعت اللغة العادية وزادت الفصحى انكماشا.

– وشاع التاليف بالعامية، كما هو معروف من قصص وملاحم شعبية ذائعة الصيت مثل: السيرة الهلالية وهى حروب بنى هلال، وسيرة بنى كلاب وحروبهم ضد الروم، وغير ذلك من السير التى كتبت بالعامية وعلى رأسها، «ألف ليلة وليلة» والتى وصلت فى هذا العصر إلى شكلها الأخير.

– ومن سلبيات هذا العصر نتيجة لأسباب عديدة أن ضعف الإبداع الأدبى لتنحى اللغة الفصحى، وما دام الأدب قد ضعف فإن القيم الخلقية الفاضلة لابد أن تنحى وأن يشيع فى الناس استهتار بالحقوق والواجبات، أى عدم التزام بقيم الإسلام ومبادئه.

– ومن هذه السلبيات أن تنتشر الخرافة وأن تشيع الأوهام، وأن تصبح الأفكار سطحية والعقول ضحلة والثقافة مريضة، والألسنة غير منضبطة، وأن تشيع الألفاظ البذيئة والعبارات الخادشة للحياء، وأن تكثر الخلاعة وأن يزيد عدد الخلعاء، حتى إن كتبا بأكملها قد ألفت وطبعت وفى محتوياتها مالا يرضى الله تعالى ولا رسوله ﷺ.

– ولأن نظام الحكم ومسئوليه كانوا ظالمين أو مستبدين كانت الإدارة الحكومية فاسدة فى كثير من بلدان المسلمين، مما ساعد على شيوع الظلم والفساد وعداوة الناس للحكام وتمردهم عليهم وعلى أنظمتهم.

ولابد أن يكون من وراء ذلك كله من يشجع على إقصاء القيم الإسلامية عن حياة الناس، فذلك هدف دائم لأعداء الإسلام فى كل زمان ومكان، ولقد تعاون هؤلاء الأعداء فيما بينهم – غربيين وصهيونيين ووثنيين وملاحدة – حتى أبعدوا المسلمين عن دينهم، ثم عملوا على إسقاط دولة الخلافة على نحو ما أشرنا إليه فى هذا الكتاب وغيره من كتبنا.(١)

● أما تأثر الأدباء والفنانين بالفنون العثمانية – وهم يعبرون عن إحساسهم بالجمال، وعما هو سائد فى هذا المجتمع من قيم وعادات – فمن المتوقع أن يكون غير ملتزم بقيم الإسلام ومبادئه، لأن ذلك مغيب عنهم، ومبعدون هم عنه، فجاءت فنونهم بعيدة عن قيم

---

(١) وانظر كتابنا: التراجع الحضارى فى العالم الإسلامى وطرق التغلب عليه.

الإسلام ومبادئه، ومعبرة عن المسلمين الذين أبدعوها، فلم تكن فنًا إسلاميا بالمعنى الذى أوضحناه أكثر من مرة، وإنما كانت من فنون المسلمين، تلك من المسلمات فى هذا العصر، لا نبالغ إن قلنا: إنها ليست محل جدل أو خلاف بين مؤرخى هذا العصر.

● غير أن الصورة لم تكن بالغة القتامة على الرغم مما ذكرنا فلم يكن الأدب كله ولا الفن كله ولا العلم كله على مستوى التراجع والانحطاط الذى يناسب ما كان شائعا فى المجتمعات المسلمة من بعد عن قيم الإسلام ومبادئه، وذلك من رحمة الله تعالى بالمسلمين، فقد كان هناك علماء وأدباء ومفكرون وفنانون، وإن كانوا قلة، ومن هؤلاء:

– ابن معتوق محمد بن محمد الشيبانى ثم القوصى، من أهل قوص بمصر، شاعر فنان له ديوان شعر كبير مخطوط وهو غير ابن معتوق صاحب الديوان المطبوع، المتوفى سنة ٧٠٧ هـ.

– ابن إياس المؤرخ محمد بن أحمد المتوفى سنة ٩٣٠هـ.

– وعائشة الباعونية المتوفاة حوالى سنة ٩٥٠هـ.

– والموسوعى طاش كبرى زادة صاحب كتاب «مفتاح السعادة ومصباح السيادة» المتوفى سنة ٩٦٨هـ.

– والعالم الجليل ابن حجر الهيثمى المتوفى ٩٧٣هـ.

– والفقيه المتصوف عبد الوهاب الشعرانى، صاحب كتاب «الطبقات» المتوفى ٩٧٣هـ.

– وشمس الدين اليمنى الشرجى المتوفى ٩٩٩هـ.

– وداود الأنطاكى صاحب كتاب: «تذكرة أولى الألباب»[1] المتوفى سنة ١٠٠٨هـ.

– وشهاب الدين العناياتى النابلسى المتوفى ١٠١٤هـ.

– ومحمد أمين بن بايسين الحسينى الموصلى المتوفى سنة ١٠٢٢هـ.

– وابن المُلاَّ الحلبى الحصكفى المتوفى سنة ١٠٣٠هـ.

– وبهاء الدين العاملى صاحب كتابى: «الكشكول» و«المخلاة» المتوفى سنة ١٠٣١هـ.

---

(١) اسم الكتاب «كاملاً هو»: «تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب فى الطب والأدوية والعقاقير والأمراض».

– والمقرى أبو العباس أحمد بن محمد صاحب كتاب: «نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب ووزيرها لسان الدين بن الخطيب» المتوفى سنة ١٠٤١هـ.

– وابن أبى نُمى الشريف الحسنى المتوفى ١٠٤٢هـ.

– ومصطفى عبد الله الشهير «بحاجى خليفة» صاحب كتاب: «كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون» وهو موسوعة جليلة القدر، المتوفى سنة ١٠٦٨هـ.

– وابن معتوق شهاب الدين الموسوى من أهل البصرة شاعر شهير، وهو صاحب الديوان المطبوع، المتوفى سنة ١٠٨٧ هـ.

– والحسن بن مسعود المراكشى المتوفى سنة ١١١١هـ.

– وصدر الدين بن معصوم الحسينى المتوفى سنة ١١١٧هـ.

– وعبد الغنى النابلسى العالم بالدين وبالأدب المتصوف الذى أكثر من التصنيف، صاحب كتب عديدة فى العلم والفن منها: فهرس لكتب الحديث الستة، والحضرة الأنسية فى الرحلة القدسية، وإيضاح الدلالات فى سماع الآلات، وجواهر النصوص فى شرح الفصوص – فصوص الحكم لابن عربى – وقلائد المرجان فى عقائد أهل الإيمان. وغيرها كثير ما بين مطبوع ومخطوط، توفى سنة ١٠٤٣هـ.

– والتهانوى محمد بن على الفاروقى عالم هندى له كتاب «كشاف إصلاحات الفنون» توفى بعد سنة ١١٥٨هـ.

– وعبد الله بن شرف الدين الشبراوى القاهرى من علماء الأزهر المتوفى ١١٧٢هـ.

– ويوسف الحفنى أبو المحاسن المصرى المتوفى سنة ١١٧٢هـ.

– وعبدالله بن عبد الله بن سلامة الأدكاوى، الذى يعرف بالمؤذن، مصرى عالم أديب ولد بقرية إدكو قرب رشيد، وهو فنان له مؤلفات عديدة أغلبها مخطوط، توفى سنة ١١٨٤ هـ.

– والسيد المرتضى الزبيدى اليمنى صاحب كتاب: «تاج العروس من جواهر القاموس»[1] توفى سنة ١٢٠٥هـ.

---

(١) القاموس هو: القاموس المحيط – من أهم المعاجم اللغوية فى العربية الفه الفيروز أبادى محمد بن يعقوب المتوفى ٨١٧ هـ.

– وأبو العرفان محمد بن على الصبان، صاحب كتاب: «حاشية الصبان على شرح الأشمونى لألفية مالك» توفى سنة ١٢٠٦هـ.

– والعالم الجليل الشيخ محمد بن الوهاب صاحب المؤلفات العديدة النافعة[1] المتوفى ١٢٠٦ هـ.

– وعبد الرحمن بن حسن الجبرتى المؤرخ المصرى المشهور المتخرج فى الأزهر، له كتاب: «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» يعرف بتاريخ الجبرتى، وقد ترجم إلى الفرنسية وقد توفى سنة ١٢٣٧هـ.

– ومحمدبن على الشوكانى اليمنى الفقيه المحدث صاحب كتاب: «نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار» المتوفى سنة ١٢٥٠هـ.

– ومحمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقى، فقيه الديار الشامية وإمام الحنفية فى عصره، له كتاب بالغ الأهمية فى فقه الحنفية سماه: «رد المحتار على الدر المختار» مطبوع يعرف بحاشية ابن عابدين، وله كتب أخرى فى الفقه وأصول الفقه والفتاوى والبلاغة والتفسير والحديث. توفى سنة ١٢٥٢هـ

– وشهاب الدين الألوسى الكبير محمود بن عبد الله الحسينى أبو الثناء، مفسر محدث أديب مجدّد من أهل بغداد، له كتاب رائع فى التفسير هو: «روح المعانى» كتاب ضخم جامع فى التفسير، وله كتب أخرى كثيرة نافعة وهو شاعر جيد، وينسب إلى: «آلوس» جزيرة فى وسط نهر الفرات قرب بغداد توفى سنة ١٢٧٠هـ.

– وصديق حسن خان البخارى القنوجى من رجال النهضة الإسلامية المجددين، ولد ونشأ فى قنوج بالهند، له أكثر من ستين مصنفًا بالعربية والفارسية والهندية، ومن أهم كتبه:

أبجد العلوم.

وفتح البيان فى مقاصد القرآن، عشرة أجزاء.

وعون البارى فى الحديث.

وحصول المأمول فى علم الأصول. وغيرها. توفى سنة ١٣٠٧هـ.

---

(١) قامت بطبع مؤلفاته بعد جمعها: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

- وخير الدين (باشا) التونسى من رجال الإصلاح الإسلامى وكان وزيراً فى عهد «الباى» أحمد بتونس، ورحل عن تونس إلى الآستانة فكان قريبا من السلطان عبد الحميد فولاه الصدارة العظمى[1] سنة ١٢٩٥هـ، له كتاب: «أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك» مطبوع. كان مؤمنا بأن على الشرق أن يغير أساليب الحكم الاستبدادى الذى جرى عليه. توفى سنة ١٣٠٨هـ.

- وجمال الدين الإفغانى محمد بن صفدر الحسينى، مصلح إسلامى فيلسوف عالم، أحد العلماء المسلمين الذين قامت على أكتافهم نهضة الشرق الإسلامى[2].

بعد رحلات عديدة من كابل إلى الهند والآستانة قصد مصر، فنفخ فيها روح النهضة الإصلاحية فى الدين والسياسة، ومقاومة الاستعمار الإنجليزى، تتلمذ على يديه كبار الإصلاحيين فى مصر، وعلى رأسهم نابغة مصر وفقيهها والمجدد لأمر الدين الشيخ الإمام محمد عبده.

له كتب: تاريخ الأفغان ورسالة فى الرد على الدهريين، وأنشأ جريدة العروة الوثقى، وله فيها مقالات عديدة. توفى سنة ١٣١٥هـ.

- والشيخ الإمام محمد عبده بن حسن خير الله مفتى الديار المصرية من كبار رجال الإصلاح والتجديد فى الإسلام، تصوف وتفلسف وتولى تحرير الوقائع المصرية وحَرّر مع جمال الدين الأفغانى جريدة العروة الوثقى.

له عديد من الكتب منها:

تفسير القرآن الكريم -لم يكمله.

ورسالة التوحيد.

والردّ على «هاناتو».

والإسلام والرد على منتقديه.

ورسالة الواردات فى الفلسفة والتّصوف

والثورة العرابية- لم يكمله - وغيرها.

توفى سنة ١٣٢٣هـ.

---

(١) الصدارة العظمى تعنى: رئاسة مجلس الوزراء.

(٢) للمؤلف فيه كتاب: جمال الدين الأفغانى والاتجاهات الإسلامية فى أدبه.

– والإمام الشهيد حسن بن أحمد البنا مؤسس « جماعة الإخوان المسلمين »، استخلص أفرادا فدعاهم إلى العمل من أجل رفعة شأن المسلمين، فعاهدوه على العمل لإعلاء كلمة الإسلام واختار لنفسه لقب المرشد العام، وكانت بداية عمله فى مدينة الإسماعيلية، ثم انتشرت دور الجماعة فى كثير من المدن والقرى فى مصر كلها، وكانت تسمى شعبًا، وقد حرص الإمام البنا على ألا يقصر الدعوة على الرجال، فانشأ فى الإسماعيلية « معهد أمهات المسلمين » لتربية البنات تربية إسلامية صالحة.

ثم نقلته وزارة المعارف إلى القاهرة فانتقل إليها المركز العام للجماعة، ولقيت الدعوة فى القاهرة إقبالا شديدا وعظم أمر جماعة الإخوان المسلمين وأصبح لها أكثر من أربعة آلاف شعبة فى مصر.

وخشى رجال السياسة من هذا الانتشار، فحاولوا إبعاد الجماعة عن السياسة وقصر نشاطها على أعمال البر والوعظ والخطابة، فأخذ الإمام البنا رحمه الله يعرف الإسلام لهم وللناس، فكان مما قال: « إن الإسلام عقيدة وعبادة، ووطن وجنسية، وخلق وقوة، ومادة وثروة، وثقافة وقانون ».

وأخذ يكتب الرسائل الصغيرة يعرف فيها بالإسلام مثل: دعوتنا، وإلى أى شىء ندعو الناس، وبين الأمس واليوم وغيرها.

وأنشأت الجماعة جريدة يومية باسم « الإخوان المسلمين » وكانت خطب الإمام البنا ومحاضراته ومؤتمراته عملا مستمرا، وكانت للجماعة كتيبة عسكرية سافرت إلى فلسطين لمقاومة اليهود سنة ١٩٤٨.

ومنذ ذلك البروز الجهادى العملى لجماعة الإخوان المسلمين تألبت عليهم بريطانيا المستعمرة لمصر آنذاك واليهود وغيرهم، فاستعْدَوْا عليهم الحكومات المصرية، فاعتقلوا قيادة الجماعة ومعهم الإمام البنا، ثم أفرجوا عنهم ثم أصدروا قراراً بحل الجماعة وإغلاق شعبها والاستيلاء على أموالها واعتقال أفرادها ومحاكمة كثير منهم، ثم اغتالوا الإمام البنا أمام جمعية الشبان المسلمين فى القاهرة ليلا.

ولما قامت ثورة ١٩٥٢م بمصر، تعاون معها الإخوان، ثم ما لبثت الثورة أن عادت الجماعة وأصدرت قرارا بحلها واعتقال أفرادها وقيادتها، وتوجيه تهمة محاولة اغتيال جمال عبد الناصر فى الإسكندرية إلى الجماعة، وحدثت محاكمات هزلية لهم لم يكفل فيها شىء من

حقوق المتهمين وكانت الأحكام معدةً من قبل فأعدمت الحكومة ستة من كبار قادتهم وسجنت المئات منهم، واعتقلت الألوف وعذبتهم فى سجونها ومعتقلاتها وبخاصة السجن الحربى -وهو خاص بالعسكريين فقط- ولكنها الثورة العسكرية التى لا تحترم حقوق المواطنين.

ومنذ هذا التاريخ دأبت حكومات الثورة العسكرية على تجريم العمل من أجل الإسلام فى قصة دامية ليس هنا موضع الحديث فيها.

وبعد : فإن هؤلاء العلماء والأدباء والمفكرين والمصلحين والمجددين قد تأثروا بدولة الخلافة العثمانية فى العلوم والفنون والعادات والتقاليد؛ مما يلمس أثره فى إبداع المبدعين من مفكرين شعراء وكتابا وعلماء ومهندسين وفنانين، مما يطول الحديث عنه فى هذه الصفحات، ومما سوف نشير إلى بعضه فى الصفحات التالية بعون من الله وتوفيقه.

■■■■

٤- فنون المسلمين فى التعبير عن الجمال

قدمنا -فى الباب الأول من هذا الكتاب- صورة مجملة لما كانت عليه الفنون فى أوروبا بعد عصر النهضة العلمية، وتحدثنا كذلك عن بعض المدارس الفنية التى اشتهرت عندهم، وألمحنا إلى تأثر بعض المفكرين والفنانين بهذه المدارس الأوروبية فى رؤيتهم للجمال وفى تعبيرهم عنه.

ونحاول -فى هذا الفصل الأخير من الكتاب- أن نستعرض بإيجاز تأثر بعض الفنانين المسلمين فى إبداعهم الفنى بما كان عليه الفن عند الغربيين؛ إيمانا منا بتأثر الثقافات والحضارات بعضها ببعض.

وأهم فنون المسلمين التى عبروا بها عن الجمال متأثرين بالآخرين هى:

أ- فن التعبير عن الجمال بالكلمة شعرية أو نثرية.

ب- وفن التعبير عن الجمال بالتصوير والزخرفة.

جـ- وفن التعبير عن الجمال بآلات النحت.

د- وفن التعبير عن الجمال باللحن والموسيقى.

هـ- وفن التعبير عن الجمال بالهندسة المعمارية.

وكل فن من هذه الفنون كان للمسلمين فى إنتاجه قدم وساق. بل قدم راسخة وساق ساعية إلى الأمام، ولا ينكر هذا إلا من تعامى عن إبداعات المسلمين فى هذه الفنون على مدى عصور المسلمين كلها.

وكل هذه الفنون إنما كانت وليدة إحساسهم بالجمال فى الكون كله، وبما يحيط بهم من مفردات الحياة، مع رغبتهم فى التعبير عن هذا الجمال فى صور فنية متعددة.

وإن التعبير الفنى عن هذا الإحساس بالجمال، يدل بدقة وموضوعية على التعبير عن الفنانين المسلمين أولاً وأخيراً، بينما لا يعبر عن الفن الإسلامى إلا إذا كان الفنان المسلم ملتزما فى إبداعه وفنه بالقيم الإسلامية.

● ومما هو جدير بأن يلحظ وأن أشير إليه هنا إشارة خاطفة، أن الفنانين المسلمين كما تأثروا

بغيرهم فى الفنون التى عبَّرتْ عن إحساسهم بالجمال، كذلك أثروا هم فى سواهم من غير المسلمين تأثيراً غير قليل كما تحدث عن ذلك كثير من كتاب الغرب الذين يؤثرون تسجيل الحقائق، ولا يرون تميزاً ولا تعاليًا للغربى على غيره من المسلمين أو من الشرقيين، كما يحب بعضهم أن يتحدث عن المسلمين فيقول الشرقيين ولا يقول المسلمين، ولا أدرى سر هذه التسمية؛ أهى الأحقاد على كل ما هو إسلامى، وعلى كل من هو مسلم؟[1] أم هو التوجس من كل ما هو إسلامى؟

وفى حديثنا عن كل فن من هذه الفنون نقول، سائلين الله التوفيق والسداد.

■■■■

(١) أوضح مثال على ذلك: إطلاق تسمية الشرق الأوسط أو الشرق حتى تدخل فيه إسرائيل وهي عدو للعرب وللمسلمين، وتصريح جورج بوش الابن بالحرب الصليبية التى شنها على أفغانستان والعراق وارتكب فيهما كل المحاذير الدولية!!!

أ- فن التعبير عن الجمال بالكلمة شعرية أو نثرية

التعبير عن الإحساس بالجمال بالكلمة فن وإبداع يتفاوت فيه المبدعون ويأتى بعضهم فيه بما هو رائع وجميل.

وبعض النقاد يسمون التعبير بالكلمة شعراً أ و نثراً؛ فنّ القول، ويقصدون القول الأدبى الجميل، ويقسمونه إلى: شعر ونثر فنى، والشعر عندهم له سماته الفنية التى لا تفارقه، وله أغراضه، بل له أنواعه -كما قسمه الآخرون- من شعر غنائى وآخر ملحمى وثالث مسرحى.

والنثر الفنى له كذلك أقسامه وأنواعه من مقالة ومقامة وخطبة ورسالة وقصة، ولكل من ذلك أنواع وسمات مميزة له.

أولا: الشعر:

- فالشعر كما عرَّفه العلماء والنقاد هو: الكلام الموزون المقَفّى الصادر عن الشاعر عن قصد.

بل للشعر مفهوم واسع يدخل فيه الشعر الحر، والشعر المرسل عن القوافى، بل يدخل فيه الشعر المنثور، وهؤلاء الذين يوسعون مفهوم الشعر يجعلونه فيضاناً من شعور قوى ينبع من عاطفة تجمعت مكوناتها فى هدوء لتثيرها.

والشعر فى مفهومه التخصصى الدقيق له سمات تميزه أهمها:

- أنه ذو وزن وموسيقى، وقافية ينتهى بها بيت الشعر مهما بلغت أبيات القصيدة من العدد.
- وأنه ذو لغة خاصة به، حتى إنه ليصح القول بأن هذه الكلمة شعرية أو غير شعرية.
- وأن الكلمة الشعرية يجب إجادة استخدامها فى سياق كلمى يضفى عليه وعلى بيت الشعر أو مجموعة الأبيات منه مذاقا خاصاً، وتأثيراً أشد خصوصية.
- وأن الشعر يتجه دائماً إلى خطاب العواطف وإثارتها نحو الهدف الذى تنشده القصيدة.
- وأن موسيقى الشعر لا تتوقف على الوزن وحده، وإنما تتسلل الموسيقى إلى كلمات الشعر وعباراته؛ بحيث يمكن للناقد الفنى أن يدرك الفرق بين موسيقى الوزن وموسيقى الإيحاء الذى تُشعُه الألفاظ والعبارات.

● ومن أجل هذه السمات وغيرها كان الشعر ولا يزال مرآة للعصر الذى قيل فيه، وسجلا يلجأ إليه شعراء الأمة ليسجلوا به أحداثها وقيمها بل عاداتها.

● وقد أجمع العلماء والنقاد على نَفْى الشعر عن القرآن الكريم، ونفى قرضه عن كلام النبى ﷺ حتى لو بدا موزونا فى بعض الأحيان؛ لأن الله تعالى قال عن نبيه ﷺ: **﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾** [يس: ٦٩-٧٠].

● ومن المسلَّم به لدى العلماء والأدباء والنقاد أن الشعر لا يُمدح أو يُذم لذاته، وإنما لما يحمله من معان وإيحاءات، ولما يدعو إليه من قبيح أو جميل، فقد روى البخارى بسنده -فى الأدب- عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«الشعر بمنزلة الكلام؛ فحسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام»**.

ورواه الطبرانى -فى الأوسط- بسنده عن عبد الله بن عمرو أيضًا.

ورواه أبو يعلى بسنده عن عائشة أم المؤمنين -رضى الله عنها-.

● وحكم الشعر بعامة؛ قرَّره كل العلماء فى العصور الإسلامية المتطاولة منذ بدئها وإلى يومنا هذا، بل هو حكم مستمر إلى أن يقوم الناس لرب العالمين وهو: أن قَرْضَ الشعر أو روايته والتمثل ببعض أبياته أو قصائده مُباح ما لم يكن فيه فحش أو بذاء أو خروج عما أمر الإسلام به أو دخول فيما نهى الإسلام عنه.

وقال العلماء: «إن الشعر كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح» وعلَّق على ذلك الإمام النووى رحمه الله بقوله: «.. وهذا هو الصواب؛ فقد سمع النبى ﷺ الشعر واستنشده، وأمر به حسانًا رضى الله عنه فى هجاء المشركين، وأنشده أصحابه- رضى الله عنهم- فى حضرته فى الأسفار وغيرها».

وقد كان لرسول الله ﷺ شعراء ينتصرون له ويجيبون المشركين عنه.

ومن هؤلاء الشعراء:

- حسّان بن ثابت رضى الله عنه.
- وكعب بن مالك رضى الله عنه.
- وعبد الله بن رواحة رضى الله عنه.

وقد قال النبى ﷺ فيهم: **«هؤلاء النَّفر أشد على قريش من نضح النَّبل»**

فقد روى أحمد بسنده عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: **«إن الله عز وجل قد أنزل فى الشعر ما أنزل، فقال: إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذى نفسى بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل»**.

وروى أبو داود بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان النبى ﷺ وضع لحسّان رضى الله عنه مِنبرًا فى المسجد يقوم عليه يفاخر أو ينافح عن رسول الله ﷺ، وكان يقول: إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح عن رسول الله ﷺ.

وأخرجه البخارى والترمذى.

وروى الترمذى بسنده عن عائشة رضى الله عنها وقد سُئلت: هل كان النبى ﷺ يتمثل بشىء من الشعر؟ قالت: كان يتمثل بشعر ابن رواحة ويقول: ويأتيك بالأخبار مَنْ لم تزوّد».

وروى أحمد بسنده عن أُبى بن كعب الأنصارى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن من الشعر حكمة»**. وأخرجه البخارى وأبو داود.

ورى ابن الديّبع الشيبانى الزبيدى[1] صاحب كتاب: «تيسير الوصول إلى جامع الأصول من أحاديث الرسول ﷺ» بسنده عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال: جاء أعرابى إلى النبى ﷺ؛ فجعل يتكلم، فقال النبى ﷺ: **«إن من البيان سحرا وإن من الشعر حكما»**.

وروى الترمذى بسنده عن جابر رضى الله عنه قال: جالَسْتُ النبى ﷺ أكثر من مائة مرة، فكان أصحابه يتناشدون الشعر؛ يتذاكرون شيئًا من أمر الجاهلية، وهو ساكت، فربما يبتسم معهم».

وروى مسلم بسنده عن عمرو بن الشريد عن أبيه رضى الله عنه قال: ردفتُ رسول الله ﷺ يومًا فقال: هل معك من شعر أُمية بن أبى الصلت شىء؟ قلت: نعم، قال: هِيه[2] فأنشدته بيتًا فقال: هيه، ثم أنشدته بيتا، فقال: هيه، حتى أنشدته مائة بيت».

---

(١) ولد ابن الديبع سنة ٨٦٦هـ - ١٤٦١م وتوفى سنة ٩٢٤هـ - ١٥٣٧م

(٢) هِيه: أى زدنى مما تقول.

وروى الترمذى بسنده عن أنس رضى الله أن النبى ﷺ دخل مكة فى عمرة القضاء وعبد الله بن رواحة بين يديه يمشى وهو يقول:

خلّوا بنى الكفار عن سبيله … اليوم نضربكم على تنزيله

ضربًا يزيل الهام عن مقيله … ويذهل الخليل عن خليله

فقال له عمر -رضى الله عنه-: يا ابن رواحة، بين يَدَىْ رسول الله ﷺ وفى حرم الله تقول الشعر؟ فقال رسول الله ﷺ: **خَلِّ عنه يا عمر، فَلَهِيَ أسرع فيهم من نضح النبل».**

وروى عبد الرازق -فى مصنّفه فى غير هذا الحديث: «أن النبى ﷺ دخل مكة فى عمرة القضاء وكعب بن مالك بين يديه» وهذا أصح عند بعض أهل الحديث لأن عبد الله بن رواحة قد قتل يوم مؤتة، وإنما كانت عمرة القضاء بعد ذلك.

وروى الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: **«أشعر كلمة تكلمت بها العرب قول لبيد: ألاَ كل شىء ما خَلاَ الله باطل».**

هذا تحرير ما قال علماء الإسلام فى الشعر؛ ما يحسن منه وما يجوز، أما غير ذلك فهو من أشعار المسلمين الذين لا يلتزمون بقيم الإسلام ومبادئه وآدابه، وهم مؤاخذون بما قالوا بين يدى الله تعالى، وفى الدنيا إن كان فى شعرهم عدوانا على أحد من الناس أو استهانة بقيمة من قيم الإسلام.

ونستطيع أن نوجز الحديث فى موضوعات الشعر التى لا يجيز الإسلام قول الشعر فيها ولا يجيز الاستماع إليها ولا روايتها فنقول:

- الشعر الذى يكون موضوعه المجون والخلاعة والفسق والفجور ووصف الخمور ونحو ذلك؛ لا يختلف المسلمون فى أى عصر على حرمته وعدم جواز روايته أو الاستماع إليه.
- وإذا كان موضوع الشعر هو الهجاء وذكر المثالب ورمى الناس بالعيوب والتهم، فذلك ما لا يختلف علماء الإسلام على تحريمه، لأن الإسلام حرّم ذلك ونهى عنه فى عديد من آيات القرآن الكريم وكلمات السنة النبوية المطهرة.

غير أن العلماء قد استثنوا من هذا الهجاء المجرّم ما كان هجاء للمشركين وأعداء الإسلام والمتربصين به إذا ما هجوا الإسلام أو هاجموه أو سخروا من قيمه ومبادئه.

- وإذا كان موضوع الشعر هو الغزل ووصف محاسن النساء والتحريض على الفسق وتتبع

العورات فذلك غير جائز بأى حال من الأحوال ولا خلاف بين علماء المسلمين على حرمته.

- وإذا كان موضوع الشعر الفخر فهو جائز إذا كان فخراً بقيم الإسلام ومبادئه وما يقدمه للناس من خير وما يدفع عنهم من شر فى دنياهم وآخرتهم، ومن فخر بذلك فهو بإذن الله مؤيد بروح القدس، كما كان شأن حسان بن ثابت رضي الله عنه، وغيره من شعراء الإسلام المفاخرين به المنافحين عنه.

أما الفخر فى المجال الشخصى بأن يفخر الإنسان بنفسه أو بذويه فذلك غير جائز وهو داخل فى تزكية النفس والدخول فى مجال الغرور والتكبر والتعالى، وكل ذلك مما نهى الإسلام عنه، والنصوص الإسلامية الدالة على ذلك كثيرة ومعروفة لمعظم المسلمين.

- وإذا كان موضوع الشعر هو المدح، فإن كان مدحًا للذات فهو من الفخر والتفاخر وهو ما لا يجوز لمسلم، وإن كان مدحًا للآخرين من الأحياء وبخاصة أصحاب السلطة والجاه والنفوذ فهو من النفاق الذى لا يجوز صدوره من مسلم، وبخاصة إذا كان مدحًا له فى وجهه، فذلك المادح أجدر أن يحثى فى وجهه التراب، وإذا كان المدح فى غير مواجهة الممدوح، وكان إشادة بعمل جيد من أجل الإسلام والمسلمين، مما يشجع السامعين على التحلى بهذه الصفات فذلك لا بأس به، بل هو نوع من نشر الفضائل والحثّ عليها.

- وإذا كان موضوع الشعر هو الرثاء، فذلك جائز بشرط أن لا يخرج عن الصدق والموضوعية، وأن يحث الأحياء على التحلى بصفات هذا المرثى، وبشرط ألاّ يكون جزعًا أو سخطا على قضاء الله وقدره فى موت من مات.

- وإذا كان موضوع الشعر هو الوصف - وهو أوسع أبواب الشعر - فإن للشاعر أن يصف ما يشاء، فى ظل شروط واحترازات عديدة منها:

- الابتعاد بل الامتناع عن وصف ما يثير الغرائز أو يشجع على التخلى عن مكارم الأخلاق التى دعا إليها الإسلام.
- والابتعاد عن المبالغات والمغالاة فى أوصاف الموصوف سواء أكانت فيه هذه الصفات أو لم تكن فيه.
- والابتعاد عن الألفاظ الفاحشة أو البذيئة أو التى تخدش الحياء ومكارم الأخلاق.

ثانيا : النثر الفنى :

● وأما النثر الفنى، فهو إبداع كالشعر، وبه يمكن التعبير عن الإحساس بالجمال .

وللنثر الفنى أنواع معروفة منذ قديم كالرسالة والخطبة والمقامة والعظة والقصة، ثم أضيفت إلى ذلك المقالة الصحفية بأنواعها العديدة، والمقالة الأدبية اجتماعية أو سياسية أو فنية، أو نقدية، ثم أضيف الحديث الإذاعى مسموعا أو مرئيا، والتحقيق الصحفى، وغير ذلك مما يرصده علم الإعلام اليوم .

وكل ذلك من ألوان النثر الفنى قد احتل مكانا بارزاً فى حياة الناس، وتيسر لهم الاطلاع عليه فى الصحف والمجلات والإذاعة بنوعيها، بل شبكات المعلومات المنتشرة الآن انتشاراً واسعاً .

وكل ذلك يجب أن يخضع لمعايير إسلامية ما دام يوجه إلى مسلمين فى بلدان إسلامية، بل يجب أن تسود هذه المعايير الإسلامية حتى فيما يُقدم لغير المسلمين أو فى بلاد غير إسلامية، لأنها معايير إنسانية عالية القدر داعية إلى التّحلّى بالفضائل والتّخلّى عن الرذائل .

● ولا يستطيع أحد أن ينكر ما لهذا الإبداع الفنى فى أنواع النثر التى ذكرنا، وبخاصة فى مجالين :

– مجال الإعلام مسموعًا أو مقروءاً، أو مشاهداً فى المسارح والسينما .

– ومجال القصة بأنواعها رواية أو قصة أو أقصوصة .

ومن أجل ذلك كان من الضرورى لصالح الأمة الإسلامية كلها، أن يكون هذا الإبداع مستهدفًا خير الأمة فى حاضرها ومستقبلها، وقادراً على إنارة الطريق أمام الناس حتى يسلكوها آمنين العثرات والأعداء، والظلم والاستبداد .

وهذا الإبداع الفنى فى مجاليه الكبيرين يسهم بأوفر نصيب فى رسم الخطوط الواضحة لسياسة الأمة واقتصادها وسائر نظمها الاجتماعية والثقافية والأدبية والفنية .

● إن النثر الفنى أوسع انتشاراً بأنواعه من الشعر، وإن الشعراء فى أى مجتمع أقل عدداً من الكتّاب، ولذلك يظل النثر الفنى فى مجاليه وبأنواعه كلها أشد تأثيراً وأكثر قدرة على توجيه الناس وتشكيل أفكارهم وعواطفهم، وصقل ذلك كله لإحداث وعى فى الأمة

يمكنها من التطور والتقدم فى مجالات العلم والثقافة من جانب، وفى تقوية إيمان الأمة بمعتقداتها وقيمها من جانب آخر.

- إن الكتّاب وحملة الأقلام والعلماء والأدباء والمفكرين عليهم العبء الأكبر فى صياغة وجدان الناس وأفكارهم، وفى بناء الأمة بناءً صحيحا يتحقق به صالح الناس فى دنياهم وآخراهم.
- إن تربية الأمة وإن كان واجب البيت والمدرسة فإنها كذلك واجب الكتّاب والمفكرين والعلماء والأدباء، وإن التراجع عن هذا الواجب لأى سبب من أسباب التراجع ماديا كان هذا السبب أو معنويا، لهو جريمة فى حق المجتمع وفى حق الإسلام، وفى حق الكاتب نفسه.

أقول هذا ليفكر الكتاب فيما يكتبون، ويحسنوا اختيار موضوعاتهم، ويحسنوا عرضها، ويقيموا أكبر الوزن لمدى تأثيرها فى الناس عقليا ووجدانيا وسلوكيًا، والله تعالى يهدى من يشاء إلى صراطه المستقيم.

وعندما يلتزم الكتّاب والمبدعون بقيم الإسلام فيما يبدعون، فإنهم يكتبون نثراً فنيا إسلاميا، أما إذا لم يلتزموا بذلك فهم كتاب مسلمون لا كتّاب إسلاميون.

■■■■

ب- فن التعبير عن الجمال بالتصوير والزخرفة

أولا : التصوير :

التصوير فنّ إنسانى قديم واكب الإنسانية فى مهدها؛ منذ حاول الإنسان أن ينقل ما يشاهده فى حياته بيده من خلال أداة تعينه على تصوير ما رآه وما أَحَسّ به، فكانت الريشة أو مايشبهها عونًا له على تسجيل مشاهداته من مظاهر الجمال على حجر أو شجر أو جدار.

وظل أمر التصوير يتطور ويتحسن حتى كان قدماء المصريين، فبرعوا فيه وتفوقوا، فزينوا معابدهم وبيوتهم ومقابرهم بما صوروا من مظاهر حياتهم اليومية، وطقوس حياتهم الدينية، بل صوروا حيواناتهم وطيورهم، وكل معجب لهم أو مثير لحاسة الجمال عندهم، واهتموا بأن يسجلوا ذلك على جدران معابدهم، ولا يزال ذلك العمل الفنى باقيا بعضه إلى يومنا هذا.

- والفن المصرى القديم وإن تعددت نماذجه من منحوتات اتّخذت من الحجر والشجر مجالا للنحت فيه، إلى تماثيل مجسمة اتخذت كذلك من الحجر والشجر مجالا، جاءت جميعها دالة على دقة هذه الأعمال وجمالها.

غير أن فنّ التصوير عندهم والرسوم المنقوشة الملونة فى معابدهم ومقابرهم وبيوتهم الباقية حتى اليوم تؤكد أن براعتهم وقدراتهم الفنية كانت أوضح ما تكون فى فن التصوير على وجه خاص.

وعلى الرغم من تعرض مصر لغزوات أجنبية قادها أصحاب حضارات عريقة كالآشوريين والفرس قديما فإن الفن المصرى القديم –فى مجال التصوير بالذات– لم يتأثر بفنون هذه الحضارات الغازية إلا فى نطاق ضيق، وظل محتفظا بطابعه وبكثير من خصائصه، وذلك مما يحسب للفنان المصرى القديم.

- وبالضرورة لم تكن مصر وحدها هى التى لجأت إلى التصوير لتعبر به عما تحس من جمال، وإنما شاركتها فى ذلك الحضارات القديمة معظمها، وإن تميزت مصر بالتفوق فى هذا المجال.

- وبالنسبة للمسلمين، فقد كانت معرفتهم بالتصوير مرتبطة بالمخطوطات أولا، حيث برع

فى فنّ التصوير المسلمون الذين يقيمون فى العواصم الإسلامية الكبرى كبغداد ودمشق والقاهرة، وغيرها من كبريات المدن الإسلامية التى تعج بالحركة الثقافية والفنية والأدبية.

ثم اتسع العالم الإسلامى رقعة وأجناسا من البشر دخلوا فى الإسلام أو عاشوا فى كنفه، واختلط المسلمون بأهل حضارات عديدة، فتأثروا بها وأثروا فيها، وكان تأثرهم فى فن التصوير أوضح من سواه من الفنون، حيث رسم بعض المسلمين صوراً على الثياب، وعلى الجدران، وعلى الدراهم والدنانير، وعلى الأحجار ونحوها، حتى لا يعد من المبالغة القول بأن فنانيهم رسموا على أشياء كثيرة من أبرزها:

الشَّمْع، والعجين، والطين، والحجر، والشجر، والنحاس، والحديد، ومنسوجات الصوف والكتان والقطن، وغير ذلك من كل ما يصلح للرسم عليه من مواد، مع اهتمام واضح بالتّلوين.

موقف الإسلام من التصوير:

يرى علماء الإسلام أن التصوير -بمعنى مضاهاة خلق الله- محرم يعذب فاعله، ويطالب بأن ينفخ فيه الروح وما هو بقادر على ذلك أبدا- فهو فى عذاب حتى ينفخ الروح فيما صوّر من كل ذى روح.

وقد استشهد العلماء على تحريم التصوير بشرح لعكرمة(1) بن عبد الله المدنى مولى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، حيث فسّر قول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا** ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، حيث قال عكرمة فى تفسيرها: هم الذين يصنعون الصور. بينما قال كثير من المفسرين: هم الذين يصفون الله بما هو منزّه عنه من الولد والشريك، ويكذبون رسوله ﷺ.

واحترام رأى عكرمة فى تفسيره بأن الذين يؤذون الله ورسوله هم المصورون، يعززه أنه مولى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما وعبد الله بحر من العلم لا يكاد يرى شاطئاه.

ويستدل الذين يحرمون التصوير بحديثين شريفين رواهما البخارى ومسلم هما:

- روى البخارى ومسلم بسنديهما عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة؛ يقال لهم: أحْيوا ما خلقتم**».

---

(١) ولد عكرمة سنة ٢٥هـ وتوفى سنة ١٠٥ هـ، وهو تابعى من أعلم الناس بالتفسير والمغازى، روى عنه زهاء ثلاثمائة منهم أكثر من سبعين تابعياً.

– وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل مصور فى النار يُجْعَل له بكل صورة صوَّرها نفسٌ، فتعذبه فى جهنم**» قال ابن عباس رضى الله عنهما: «فإن كنت فاعلا فاصنع الشجر وما لا روح فيه» قال ذلك لرجل كان يصنع الصور فلما علم أنها محرمة ذهب إلى ابن عباس رضى الله عنهما يبكى ويقول: إنها حرفتى أعيش منها. فقال له ذلك.

وقد ورد هذا الحديث بلفظ آخر هو: «**مَنْ صوَّر صورة فإن الله يعذبه حتى ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ فيها أبدًا**»

ومعنى هذا الحديث الشريف –كما يشرحه علماء الحديث–: أن المصوِّر معذب أبدًا، فقالوا: هذا محمول على الزجر، أو أن العذاب يجرى على مَنْ يستحل ذلك، وقالوا: هو مخصوص بصورة الحيوان الذى له روح، وأما تصوير الشجر ونحوه مما ليس فيه روح، فلا يُوجَّه إليه هذا الوعيد.

● وقضية التصوير حُسِم فيها الكلام بشكل واضح منذ حياة الرسول ﷺ، فلقد منع رسول الله ﷺ الصور ومنع صنعتها وتعليقها على الجدارن وحوائط البيوت، ونهى عما كان ممتهنًا منها بحيث يبسط على الأرض أو تدوسه الأقدام، وإنما منع الرسول ﷺ ذلك فى أحاديثه الشريفة خشية مضاهاة خلق الله تعالى من جانب، وخشية تقديس هذه الصور ثم عبادتها من دون الله تعالى، من جانب آخر.

● ولقد انتهى العلماء بالإسلام –بعد استقرائهم لما جاء فى التصوير من أحاديث نبوية – إلى رأى خلاصته: أن التصوير الضوئى «الفتوجرافى» والرسم اليدوى؛ للإنسان أو الحيوان أو ما فيه روح جائز إذا كان يحقق مصلحة للناس، كإثبات الشخصية ودقة التوثيق ونحو ذلك من مصالح المسلمين.

وشرطوا لجواز ذلك: خلوّ الصورة والرسم من مظنة التعظيم والتكريم، فضلا عن التقديس والعبادة.

كما شرطوا لجواز ذلك خلوّ الصورة والرسم من تحريك غرائز الجنس أو إشاعة الخلاعة والفحش، أو التحريض على ارتكاب شىء مما حرم الله.

وبناء على ذلك الفقه فإن المسلمين فى عمومهم لم يستعملوا التصوير فى خدمة الدين

حيث لم ير في أهم مؤسسة إسلامية وهي المسجد أي أثر لهذا التّصوير، بل لم يوجد في تزيين المصاحف أو كتب السنة أو كتب الفقه أو غيرها من المؤلفات الإسلامية.

● غير أن ما وصل إلينا من صور تعبر عن موضوعات دينية في العصور المختلفة مثل: تصوير البُراق في قصة الإسراء والمعراج، فإنه كان صادراً عن مسلمين غير ملتزمين بقيم الإسلام، وما أحلّ وما حرم، ولا مهتمين بالأحاديث النبوية التي وردت في منع التصوير، فلا يعتبر عملهم هذا دليلا على إباحة التصوير، وإنما هم متأثرون بفنانين غير مسلمين دأبوا على تصوير بعض الشخصيات والأحداث الدينية في رسوم وتصاوير يعلقونها في دور عبادتهم أو يرسمونها على جدران تلك الدور وأسقفها.

نعم، لقد زيّن بعض المسلمين صفحات من المخطوطات، واعتنوا بتزويقها وتلوينها، منذ القرون الأولى في تاريخ الإسلام، وانتشر ذلك، لكن لم يزينوا كتبًا أو غيرها بصورة إنسان أو حيوان باستثناء كتاب: «كليلة ودمنة»[1] لابن المقفع (١٠٦ - ١٤٢هـ) وهو فارسي الأصل مجوسي مزدكي، مَنَّ الله عليه بان دخل في الإسلام على يد عيسى بن على عمّ السفاح العباسي، وابن المقفع من كبار الكتّاب، وقد تولى الكتابة للخليفة المنصور العباسي.

وقد برّر ابن المقفع اشتمال كتاب «كليلة ودمنة» على الصور بقوله: «إنه أراد بهذه الصور إظهار خيالات الحيوان بصنوف من الأصباغ والألوان؛ ليكون ذلك أُنْسًا لقلوب الملوك فيكون حرصهم عليه أشد، للنزهة في تلك الصور».

ثم شاع التصوير عند المسلمين وسيلة للإيضاح في كثير من الكتب مثل:

- كتب الكواكب والنجوم «الفلك».
- وكتب الطب والتشريح، والعمليات الجراحية.
- وكتب تركيب العقاقير.

وهذه الكتب وأمثالها مما يحمل تحقيق مصلحة للمسلمين لا منع للتصوير فيها -كما أوضحنا ذلك آنفا- إذا استوفى الشروط التي ذكرناها أيضًا.

ثم اتسع فن التصوير فدخل في القصص الشعبي مثل شخصيتي أبي زيد السروجي، والحارث بن همام في كتاب: «مقامات الحريري».

---

(١) هذا الكتاب له شهرة واسعة بين كتب الأدب والحكمة، وهو من الأدب الرّمزي، الذي يجري فيه النقد والحكم على ألسنة الحيوان والطير وهو مترجم عن اللغة الهندية.

ثم استقر التصوير لدى عدد كبير من فنانى المسلمين فى العصور الإسلامية - الوسيطة ثم الحديثة -مع غض نظر الفنانين عن أنه عمل منهى عنه فى الإسلام، فكانت للتصوير مدارس ذات توجهات فنية خاصة نذكر منها:

- المدرسة السلجوقية ببغداد.
- والمدرسة الإيرانية.
- والمدرسة التصويرية التيمورية فى إيران أيضا.
- ومدرسة بهزاد.
- ومدرسة بخارى.
- والمدرسة المغولية الهندية، وغيرها من المدارس.

وكان لكل مدرسة من هذه المدارس خصائصها فى فن التصوير ولكل منها صور ورسوم لا يزال بعضها باقيا حتى اليوم فى كثير من المتاحف العالمية والإسلامية.

ثانيا: الزخرفة:

تعنينا الزخرفة هنا بوصفها تكميلا وتجميلا للتصوير. وفى العربية تسمى الزخرفة: رَقْشًا، وتسمى توشيحًا، وكل يعنى التزيين والتجميل.

ويطلق الزخرف أصلا على: الذهب، وعلى كل ما يُتَزَيَّن به، ومنه زخرفة الكلام أى تزيينه بالمحسنات البديعية ونحوها من وسائل تزيين الكلام.

وقد عمد المسلمون إلى زخرفة الكتُب والخطوط لتز داد جمالا، لكنَّ اهم ما زخرفه المسلمون هو المصحف الشريف فى بدايته، حيث أبدعوا فى ذلك وجاءوا فيه بعمل فنى معجب.

ثم زخرف المسلمون المبانى، وبخاصة النوافذ والأبواب، ثم زخرفوا الخزف، والحجر، والرخام والزجاج، والبلور، والخشب، والعاج، وكثيراً من المعادن كالذهب والفضة والنحاس، ثم دخلت الزخارف النسيج الخاص ببعض الملابس، وتفننوا فى زخرفة السَّجاد وبعض المفروشات، مما سنتحدث عنه بتوسع بعد هذه المقدمة.

● وقد قسم الباحثون والفنانون الزخرفة إلى ثلاثة اقسام او انواع هى:

– الزخرفة الخَطِّية أو الكتابية.

– والزخرفة النباتية، فى قطع الأثاث ونحوها.

– والزخرفة الهندسية، فى المنشآت المعمارية.

● ففى الزخرفة الخطية أو الكتابية؛ برع بعض الخطاطين حتى أتوا فى زخرفة الخط بزخارف باهرة على درجة عالية من الجمال والدقة وحسن التنسيق.

● وفى الزخرفة النباتية على قطع الأثاث ونحوها، زخرفوا الخشب بالحفر عليه، وبتطعيمه بالعاج والصدف، وبكسوته بصفائح المعادن الثمينة كالذهب والفضة والنحاس، وأبدعوا فى ذلك إبداعات رائعة الجمال والدقة.

● وفى الزخرفة الهندسية فى المنشآت المعمارية زخرفوا الحجر بتخريمه وتكوينه والنقش عليه.

وزخرفوا الجِصّ زخارف دقيقة جميلة ذات أشكال عديدة مع تلوينه عمومًا وتطعيمه فى بعض الأحيان بأحجار ذات ألوان جميلة وأنواع عديدة.

وبرعوا فى زخرفة القرميد والطين والرخام.

وغطوا الأرضيات والجدران بالفُسَيْفساء وغيرها.

ودخلت الزخرفة فى حياة الناس بإبداع كثير من المقرنصات التى تتدلّى فى الزوايا والمنحنيات وأطراف القباب.

ودخلت الزخرفة فى محاريب المساجد، على الرغم من نهى الرسول ﷺ عن زخرفة المساجد حتى لا تشغل المصلى عن عبادة الله، وتبدد خشوعه فى صلاته.

العناصر الأساسية للزخرفة:

قامت الزخرفة عند الفنانين المسلمين على عناصر أساسية من أهمها:

– الخط العربى:

وأوضح ما تكون الزخرفة فيه فى: الخط الكوفى والخط الهندسى، والخط الديوانى، والخط الثلث، والخط الفارسى وغير ذلك من الخطوط التى استحدثت فيما بعد ودخلتها الزخرفة، فكان الخط العربى دائما حافلا بالزخارف الجميلة.

- والرسوم الهندسية:

وهى رسوم كثيرة، أخذت أشكالا عديدة مثل: الجدائل، والمشبكات، والمضلعات المتداخلة، والأشرطة المتوازية أو المتقاطعة أو المائلة.

- والرسوم النباتية:

وقد اتخذت هذه الرسوم أشكالها من الزهور وأوراق الأشجار، والأشجار نفسها، وبخاصة النخيل؛ سوقه وجريده وسعفه وأغصانه وثمره، وأوراق العنب وثمره، والرمان وثمره، واللّوز، والبندق والزيتون والقرنفل.

- والرسوم الحيوانية:

وقد توسع فيها بعض الفنانين المسلمين -على الرغم من النهى عن رسم كل ذى روح- إذا اتخذت حيوانات بعينها مواضيع لهذه الرسوم مثل: الأسود والسباع، والجمال، والغزلان، والطيور، والأسماك.

هذه أهم العناصر التى قامت عليها الزخرفة عند المسلمين، وكل هذه العناصر بدأت الزخرفة فيها محاكية للطبيعة، ثم اتجهت إلى الزخرفة المعقدة، ثم انتهت إلى الزخرفة التجريدية.

وكل ذلك عرف عند الفنانين الغربيين بفن «الأرابيسك» واعتبروها فنونًا تشكيلية تعبر عن حضارة المسلمين فى عصورها المتعددة.

● ولعل كلمة عبد الله بن عباس رضى الله عنهما -التى ذكرناها آنفا- لأحد الذين يصورون، فيما رواه البخارى: «ويحك إن أبيت إلا ان تصنع فعليك بهذا الشجر وكل شىء ليس فيه روح» لعل هذه الكلمة كانت حافزًا لكثير من الفنانين المسلمين على أن يبدعوا فى الزخارف النباتية والهندسية وأن يكثروا منها، مما جعل لإبداعهم طابعًا زخرفيا خاصًا بهم، يميزهم عن سواهم من الفنانين.

بل ليس من المبالغة القول بان الفن عند المسلمين فن زخرفى بالدرجة الأولى.

مراحل الزخرفة عند المسلمين:

قسم بعض الباحثين المعاصرين[١] الزخارف عند المسلمين إلى خمس مراحل، تميزت كل واحدة منها عن سواها، وهذه المراحل ذات أبعاد وأطر تاريخية، وهى:

---

(١) هو الدكتور: فريد الشافعى.

- المرحلة الأولى:

وإطارها التاريخى هو: من أخريات القرن الأول الهجرى إلى نهاية القرن الثالث الهجرى (من القرن السابع إلى القرن التاسع الميلاديين).

وهى مرحلة تأثرت فيها الزخارف عند المسلمين بالفنون المحلية تأثرًا كبيرًا ومباشرًا، حيث ظهرت فيها الزخارف المنقوشة على الجص أو الحجر، أو الخشب، وصاحب ذلك فنّ النحت على الحجارة والرخام، وبخاصة النحت الغائر الذى بلغ حدًّا كبيرًا من الدقة والإتقان.

وقد ظهر ذلك فى قصور الأمويين فى الشام (بمعناه الواسع الذى يشمل لبنان وفلسطين والأردن).

كما ظهر فى محراب مسجد القيروان.

وفى قبة مسجد الزيتون بتونس.

ثم اتسع مجال الزخرفة فى الخط العربى الكوفى والديوانى وغيرهما، مما بدا أثره فى كتابة المصاحف الشريفة.

- والمرحلة الثانية:

وإطارها التاريخى من القرن الرابع الهجرى إلى القرن الثامن (من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر الميلاديين).

وتلك القرون هى قرون ازدهار حضارى عند المسلمين، وبخاصة القرن الرابع الهجرى منها.

وفى هذه الحقبة تكونت للفن الزخرفى عند المسلمين شخصية ميزتها عن سواها، مع بقاء بعض التأثيرات المحلية.

وقد بدت روعة الزخارف التى أبدعها الفنانون المسلمون فى بعض المدن كمدينة الزهراء فى منتصف القرن الرابع الهجرى، وفى المسجد الجامع بقرطبة.

وانتشرت فى هذه المرحلة زخارف النقوش على الخشب والعاج والحجارة، وكثرت التحف العاجية كثرة لافتة للنظر، وبلغت الزخرفة فى هذه الحقبة مبلغًا كبيرًا من دقة الصنعة ودقة الفن ورقته وجماله.

ولوحظ فى هذه الفترة وفرة التعبيرات الزخرفية عما كانت عليه من قبل.

- والمرحلة الثالثة :

وإطارها الزمنى هو : من أخريات القرن الثامن الهجرى إلى القرن الحادى عشر (القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر الميلاديين).

وهى مرحلة حدث فيها تبادل العناصر والأساليب الزخرفية على مدى واسع بسبب الغزو المغولى لبلاد المسلمين من جانب، وبسبب توالى الهجرات بين البلدان الإسلامية من جانب آخر، وكان من نتيجة ذلك أن ظهرت فى فنون المسلمين بعض العناصر المغولية والصينية، وشاعت الزخارف النباتية.

وكان للخط الكوفى فى هذه المرحلة أثر بارز فى الزخرفة؛ لما يتمتع به هذا النوع من الخط من جمال يلفت النظر ويحقق متعة للعين، بسبب التناسق فى التكرار فى هذا الخط وبسبب الاتزان فى التماثل فيه.

● وقد اقتبس بعض الفنانين الغربيين هذه الزخارف وزينوا بها بعض كنائسهم، كما يشاهد حتى اليوم فى مدينة « البوى » فى وسط فرنسا، وكما يشاهد فى باب مقبرة مدينة « كانوسا » الذى تزينه دائرة زخرفية من الخط الكوفى المورَّق.

- والمرحلة الرابعة :

وإطارها التاريخى هو من أخريات القرن الحادى عشر الهجرى إلى القرن الثالث عشر (من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر الميلاديين).

وتعد هذه المرحلة مرحلة ازدهار للفنون الزخرفية عند المسلمين؛ إذ ازدادت العناصر الفنية قربًا من الطبيعة غير أن الذى يلحظ فى هذه المرحلة أن الفنون الزخرفية قد ازدهرت على أيدى الفنانين المسلمين الذين برعوا فى كتابة المصاحف الشريفة، وكتابة الكتب، وتزويقها وزخرفتها وتذهيبها، وبخاصة فى الأُطر التى تحيط بالمادة المكتوبة، وهى أُطر كثيرًا ما زخرفت وكتبت بأحبار مذهبة.

كما لوحظ فى هذه المرحلة العناية بزخرفة جلود المصاحف عمومًا، وبعض الكتب خصوصًا، فذهِّبتْ وزينت بزخارف نباتية، وخطوط جميلة زخرفية، مع خلوها من الزخارف الحيوانية أو الآدمية خوفًا من مضاهاة فى خلق الله، لما تحمله تلك المضاهاة من مخالفة شرعية.

- والمرحلة الخامسة :

وإطارها التاريخى من القرن الرابع عشر الهجرى إلى الآن أى الربع الأول من القرن الخامس عشر الهجرى (من القرن التاسع عشر إلى بدايات القرن الحادى والعشرين الميلاديين) .

وهى مرحلة تدهورت فيها أوضاع المسلمين السياسية والاقتصادية بتغلب الغربيين عليهم، وعملهم على إسقاط دولة الخلافة العثمانية ليحل محلها نظام علمانى يعادى الدين بل كل الأديان، وعمل هذه القوى الغربية المسيطرة التى استوطنت معظم بلدان العالم الإسلامى وفرضت عليه التفرق والانقسام، وتجزئة الدولة الكبرى إلى دويلات وإمارات ضيقة الرقعة، قليلة عدد السكان، كثيرة التنازع والاختلاف، عاجزة عن إدارة بلدانها، فقيرة متخلفة علميًا، حيث تحالفت دول الغرب كله وأمريكا وإسرائيل على ذلك حتى اليوم، وإذا كانت بداية هذا التفرق هو معاهدة « سايكس بيكو » فإن العدوان الإسرائيلى وتكوين دولة إسرائيل وجعلها أقوى عسكريًا من مجموع الدول العربية، مرحلة من مراحل هذا التجزىء والتفتيت والاستيلاء على فلسطين، وإن ما فعلته أمريكا فى أفغانستان ثم العراق وما تعزم أن تفعله ضد سوريا ولبنان، هو خطوة من الخطوات التى تزيد العالم العربى والعالم الإسلامى ضعفًا .

ومع الضعف السياسى والضعف الاقتصادى والتمزق والحروب ما يُنتظر للفن عمومًا ولا للزخرفة على وجه الخصوص من ازدهار أو تقدم، ولا حول ولا قوة إلا بالله وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وربما يأتى يوم تفيق فيه الأنظمة والحكام العرب والمسلمون على ما يخطط لهم، فيستيقظون ويقودون شعوب العالمين العربى والإسلامى إلى ما يخلصهم من أسباب الضعف والتخاذل، والله غالب على أمره .

● **أبرز زخارف الفنانين المسلمين :**

أبرز ما كانت الزخارف عند الفنانين المسلمين فى نوعين من هذه الزخارف هما :

الزخارف النباتية .

والزخارف الهندسية .

ولكل من هذين النوعين من الزخارف قصة يطول الحديث فيها، ويخرج بنا عن سمت الكتاب وهدفه، وهو التربية الجمالية الإسلامية، وإنما يلتمس الحديث المستفيض عن الزخارف النباتية والهندسية فى كتب تاريخ الفن عمومًا وكتب الزخارف على وجه الخصوص.

غير أننا نوجز الحديث عن الزخرفة النباتية والزخرفة الهندسية فى السطور التالية:

- الزخرفة النباتية:

كان ولا يزال اتجاه الفنان المسلم إلى الزخرفة النباتية تعبيراً عن نفوره من اتخاذ الإنسان أو الحيوان أو كل ذى روح موضوعًا للزخرفة، لما فى ذلك من نهى وتحريم عند بعض الفقهاء، أو من كراهية عند بعضهم.

ولقد أطلق الفنانون الغربيون - كما قلنا - على الزخارف النباتية عند المسلمين أو العرب كلمة «أرابيسك» إذ هى عندهم تعبر عن الزخارف المكونة من فروع نباتية، وجذوع مثنية أو متشابكة، وفى الغالب تكون هذه الزخارف متتابعة.

وقد أخذت الزخارف البناتية المجردة تظهر منذ زمن باكر فى تاريخ الإسلام، وكان ظهورها واضحًا فى عدد من البلدان الإسلامية مثل:

مدينة سامراء فى العراق فى القرن الثانى الهجرى.

ومدينة القاهرة فى عهد الدولة الطولونية.

وفى إيران بعد دخول الإسلام إليها.

وفى الهند بعد أن دخلها الإسلام.

وفى البلدان التى سيطر عليها العهد الفاطمى.

ثم انتقلت إلى المغرب والأندلس بعد أن دخلها الإسلام.

وكانت تصنع من أشكال نباتية بارزة حينًا وغائرة حينًا آخر، ملونة حينًا وغير ملونة حينًا آخر.

ثم ظهرت بعد ذلك زخارف من أعشاش النحل.

ثم زخارف من صورة قلبين متآلفين، وكانت هذه الزخارف تسمى قلوب العشاق، وهذان النوعان من الزخارف وإن كانا لَيْسا نباتا إلا أنهما ليس مما نهى عنه.

ومن هذا الباب نفسه دخلت زخارف الخطوط وبالذات الخط الكوفي وخط النسخ، وكان موضوع الكتابة في هذه الخطوط بردة البوصيري في مدح النبي ﷺ، التي قامت حولها أو حول بعض أبياتها زخارف جميلة ليست حيوانًا أو إنسانًا، وإنما استغلت النبات؛ فروعه وأغصانه، وشاع ذلك في معظم بلدان العالم الإسلامي.

وأحيانًا اتخذت الزخرفة كلمات أو جملاً حبكت حولها الزخارف الجميلة مثل:

- كلمة «العافية» بمعنى السلامة والأمن، وقد اشتهرت زخرفة هذه الكلمة في شمالي أفريقية.

- وكلمة «لا غالب إلا الله» كما انتشر ذلك في الأندلس.

ويقول بعض الباحثين المعاصرين[1]: «في إيران والهند سادت المورَّقات الانسيابية، والأشكال الزهرية الواقعة على هيئة غصون الأشجار، كما كانت الطبيعة الحية من إنسان وحيوان جزءاً مهمًا في اللوحة.

هذه المورَّقات حفلت بها صناعة السجاد، والطَّرْق على النحاس، وتزيين المخطوطات وترقيشها، وزخرفة الجدران والأبواب والمنابر والمحاريب؛ في أسلوب واقعي...».

ثم يقول: «في المورقات النباتية تتناغم الأغصان والأوراق، وتتكرر العناصر في انسجام كُلِّي، وتبدو الحيوانات والنباتات بأشكالها وأوضاعها المختلفة وكأنها غارقة في التَّسبيح وهي في أبهى كمالها وجمالها؛ تتجه بالناظرين إليها نحو الإحساس بجمال الله وكماله؛ وتبدو وكأنها بلا بداية ولا نهاية، والمسْتجمل المتفكر لا ينتهي أبداً من النظر إليها، فكل لمسة فيها تردكَ إلى الأخرى، وهكذا في حركة دائرية لا تنتهي، إنها توفر للمستجمل لذتين، لذة الجمال ولذة التفكر...».

- **الزخرفة الهندسية:**

كانت الزخارف الهندسية عنصراً بارزاً من عناصر الزخرفة، وليست من قبيل الرسوم الهندسية البسيطة؛ كالمثلثات والمربعات وغيرها، وإنما هي رسوم هندسية امتازت بها الفنون

---

(١) هو: عبد الفتاح رواس قلعة جي في كتابه: مدخل إلى علم الجمال الإسلامي: ٨٠ – ٨١.

الإسلامية، ولاسيما فى عصر المماليك، وهى تراكيب هندسية ذات أشكال نجمية متعددة الأضلاع، وهى التى ذاعت فى مصر، واستخدمت فى زخارف الخشب والنحاس، وفى الصفحات الأولى من المصاحف الشريفة والكتب، وزخارف السقوف وغيرها.

وقد أتقن الفنانون المسلمون هذا النوع من الزخارف وابتكروا فيه وأبدعوا، ويؤكد هذا الإبداع على غير مثال يحتذى أحد الباحثين المحدثين إذ يقول: «ولسنا نظن أن المسلمين كانت لديهم كتب فيها نماذج من الزخارف الهندسية الإسلامية الذائعة، ولكننا نرجح أن هذه الزخارف كانت سراً من أسرار الصناعة يتلقاه الصبيان عن معلميهم فى الفن والمهنة، فكانت تُتَعَلَّم بالمران، كما كانت تصنع لها قوالب ونماذج يستعملها الصناع والفنانون فى بعض الأحيان»[1].

ويقول باحث معاصر آخر: «وقد ظهر الاهتمام بالزخرفة الهندسية فى فنون الشام ومصر خاصة، ولا تزال لها سيطرتها فى المبانى الحديثة التى تبنى فى الشام»[2].

وقبل أن ننهى كلامنا عن الزخرفة النباتية أو الهندسية لابد من كلمة عن زخرفة المساجد، كما جاء بها الإسلام.

- روى ابن ماجة بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما ساء عمل قوم قط إلا زخرفوا مساجدهم**» أى زينوها بتمويهها بالزخرف وهو الذهب.

- وروى أبو داود بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أُمِرْتُ بتشييد المساجد**» قال ابن عباس رضى الله عنهما: لتُزَخْرِفُنَّها كما زخرفت اليهود والنصارى.

- وروى أبو داود بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس فى المساجد**».

ورواه أحمد وأصحاب السنن ماعدا الترمذى.

- وروى ابن ماجة بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يتباهى الناس فى المساجد».

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن: الفن الإسلامى فى مصر.

(٢) أنور رفاعى: تاريخ الفن عند العرب والمسلمين.

وعلة النهى عن زخرفة المسجد معروفة، وهى أن هذه الزخرفة أيا كان نوعها تشغل المصلين عن الخشوع فى صلاتهم، وكل ما يشغل المصلى عن الخشوع فى صلاته غير جائز.

وفى الحديث الذى رواه ابن ماجة عن عمر رضى الله عنه إخبار من الرسول ﷺ عن أن الذين يزخرفون مساجدهم قد ساء عملهم.

وعلة النهى عن التشييد وهو الزخرفة وتعدد الطوابق والمبالغة فى الألوان والأشكال هى أن ذلك داخل فى التباهى فى المساجد، وهذا التباهى منهى عنه، أخبر به المعصوم ﷺ، بل جعل التباهى علامةً من علامات قرب قيام الساعة.

وإذا كان التشييد يعنى الزخرفة كما فسر ذلك حَبْر الأمة ابن عباس رضى الله عنهما، فالزخرفة تشغل المصلى عن الخشوع فى صلاته وذلك غير جائز.

- والخلاصة أن زخرفة المساجد بالألوان الفاقعة كالأحمر والأصفر، ونقشها وتزيينها.
  - مكروهة عند بعض علماء الإسلام كالمالكية والحنابلة.
  - وجائزة عند أبى حنيفة، حيث رخَّص فيها.
  - وعندما تزيد الزينة والزخرفة للمساجد إلى الحد الذى يشغل المصلى عن الخشوع فى صلاته؛ فذلك حرام عند علماء المسلمين جميعًا.
- أما التشييد - وهو ارتفاع بناء المسجد والعناية بشكله الخارجى - فذلك جائز لأنه لا يشغل المصلى عن الخشوع فى صلاته، ولأن فيه إظهاراً لعناية المسلمين بمساجدهم فى مقابل عناية غيرهم بدور عبادتهم، وذلك غير داخل فى إطار ما نهى عنه رسول الله ﷺ.

فإن كانت زخرفة المسجد وتشييده للتباهى والتفاخر فلا خلاف بين المسلمين على حرمته لوقوعه فى إطار ما نهى عنه رسول الله ﷺ.

■■■■

جـ - فن التعبير عن الجمال بأدوات النحت

النَّحْت من الفنون التعبيرية التى يلجأ إليها الفنان ليعبر عن إحساسه بالجمال فيما يحيط به من مخلوقات الله؛ فيقطع بعض الأحجار أو الأخشاب أو غيرها من المعادن ونحوها؛ ليبرز بها ما فى عقله وعاطفته من الإحساس بالجمال نحو شيء من الأشياء.

والنحت فن وصناعة قد يتخذ أشكالاً بارزة أو غائرة على الحجر أو الخشب أو غيرهما من معدن أو عظم أو عاج... مستعينا على صنع هذه الأشكال بأدوات تيسر له القيام بعمله، وهذه الأدوات كثيرة عُرِف منها:

– الإزميل.

– والمثقاب.

– والزنبة.

– والمطرقة.

– والمنقاش.

– والمنشار، وغيرها.

والذى يقوم بهذا النحت يسمى مثَّالاً، او نحَّاتًا، وهو الذى يصنع التماثيل.

● ومعنى النحت فى اللغة: البرى، والنجر، والبراية والنحاتة.

والمِنْحَت: كل ما ينحت به من أداة أو آلة.

● وفي حديثنا عن النحت نذكر كلمتين وجيزتين إحداهما عن تاريخه، والأخرى عن حكمه فى الإسلام.

أولاً: تاريخ النحت:

النحت معروف منذ أقدم العصور مارسه الإنسان قبل عصر نوح عليه السلام، حيث كان قوم نوح عليه السلام قد نحتوا تماثيل قبل ان يدعوهم نوح إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الاصنام، يفهم ذلك من قول الله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا

﴿ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ [نوح: ٢١ – ٢٤].

قال ابن عباس رضى الله عنهما – كما قال غيره كثير من الصحابة رضوان الله عليهم – : وَدّ، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر؛ هى أصنام وصور كان قوم نوح يعبدونها، ثم عبدتها العرب من بعدهم، فقوم نوح كانوا قد صنعوا هذه التماثيل أو الصور بأيديهم ثم نصبوها فعبدوها.

وذكر الثعلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا فى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسموها بأسمائهم لتذكروهم بها؛ ففعلوا، فلم تعبد هذه الأنصاب حين نصبها، حتى إذا هلك أولئك الذين نصبوها ونُسِخ العلمُ عُبِدت من دون الله تعالى.

وقد ورد النحت فى القرآن بصيغة الفعل المضارع أربع مرات:

إحداها: فى سورة الأعراف، قال الله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٤].

● والآية الكريمة لا تحرم النحت باتخاذ البيوت فى الجبال، وتوجب على من أنعم الله عليهم بالقدرة على نحت البيوت فى الجبال أن يشكروا هذه النعمة فيكفوا عن الفساد فى الأرض.

والثانية: فى سورة الحجر، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الحجر: ٨٠ – ٨٤].

● والآية الكريمة لا تحرم النحت ولا اتخاذ البيوت فى الجبال ولا اتخاذ الأموال، وإنما أخبرت الآيات بأن اتخاذ البيوت فى الجبال وكثرة الأموال لم تغن عن أصحابها شيئًا عندما عذبهم بالصيحة عليهم فى الصباح، وهى تؤكد أن عبادة الله وحده وطاعته هى الملاذ الحقيقى لا البيوت وإن اتخذت فى الجبال.

والآية الثالثة: فى سورة الشعراء وهى قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ

مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١ – ١٥١].

● والآية الكريمة لا تحرم عليهم نحت البيوت فى الجبال ولكن تطالبهم بتقوى وطاعة رسوله.

والآية الرابعة: فى سورة الصافات وهى قوله تعالى: **﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾** [الصافات: ٩١ – ٩٦].

● وهذه الآية الكريمة تحرم عبادة ما نحته الناس بأيديهم من الحجارة ونحوها أصناماً.

ولا تحرم النحت لذاته، وقد وبخهم سيدنا إبراهيم على عبادة ما ينحتون من الأصنام.

ثانيًا: حكم النحت فى الإسلام:

علمنا من تلك الآيات الكريمة التى ورد فيها: ينحتون وتنحتون أن النحت فى ذاته صناعة وفن ويمكن الانتفاع به، بل بناء البيوت فى الجبال، ولا تدل آية من هذه الآيات الأربع على تحريم النحت أو صناعته، وإنما تحرم اتخاذ ما ينحت من حجر أو خشب أو نحوه إلهًا يعبد من دون الله تعالى.

روى الإمام مسلم بسنده عن عائشة رضى الله عنها أنَّ أم سلمة وأم حبيبة – رضى الله عنهما – ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة تسمى «مارية» فيها تصاوير لرسول الله ﷺ، فقال ﷺ: **«إنَّ أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح، فمات؛ بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة».**

فالمحرَّم هو ما نحت ليتخذ صنمًا أو وثنا يعبد من دون الله تعالى.

وبناءً على ما قدمنا من جواز تصوير ما ليس فيه روح، كما ذكر ذلك عن حبر الأمة ابن عباس رضى الله عنهما؛ فإنَّ نَحْتَ ما ليس فيه روح جائز شرعًا، بشرط ألا يكون معبوداً من دون الله، ولا مصنوعًا ليعظم ويقدس، والله تعالى أعلم.

■■■■

د - فن التعبير عن الجمال باللحن والموسيقى

«الموسيقى»: لفظ يطلق على فن الألحان والنغم، وعلى ما يحيط بذلك من نواحي العلم والمعرفة.

والموسيقى بهذا المعنى تعتبر صناعة وفنًّا مثل غيرها من وسائل التعبير عن الجمال كالشعر والنثر الفنى، والتصوير والزخرفة، والنحت وهندسة العمارة.

● وتطلق الموسيقى بوصفها صناعة على نوعين من الصناعة صناعة عملية وأخرى نظرية.

– فالصناعة العملية: تختلف باختلاف المواهب والاستعداد الطبيعي لهذه الصناعة.

والصناعة العملية لها صفتان:

إحداهما: تختص بهيئة الصيغة وهى: استعداد مَنْ يصنع الألحان فقط، اى لا يمكنه أداء هذه الألحان بصوت حسن.

والأخرى: تختص بهيئة الأداء وهى: قدرة على أداء الألحان المصوغة تأدية حسنة وصوت جميل.

– والصناعة النظرية: أى نظرية الموسيقى، وهى كل ما يحيط بالموسيقى من علوم، وهى علوم خمسة عند كثير من الموسيقيين هى:

* علم المناسبات الصوتية وأصناف التاليف.
* وعلم جماعات النغم وانواعها.
* وعلم صوغ الهيئات اللحنية وهى ما يسمونها المقامات.
* وعلم الإيقاعات وأوزان الأجناس وترتيبها.
* وعلم التلحين الغنائى، وفنون التركيب النغمي والموسيقى البحت.

– وأهم عنصرين أساسيين تعتمد عليهما الموسيقي هما:

عنصر الإيقاع.

وعنصر التوافق «الهارمونى».

* ويمكن وضع المادة الموسيقية فى هيئة سُلَّم موسيقى.

* ومصطلح «الموسيقى الشرقية» يقصد به: الخاصية التى تتميز بها ألحان أهل الشرق، وهى الألحان الفارسية والتركية والعربية والشامية والمصرية؛ إذ هى جميعًا يغلب عليها الطابع اللحنى ذو الإيقاع؛ لأن الإيقاع هو العنصر الأساسى فى الموسيقى الشرقية.

وسوف نتحدث فى إيجاز عن ثلاث نقاط هى:

- مصطلح الموسيقى العربية.
- وهل هناك موسيقى إسلامية؟
- وحكم الموسيقى فى الإسلام.

أولاً: مصطلح «موسيقى عربية»:

مصطلح «موسيقى عربية» يقصد به صناعة فن النغم والألحان عند العرب - وغالبيتهم من المسلمين مع إنكار جهود غير المسلمين العرب فى الموسيقى العربية -.

ومنذ ظهور هذه الموسيقى عند العرب لوحظ تأثرها بالموسيقى الفارسية، والموسيقى اليونانية، والموسيقى التركية، والموسيقى المصرية.

ولكنها تتصل اتصالاً وثيقًا بجنس الإيقاع الموزون وهو ما تتميز به اللغة العربية.

فالموسيقى العربية بهذه الخصائص لها اعتباران:

- أحدهما: اعتبارها عربية من جهة إخضاع الأنغام المؤتلفة إلى أصناف الزحافات اللفظية فى أجزاء الكلام.
- والآخر: اعتبارها شرقية من جهة أنها تأخذ فى الاعتبار تآلف النغم والأصوات وترتيبها وإيقاعاتها وأجناس نغمها من الألحان.

● وقد تسمى موسيقى عربية بسبب أن العرب القدماء هم أول من استنبط الأجناس القوية فى ترتيبات النغم، وأشهرها الجنس المسمَّى اصطلاحًا بـ«الرست».

● وفى إشارة تاريخية يرى علماء الموسيقى أن الموسيقى العربية قديمة تمتد جذورها إلى ألوف السنين التى سبقت ميلاد المسيح عليه السلام، حيث تأثرت بما كان فى مصر من

موسيقى قبل ثلاثة آلاف سنة من ميلاد المسيح عليه السلام، كما تأثرت بما كان في مدنيات: بابل وآشور، وشعوب الكنعانيين والفينيقيين والحيثيين، وبتلاقي مدنيات مصر وبلاد الرافدين امتدت ظلال هذه الموسيقى حتى شملتْ غربي آسيا، وشمالي أفريقية؛ لتكوّن حضارة موسيقية موحَّدة الطابع وإن تنوعت في صورها ولهجاتها.

ومع المدنية الفارسية من الشرق، والمدنية الإغريقية من الغرب تتأثر هذه الأنواع من الموسيقى حتى تشكل بفعل عوامل الاتصال وحدة فنية، حتى يقول «هيرودوت» المؤرخ الإغريقي: «إنه يسمع من أغاني مصر أغنيات صارت فيما بعد ألحانًا شعبية في بلاد اليونان».

- وتمتد وتتلاقى هذه المدنيات الشرقية القديمة لكي تشكل وحدة الموسيقى العربية التي عرفت فيما بين مكة والمدينة ودمشق والقاهرة وبغداد والقيروان وقرطبة.

ولقد اتضح بعد تقدم علم الآثار – حديثًا – أن الموسيقى العربية لا ترجع بدايتها إلى العصر الجاهلي – كما كان يُظن – وإنما ترجع إلى تلك الأعماق التاريخية التي سبقت ميلاد المسيح عليه السلام بما يقرب من ثلاثة آلاف عام.

ويقول واحد من أبرز علماء الموسيقى المعاصرين[(١)]: «وقد أصبح لزامًا على المشتغل بالموسيقى أن يلم بالكثير من العلوم والفنون ليكون أهلاً لاحتراف هذه الصناعة، إذ لابد له من اكتمال ثقافته في نواحيها المختلفة حتى يكون مرآة صادقة لعصره وصورة مترجمة لزمانه؛ يجيد العزف بالآلات، وعلى معرفة أكيدة بفنون الشعر والأدب والرواية والقصص، وأدب السلوك والمؤانسة ليتم الاستمتاع في مجالس الغناء بجميع هذه النواحي مجتمعة».

- ولقد ارتقت الموسيقى عند العرب بعد دخولهم في الإسلام رُقيا كبيرًا، فافتنُّوا في أنواع التأليف الموسيقي، وطوروا بها أساليب الشعر والغناء.

واستطاعت الموسيقى عند المسلمين أن تؤثر في أوروبا؛ حيث كانت أوروبا ترسل بعوثًا إلى حواضر البلدان العربية تنهل من معاهد هذه الحواضر وجامعاتها علوم المسلمين وفنونهم، وكانت الموسيقى في مقدمة هذه العلوم والفنون، فنقلت هذه البعوث إلى بلادها الأوروبية كُتُبَ المسلمين في الموسيقى مثل:

---

(١) هو الدكتور أحمد الحفني في مقاله عن أثر الموسيقى العربية في الغرب الذي نشر في كتاب: أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية بأقلام عديدة من العلماء والباحثين، ص ٤٥٤ – ٤٥٥.

- مؤلفات الكندى، وثابت بن قرة، والرازى، والفارابى، وإخوان الصفا، وابن سينا، وصفى الدين عبد المؤمن، وابن باجة، وغيرهم من المؤلفين للموسيقى والمهتمين بها.

● وقد أكد بعض مؤرخى الموسيقى المعاصرين(١) أن هذه البعوث قد بلغ عدد أفرادها سنة ٢١٣ هـ سبعمائة طالب وطالبة أَتَوْا من مختلف مقاطعات إسبانيا وفرنسا وألمانيا إلى قرطبة، وقد التحق كثير منهم بالمدرسة التى أنشأها زرياب للموسيقى فى قرطبة، حيث درسوا فيها أصول الموسيقى والغناء والعزف بمختلف الآلات، وفنون الشعر وغيره.

ثم عاد هؤلاء المبعوثون إلى بلادهم لينقلوا إليها كل ذلك، وليكون ما نقلوه هو اللبنات الأولى لبناء نهضة فنية فى أوروبا.

وكان ذلك هو الضوء الذى أنار طريق الفن الأوروبى ليزدهر على توالى الأحقاب».

● وتقول باحثة ألمانية(٢): «بينما نجد الموسيقيين يعتمدون فى ضبط الآلات الوترية على الأُذُن، نجد طالب الموسيقى فى مدرسة زرياب يتعلم العزف بالعفق على دساتين وضعت على رقبة العود و«الجيتار» قيستْ عليها المسافات الصوتية قياساً دقيقًا، وتُعَد هذه من المزايا الكبرى التى حببت الآلات الموسيقية العربية إلى الأوروبيين، وبخاصة آلة العود».

وبعد.. فتلك كلمة عن الموسيقى العربية أو الموسيقى عند المسلمين وعما كانت عليه هذه الموسيقى من تقدم ورقى، أرجو أن أكون قد أوضحت بها مصطلح «الموسيقى العربية».

ثانيًا: هل هناك موسيقى إسلامية؟

لقد مارس المسلمون الموسيقى منذ زمن ربما واكب ظهور الإسلام، ولا يزالون يمارسونها حتى اليوم، ومن المؤكد المعترف به لدى كثير من الموسيقيين أنهم أتوا فى الموسيقى على مر العصور بما كان ولا يزال من الموسيقى الراقية الرفيعة الشأن.

لكن هل يجوز لنا أن نقول عن هذه الموسيقى: إنها موسيقى إسلامية؟

---

(١) هو الدكتور أحمد الحفنى. المرجع السابق: ٤٥٥ - ٤٥٦.
(٢) هى الدكتورة زيغريد هونكا: السابق: ٤٥٩.

الجواب لا، لأن الأصح والأصوب أن نقول عنها: إنها الموسيقى عند المسلمين؛ لنفس ما قلناه آنفًا من الفرق بين الفن الإسلامي والفن عند المسلمين.

- من المسلَّم به بل المؤكد أنه إذا كانت هناك موسيقى ذات قيم فاضلة تحث على الخير، أو تنفر من الشر، فهناك موسيقى إسلامية؛ لأن الإسلام دين قيم فاضلة تحث على الخير وتحارب الشر، وذلك ما يرضى الله تعالى، وما جاء به الإسلام.

أما إذا لم تكن الموسيقى كذلك فهى موسيقى غير إسلامية وإن مارسها المسلمون، إذ ليس بشرط أن يكون كل ما يمارسه المسلمون من أعمال أو ما يبدعونه من فنون إسلاميًا، لأن بعض المسلمين قد يقومون بأعمال أو يبدعون فنونًا فيها مخالفة لما أمر الإسلام به أو نهى عنه، وكل ذلك – عند المنصفين – لا يحسب على الإسلام ولا يدل على أن الإسلام أجازه أو أقره، إنما هو يحسب على من مارسه من المسلمين.

- ولقد قلنا آنفًا – فى هذا الكتاب –: إن أى عمل يقوم به المسلمون فى أى زمان ومكان لا يكتسب شرعية لأنه صدر عن بعض المسلمين، وإنما شرعية أى عمل يقوم به المسلمون تنبع من أن يكون الإسلام شرعه أو أجازه أو أمر به أو ندب إليه، وأعمال المسلمين فى أى عصر وأى مصر إنما تعد إسلامية بهذا المعيار.

- وإن المسلم مهما كان وزنه أو مكانته الدينية أو العلمية أو الاجتماعية أو السياسية أو المالية لا يستطيع أن يضفى الشرعية على عمل مًا لمجرد أن يمارسه، إذ العبرة بأن يكون هذا العمل مشروعًا فى الإسلام أصْلاً.

- ويرى كثير من علماء المسلمين أنّ الموسيقى إذا كانت تحمِّس المقاتلين فى سبيل الله، وتحضهم على الجهاد والثبات فى المعركة فهى موسيقى مطلوبة بل مرغوب فيها.

ونقول فى ذلك: نعم إن هذا صحيح، وإن الموسيقى عند ذلك تُنَزَّل منزلة آليات الجهاد فى سبيل الله وأدواته، ما دامت تشجع على خوض المعارك ضد أعداء الإسلام، وتعمل على طرد الخوف من نفوس المقاتلين فليس فيها من حرج، وسنزيد هذا الرأى وضوحًا ونسانده بالنصوص الإسلامية فى حديثنا عن النقطة الثالثة من نقاط حديثنا عن الموسيقى فى السطور التالية بإذن الله تعالى.

ثالثًا: حكم الموسيقى في الإسلام:

يرى معظم علماء المسلمين: أن الموسيقى إذا كانت مما يدعو إلى الميوعة والليونة فهي موسيقى مرفوضة تدخل في باب المحرَّمات.

ونزيد الأمر إيضاحاً بقولنا: إن الموسيقى إذا شَجَّع الاستماعُ إليها على الميوعة والليونة فإن ذلك يُمثل مِعْولاً يهدم الرجولة والجدية عند الرجال، ويشجع على الميوعة والانحراف عند النساء، وهي بهذا الوصف مما حرَّم الله؛ لأنها اشتملت على ضرر بالمجتمع المسلم؛ رجاله ونسائه، وكل عمل يلحق ضرراً بالمسلمين فهو حرام، لأن الإسلام منع الضرر والإضرار.

وكذلك الشأن إذا كان الاشتغال بالموسيقى؛ صناعتها أو الاستماع إليها مما يَصُدُّ عن ذكر الله، أو يشغل القلب والعقل باللهو والباطل، فهي بهذا الوصف مما لا يجوز للمسلمين أن يشتغلوا بها أو يستمعوا إليها، على ذلك أجمعت كلمة علماء المسلمين، لأن كل ما يصدُّ عن ذكر الله أو يلهي عنه فهو من الباطل الذي لا يجوز لمسلم ممارسته.

وعمدة ذلك ومعتمده الأحاديث النبوية التالية:

– روى أحمد بسنده عن سعيد بن المسيب – سيد التابعين وأحد فقهاء المدينة السبعة –[1] قال: قال رسول الله ﷺ: **«تبيت طائفة من أمتي على أكل وشرب ولهو ولعب، ثم يصبحون قِرَدَةً وخنازير، فيُبْعث على أحياء من أحيائهم ريح فتنسفهم كما نسفتْ من كان قبلهم؛ باستحلالهم الخمور، وضربهم الدفوف واتخاذ القينات[2]».**

– وروى أحمد بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«والذي نفس محمد بيده، ليبيتن ناسٌ من أمتي على أَشَر وبَطَر، ولعب ولهو؛ فيصبحوا قردة وخنازير باستحلالهم المحارم والقينات وشربهم الخمر، وأكلهم الربا، ولبسهم الحرير».**

● وبوَّب البخاري في صحيحه في كتاب «الاستئذان» باب: **«كل لهو باطل إذا شغله عن طاعة الله».**

---

(١) ولد سعيد بن المسيب سنة ٢٣هـ – وتوفي سنة ٩٤هـ وقد جمع بين العلم بالحديث الشريف والفقه، والزهد والورع، وكان يعيش من التجارة بالزيت ولا يأخذ عطاءً.

(٢) المغنيات.

- وروى أحمد بسنده عن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: **«إن الله عز وجل بعثنى رحمة وهدى للعالمين، وأمرنى أن أمحق المزامير والكفارات** (أى البرابط وهى من آلات الموسيقى) **والمعازف والأوثان . . »**.

● وقد يقول بعض الناس: إن الاشتغال بالموسيقى والألحان أو الاستماع إليها يريح أعصاب الإنسان ويقاوم التوتر ويحدث نوعًا من الاسترخاء والطمأنينة وهدوء النفس.

وإذا كان هذا الكلام صحيحًا بالنسبة لكثير من الناس، وبخاصة من كان منهم من أهل الثقافة والمعرفة، والمشاعر الرقيقة؛ فإن الموسيقى عندئذ تكون فى صالح هؤلاء الناس، سواء أكانوا صانعين لها أو مستمعين إليها، وعندئذ وما دامت تحقق مصالحهم فإنها جائزة صناعةً واستماعًا، لكن بشرط ألا تشغلهم عن طاعة الله تعالى ولا تلهيهم عن ذكره سبحانه، ولا تحول بينهم وبين أى عمل نافع لهم فى دنياهم أو آخرتهم، وبشرط ألا تستغرق أوقاتهم كلها أو جُلها، ويجب أن تكون الموسيقى فى وقت لا يصرف عن واجب أو يخل بأدائه على وجهه المطلوب.

وحجتنا الشرعية فى جواز ذلك أن الترويح عن النفس والقلب ساعة وساعة مطلب شرعى عند حدوث الملل من تعاقب الأعمال، حيث قال الرسول ﷺ لحنظلة - فى قصة سنذكرها الآن: **«.. ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»** وقصة ذلك:

- ما رواه مسلم بسنده عن أبى رَبَعِى حنظلة بن الربيع أحد كُتَّاب رسول الله ﷺ قال: لقينى أبو بكر - رضى الله عنه - فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قلتُ: نافق حنظلة، قال: سبحان الله ما تقول؟ قلتُ: نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالجنة والنار كأننا رأى العين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ؛ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات[1]؛ نسينا كثيرًا. قال أبو بكر - رضى الله عنه -: فوالله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، فقلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: **«وما ذاك؟»** قلت: يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأى العين، فإذا خرجنا من عندك؛ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، نسينا كثيرًا، فقال رسول الله ﷺ: **«والذى نفسى بيده أن لو تدومون على ما تكونون عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»** ثلاث مرات.

---

(١) المعايش وأسبابها.

● وفى نفس المعنى الذى أوصى به رسول الله ﷺ صاحبه، حنظلة وهو التوسط وعدم التشدد فى الدين أو التنطع فيه، جاءت أحاديث نبوية كثيرة منها:

– ما رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: **«إن الدين يُسْر، ولن يُشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه، فسَدِّدوا وقاربوا، وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشئ من الدلجة».**

– وفى رواية للبخارى عن أبى هريرة أيضًا – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: **«سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا، وشيء من الدلجة، القصدَ القصدَ تبلغوا».**

● فإذا كان رسول الله ﷺ يأمر بالقصد والاعتدال فى جميع الأمور؛ ما كان منها دينيًا وما كان دنيويًا، وينادى بأن يتناول الإنسان أمور حياته ساعةً وساعة، فإنه بذلك يرسم للمسلمين معالم سلوك فى الحياة الدنيا ليس فيه تشدد ولا تنطع أو مبالغة، وإنما بحسب المسلم أن يسدِّد ويقارب، بل عَلَّمنا ﷺ أن نستعين على طاعة الله تعالى بأن نعمل فى أوقات نشاطنا وفراغ قلوبنا وخواطرنا، بحيث نستلذ العبادة ولا نمل ولا نسأم حتى نبلغ المقصود بهذا التوسط والاعتدال.

إن ذلك هُدًى لنا وتوجيه رشيد يجب أن نحرص عليه، ولنا أن نروِّح عن أنفسنا ساعة وساعة، لأن الله تعالى يريد بنا اليُسْر لا العُسْر، وما جعل علينا فى الدين من حرج أو مشقة، لأن الله تعالى ما أنزل على خاتم رسله ﷺ خاتم كتبه – وهو القرآن – ليشقيه بما فيه من أوامر أو نواهٍ.

إذا تبين لنا هذا؛ فإن إذهاب الملل والسأم والضّيق مطلب يصلح حال الإنسان، وإذا كانت الموسيقى تعطى هذا لبعض الناس فليس فيها من حرج بتلك الشروط التى ذكرنا آنفًا.

والذى يؤيد هذا التوسط والاعتدال عديد من الأحاديث النبوية الشريفة، منها:

– ما رواه البخارى ومسلم بسنديهما عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ دخل عليها وعندها امرأة؛ قال: **«من هذه؟»** قالت: هذه فلانة؛ تذكر من صلاتها، قال: **«مه،[1] عليكم بما تطيقون فوالله لا يمل الله حتى تملوا».**

---

(١) مَهْ: اسم فعل أمر، معناه: اكفُفْ.

– وروى البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال: بينما النبى ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم فسأل عنه فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم فى الشمس ولا يقعد، ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم، فقال النبى ﷺ: **«مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه»**.

● إن دين الإسلام – كما جاء به الرسول الخاتم ﷺ – يعالج كل أمور الدين والدنيا معًا، ويمنع من أراد أن يتشدد فى الدين أو يتنطع، أو يهمل الدنيا من أجل الآخرة.

– فقد روى البيهقى فى سننه بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«اعمل عمل امرئ يظن أن لن يموت أبدًا، واحذر حذر امرئ يخشى أن يموت غدًا»**.

– وروى الدارمى بسنده عن سعيد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال: لما كان من أمر عثمان ابن مظعون[1] – رضى الله عنه – الذى كان من ترك النساء، بعث إليه رسول الله ﷺ فقال: **«يا عثمان، إنى لم أومر بالرهبانية، أرغبتَ عن سنتى»** قال: لا يارسول الله. قال: **«إن من سنتى أن أصلى وأنام، وأصوم وأطعم، وأنكح وأطلق، فمن رغب عن سنتى فليس منى، ياعثمان: إن لأهلك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا»** قال سعد: فوالله لقد كان أجمع رجالٌ من المسلمين على أن رسول الله ﷺ إن هو أقرَّ عثمان على ما هو عليه أن نختصى فنتبتل.

■■■■

---

(١) صحابى كان من حكماء العرب فى الجاهلية يحرم الخمر، أسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً، وهاجر إلى الحبشة مرتين، وهو أول من مات من المهاجرين بالمدينة، وأول من دُفن بالبقيع منهم – رضى الله عنه.

هـ - فن التعبير عن الجمال بالهندسة المعمارية

إذا كان الفن في عمومه - كما قلنا ذلك في مقدمة هذا الكتاب - تعبيراً عن نهضة أمة من الأمم ثقافيًا وحضاريًا؛ فإن الهندسة المعمارية بكل تأكيد تعبير صادق دقيق عن نهضة أمة من الأمم في مبانيها المدنية أو الدينية، بل إن الهندسة المعمارية دليل وشاهد على تقدم الأمة ورقيها الحضاري.

- وإذا كان لكل عصر من عصور الحضارة الإنسانية طابعه الفني، فإن له كذلك طابعًا معماريًا، وإن عناصر هذا الطابع المعماري والأسس التي يقوم عليها قادرة على التعبير عن الجمال عمومًا وعن جمال العمارة والثقافة والحضارة في أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية.

- والهندسة المعمارية فن عريق عتيق واكب المدنيات القديمة وعبر عن جمالها وقام شاهداً ودليلاً على ما وصلت إليه من تمدن وتحضر.

والهندسة المعمارية فن أكثر بقاءً واستمراراً من فنون كثيرة من الفنون التعبيرية الأخرى، لأنه فن يظل شاخصاً مئات السنين بل آلوفها دالاً على تحضر الأمة ومقدار هذا التحضر.

- ومن المقرر بين الباحثين وعلماء الآثار - إلى يومنا هذا - أن العمارة المصرية القديمة يمتد تاريخها إلى قريب من ثلاثة آلاف عام قبل ميلاد المسيح عليه السلام.

والعمارة المصرية القديمة لها خصائص تميزها عن سواها، وهذه الخصائص قد أدى إليها عدد من الظروف التي واكبت نشأتها، فأثرت في هندستها وشكلها، ومن هذه الظروف التي أثرت في العمارة المصرية القديمة:

- كثرة الأحجار.
- وتوافر مادة الصلصال.
- وقلة الأخشاب.

حيث أثرت هذه الظروف فيها، فجاءت ذات خصائص معينة مثل:

أنها عمارة ثقيلة راسخة.

وأنها ذات حوائط سميكة.

وذات فتحات قليلة.

وذات أعمدة في الردهات والأفنية الداخلية.

وذات أسطح حجرية.

ومن خصائصها الأخرى غير المتأثرة بهذه الظروف، أنها جاءت مغطاة بنقوش تصويرية، وملونة.

● ومن نماذج العمارة المصرية القديمة:

– تلك المقابر الماثلة حتى الآن التي اتخذت شكل أهرامات متعددة الأشكال المدرَّج منها وغير المدرج.

– وبقايا تلك القصور ذات الفخامة والضخامة.

– وبقايا تلك المعابد ذات الأعمدة المهيبة.

ولهذه العمارة المصرية القديمة بروز في بعض حقب تاريخ مصر القديم مثل:

– عمارة المقابر التي بدأت كما يقول المؤرخون منذ سنة ٣٤٠٠ ق.م واستمرت على طول تاريخهم.

– وعمارة مقابر الدولة الوسطى من سنة ٢٤٧٥ ق.م إلى سنة ١٧٨٨ ق.م، وكانت هذه المقابر محفورة في الجبال والصخور.

– وعمارة الدولة المصرية الحديثة من سنة ١٥٨٠ ق.م إلى سنة ١٠٩٠ ق.م، التي تميزت بعمارة المعابد الضخمة المهيبة كمعبد الكرنك وغيره.

● وكان لهندسة العمارة المصرية قصب السبق على كل أنواع العمارة لدى شعوب الأرض، فلم تعرف قبلها عمارة لشعب من الشعوب، وللتدليل على ذلك كما يؤكده المؤرخون:

– أن العمارة الإغريقية عرفت منذ سنة ١٠٠٠ ق.م.

– والعمارة البيزنطية تاريخها سنة ٣٣٠ ق.م.

– والعمارة الرومانية تاريخها سنة ٥٠٠ ق.م.

– والعمارة الهندية سنة ٢٥٠ ق.م.

– والعمارة الصينية سنة ٦١٨ من الميلاد.

– أما العمارة القوطية ففى القرن الثانى عشر الميلادى وإلى عصر النهضة، وإحياء الطراز الرومانى.

– وكذلك شأن العمارة اليابانية، والعمارة النورماندية بإنجلترا وفرنسا من سنة ١٠٦٦ م إلى ١١٥٤م.

● وكل هذه العمارة إنما عبرت بهندستها المعمارية عن الجمال ومدى التمدن والعمران والتحضر الذى كان سائداً فى تلك الأزمنة وهذه الأمكنة.

وسوف نتحدث فى إيجاز عن النقاط التالية:

– العمارة عند المسلمين وخصائصها.

– وتطور العمارة عند المسلمين؛ تأثرها وتأثيرها.

– والعمارة الإسلامية أم العمارة عند المسلمين.

أولاً: العمارة عند المسلمين وخصائصها:

تتمثل العمارة عند المسلمين أوضح ما تكون فى عمارة المساجد، وكانت المساجد الأولى فى تاريخ المسلمين ذات عمارة بسيطة بحيث يبنى المسجد على قطعة أرض مربَّعة تقريبًا، وكان المسجد غالبًا يحاط بسور غير مرتفع.

وبعض المساجد كان يحاط بخندق.

وسقف المسجد يقام على أعمدة من جذوع النخل.

وبعد فترة ليست بالطويلة تاريخيًا أقيم المسجد على أعمدة كما كان شأن مسجدى البصرة والكوفة بالعراق.

تلك كانت بداية عمارة المسجد والجمال فيها كان نتيجة لبساطتها، وبعدها عن الزخارف.

● وعندما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، وامتدتْ لتشمل الشام من الشمال، وبلاد فارس من الشرق، ومصر وبلاد المغرب من الغرب؛ أخذت المساجد تتأثر عمارتها بما كان سائداً

في تلك البلاد من هندسة معمارية.

وقد كان للمساجد في تلك الحقبة طابع عام مشترك بينها جميعًا، خلاصته:

- أن يقام المسجد على قطعة أرض مستطيلة الشكل.
- وأن تكون مبانيه من الحجر المنحوت.
- واتخذ السقف فيه شكل «جمالون».
- وأصبحت المآذن أبراجًا مربعة.

ثم تطورت الهندسة المعمارية للمسجد، فاتخذ تخطيطًا مربعًا، وبنى بالآجُرّ، وأصبح سقفه مسطحًا، وحَلّتْ الأكتاف محل الأعمدة.

وكل هذا التطوير لعمارة المسجد عما كان عليه المسجد في بدايته إنما جاء نتيجة للتأثر بالعمارة في تلك البلاد التي دخلها الإسلام وهي ذات مدنية وطرز معمارية لها طابعها كالشام وفارس ومصر.

- أما العمارة في غير المساجد؛ فقد تأثرت بالطراز الأموي الذي نشأ في دمشق، ثم بالطراز العباسي في العراق، الذي غلبت عليه العمارة الفارسية، ثم بالطراز السلجوقي، ثم بالطراز الفاطمي الذي امتد أثره فشمل مصر وسورية وصقلية بين القرنين السابع والعاشر الهجريين (الثالث عشر والسادس عشر الميلاديين).

ثم تأثرت هندسة العمارة عند المسلمين بالطراز المغولي والطراز الصفوي بين القرنين العاشر والثاني عشر الهجريين (السادس عشر والثامن عشر الميلاديين).

ثم تأثرت الهندسة المعمارية عند المسلمين بالطرز الغربية بعد دخول الغربيين غزاة ومستوطنين ومحتلين لمعظم بلدان العالم الإسلامي ابتداء من القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) وإلى الآن.

- وقد اشتهرت القصور عند المسلمين بهذه الهندسة المعمارية المتأثرة بتلك الطرز، ومن أشهرها:

- قصور دمشق.
- وقصور البصرة والكوفة.

- وقصور القيروان.
- وقصور واسط.

ومن هذه القصور البالغة الشهرة فى عمارتها:

- قصر أبى الخصيب بظاهر الكوفة، وهو يشرف على النجف.
- وقصر السلام من أبنية الرشيد بالرقة بالعراق.
- وقصر قيروان، وهى مدينة أسسها إبراهيم بن الأغلب سنة ١٨٤هـ.
- وقصر عيسى بن على بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهم هو أول قصر بناه الهاشميون ببغداد على نهر الرفيل عند مصب نهر دجلة.

● كما اشتهرت مدن إسلامية بطرزها المعمارية البالغة الجمال ومنها:

- هاشمية الكوفة.
- والمعمورة؛ بناها المنصور العباسى سنة ١٤٠هـ.
- وبغداد، وسامراء فى العراق.
- والعسكر وتنيس والقطائع بمصر.
- والعباسية ورقادة وسوسة ووهران وفاس فى بلاد المغرب.

والذى يلحظ بكل وضوح أن العمارة قد ازدهرت فى عواصم ثلاث: هى بغداد والقاهرة وقرطبة.

وكان ازدهار العمارة فى هذه المدن الثلاث تتضاءل أمامه عمارة العواصم الآسيوية والأوروبية.

وكانت هذه المدن الكبرى؛ بغداد والقاهرة وقرطبة قد نشطت فيها حركة البناء والعمارة، وبنيت حولها الأسوار والحصون، وأقيمت بها المساجد والقصور والدور والأربطة والحمامات، وخزانات المياه، والمدارس، والمستشفيات.

ثانياً: تطور العمارة عند المسلمين؛ تأثرها وتأثيرها:

استطاعت العمارة عند المسلمين - بمرور الوقت - أن تبتكر عناصر معمارية عديدة

مثل: أشكال العقود المتعددة التى كانت من قبل مقصورة على العقد الرومانى نصف الدائرى، فجاءت بعدة عقود هى:

العقد المنفرِج، والعقد المدبَّب، والعقد المطوّل، والعقد المنبعج، والعقد المنبطح، والعقد الثلاثى الفتحات أو الخماسى الفتحات، والعقد المفصص.

كما ابتكرت أشكالاً جديدة من التيجان المختلفة عما كان معروفًا فى العمارات القديمة من حيث الشكل ومن حيث الزخرفة.

كما اتخذت القباب مظاهر جديدة مستمدة من فكرة تجزئة الكتلة إلى خطوط هندسية، فتنوعت أشكالها وأحجامها وتنوعت مقرنصاتها تنوعًا كبيراً.

وفى العصور الإسلامية اللاحقة ابتكرت الصِّبغَ المعشقة، وظهرت أشكال المحاريب فى المساجد واتخذت عنصراً من عناصر الزخرفة.

وانتشرت البوابات البارزة ذات الإطارات المستطيلة وانتصبت المآذن والحضارات المتنوعة ما بين مكعبات وإسطوانيات ومضلعات، وتعددت طوابق المآذن وعلت قوائمها ممشوقة فارعة فى عديد من بلدان العالم الإسلامى، إن لم نقل فى جميع بلدانه.

- وكل هذه الابتكارات تعد من خصائص العمارة عند المسلمين، كما سنوضح بعض أبعادها بعد قليل.

- ومن المؤكد أن العمارة عند المسلمين قد تأثرت بما سبقها وبما اختلطت به، وبما حمله إليهم المسلمون من مختلف بلدان العالم، تأثراً كبيراً، وأنها هضمت هذه الهندسة المعمارية واستوعبتها وأخذت عنها، شأن الهندسة المعمارية عند المسلمين فى ذلك شأن سائر الفنون التعبيرية التى لجأ إليها المسلمون للتعبير عما أحسوا به من جمال، وقد أشرنا إلى هذا التأثر غير مرة فى كتابنا هذا.

- والذى نوجه إليه اهتمامنا هو تأثير العمارة عند المسلمين فى العمارة الأوروبية – بعد أن تأثرت بها –؛ فقد كان اتصال المسلمين بأوروبا ذا معابر عديدة فاعلة، نذكر منها:

– المعاملات التجارية بين المسلمين وكثير من دول أوروبا منذ القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) وقد شملت هذه المعاملات التجارية: التحف المعدنية والصاجية، والخشبية، والأوانى الخزفية والزجاجية، والمخطوطات، وأنواع الأقمشة والسجاد وغير ذلك.

- ومخالطة الأوروبيين الوافدين إلى بيت المقدس يحجون إليه من كل أنحاء أوروبا، مخالطتهم للمسلمين ورؤيتهم للعمارة عندهم وتأثرهم بذلك، بل إعجابهم بها مما جعل بعضهم يحاكيها فى بلاده عندما يرجع كما هو مشاهد حتى اليوم فى بعض الكنائس والقصور، وكثير من البنايات الأخرى.

ومن يرى بوابة الكنيسة فى مدينة «مواست» بشمالى فرنسا يدرك أنها تأثرت ببوابة الفتوح بالقاهرة، وكذلك بوابتا كنيستى «باريه لومينا، وشلوليو» فى وسط فرنسا.

- ورؤية كثير من الأوروبيين لما خلفه المسلمون من عمارة فى الأندلس عمومًا، وفى شمالى غربها على وجه الخصوص، تؤكد أن هذه العمارة قد نقلت أو أثرت بعمق فى العمارة الأوروبية.

- وما رآه الذين شاركوا فى الحروب التى سموها صليبية من أمراء وملوك وقادة وغيرهم ممن كانوا يشاركون فى هذه الحملات الوفًا مؤلفة، وقد استمر وجود الصليبيين فى بعض البلدان العربية وبخاصة الشام والقدس مايقرب من قرنين من الزمان، لابد لمن يرى ذلك أن يجد أثر العمارة فى بلاد المسلمين قد فعل فعله فى العمارة الأوروبية.

- وتبادل الرسائل والسفارات والهدايا بين عدد من حكام البلدان الإسلامية والبلدان الأوروبية، فكل رسالة مع رسول يسمع ويرى، وكل سفارة يقوم فرد أو جماعة ممن يدقق الحكام فى اختيارهم يسمعون أيضًا ويرون.

وهؤلاء وأولئك يرون ما عليه العمارة عند المسلمين من تقدم ورقى، فإذا عادوا إلى بلادهم سارعوا إلى تقليد هذه النظم المعمارية عند المسلمين، مما يرى أثره واضحًا فى كثير من القصور والدور وبعض الكنائس حتى يومنا هذا.

- واتصال الإيطاليين بالمسلمين فى صقلية وغيرها من جزر البحر المتوسط، مما أطلعهم على عمارة المسلمين، فتأثروا بها، ثم أثرت فى عمارتهم ببعض الخصائص التى ميزت العمارة عند المسلمين - كما سنوضح - بعد قليل.

- واتصال المسلمين معماريين وفنيين، وعمالاً بكثير من دول أوروبا، واستقرار بعضهم هناك فى عدد من المدن الأندلسية، حتى بعد أن استولى الإسبان عليها منذ القرن العاشر الهجرى.

وقد أقام المسلمون فى الأندلس ما يقرب من ثمانى مائة عام وتركوا خلفهم من مظاهر التمدن والتحضر شيئًا كثيراً كان من أبرزه وأدومه العمارة.

وبعد استيلاء الإسبان على الأندلس مقاطعة مقاطعة ومدينة مدينة بسبب خلافات المسلمين وتفرق كلمتهم، آثر بعض المسلمين أن يبقى فى مدن عديدة مثل طليطلة، وقرطبة، وإشبيلية، وغرناطة، وغيرها، مع غض النظر عما كان يلاقيه هؤلاء المسلمون من عسف واضطهاد، وإكراه على الدخول فى النصرانية، وهؤلاء الذين عاشوا فى الأندلس من المسلمين كانوا يسمون «المدجَّنين» وكان فيهم فنانون ومبدعون فى عديد من أنواع الفنون.

والأندلس حتى اليوم (مطالع القرن الحادى والعشرين الميلادى) تؤكد لكل من يراها تأثر عمارتها بعمارة المسلمين وما فيها من إبداع.

- كل هذه الأسباب وغيرها أدَّت إلى تأثر العمارة فى أوروبا بالعمارة عند المسلمين، فى كثير من مبانى الكنائس والأديرة، والقصور والدور، و بخاصة فى شمالى إسبانيا فى مقاطعات: «ليون» و«قشتالة» و«قطالونيا» وغيرها.

ومظاهر هذا التأثر بالعمارة عند المسلمين إنما كان بنقل أهم خصائص العمارة عند المسلمين.

وتلك الخصائص من أهمها:

- العقود المنفوخة:

فقد ظهرت هذه العقود أول ما ظهرت فى المسجد الأموى بدمشق، منذ أخريات القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) ثم انتقل هذا العقد المنفوخ إلى كثير من الكنائس فى إسبانيا، وفرنسا، ثم فى كثير من بلاد الغرب.

- والعقود الثلاثية الفتحات:

وقد انتشرت هذه العقود فى كثير من بلدان العالم الإسلامى مع اختلاف هذا العقد عن نظيره الهندى، حيث قام على فكرة هندسية بحتة تقوم على القسمة الحسابية، ثم انتشرت هذه العقود فى بلدان المغرب العربى فالأندلس، ثم انتقلت إلى كثير من بلدان

أوروبا، كما يشاهد حتى اليوم فى «كاتدرائية شفت يافت»، وكنيستى «سانت كروزا كاستتبادا، وسان بيرى كاسيريس، ودير سان باولو دل كامبو» فى برشلونة.

– والعقود المفصَّصة:

أو المفصوصة، وهى عقود قُصِّتْ حوافها الداخلية على هيئة سلسلة من أنصاف دوائر، أو على هيئة عقد من أنصاف فصوص.

ثم اتخذ ذلك العقد عند المسلمين فى عمارتهم فأخذ شكلاً هندسياً بحتًا.

ظهر أولاً فى قصر المشتى فى أوائل القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى).

ثم ظهر هذا العقد فى قصر الحلابات، وحران، وقصر الطوبة، وفى بناء قبة المسجد الجامع بالقيروان، وقصر العاشق بالعراق منذ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى).

ثم انتقل إلى أوروبا هذا العقد المفصَّص، وبخاصة فى الأندلس منذ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وما بعده.

ثم انتقلت هذه العقود المفصصة أو المفصوصة إلى كثير من بلدان أوروبا فيما يسمى عندهم بالعصور الوسطى.

– والعقود المدببة:

وكانت نشأة هذه العقود فى العراق فى قصر الأخيضر فى أخريات القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى).

ثم انتقل هذا الطراز المعمارى إلى سامراء فى العراق فى الجوسق الخاقانى، ثم فى القيروان فى المسجد الجامع، وفى مقياس النيل بالروضة بالقاهرة.

ثم أخذ هذا العقد فى الانتشار، فظهر فى العمارة المسيحية «الرومانتيكية»، ثم شاع استعماله فى أوروبا منذ القرن الثانى عشر الميلادى.

– والعقود المنفرجة:

ويتكون العقد المنفرج من كتفين مستقيمين يجتمعان عند رأسه فى زاوية منفرجة، وله طرفان رأسيان مستقيمان يربطهما بالكتفين انحناء مقوس.

وقد ظهر هذا العقد فى قصر العاشق بالعراق فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى).

ثم عم استعماله فى القاهرة فى مساجد الأزهر والأقمر والجيوشى فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى).

ثم انتقلت هذه الأنواع من العقود إلى الغرب.

وقد تأخذ العقود المنفرجة أشكالها فى زخرفة الأبواب والواجهات والمحاريب، وقد تأخذ أشكالاً متشابكة كما فى المسجد الجامع بقرطبة فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى).

كما ظهرت أنواع هذا العقد المنفرج فى واجهة مسجد طليطلة، ثم فى مآذن مساجد الأندلس عموماً.

- ثم انتقلت هذه العقود إلى إنجلترا، وبخاصة فى كنيسة «درهام» فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى).

وسمى العقد المنفرج فى إنجلترا بالعقد «التيودورى» وعم استخدامه عندهم فى القرن السادس عشر الميلادى ثم انتقلت هذه العقود إلى الغرب.

- كما تأثرت العمارة الأوربية بالعمارة عند المسلمين فى خصائص أخرى للعمارة عند المسلمين مثل:

- القبوات بأنواعها العديدة.
- والقباب.
- والأبراج.
- والشرفات.
- والمساند «الكوابيل».
- والزخارف المعمارية المسطحة أو الغائرة المنحوتة.
- والخط وبخاصة الكوفى منه.

كل ذلك ترك أثراً واضحاً فى العمارة الأوروبية، مما جعل بعض المستشرقين يسجلون ذلك فى كتاباتهم، ولقد استشهدوا على ذلك بانتشار ذلك التأثر بعمارة المسلمين فى أوروبا، مع انتشار التحف التى صنعها المسلمون فى أسواق أوروبا، مما يؤكد براعة الفنانين

المسلمين وتفوقهم، مع اعتراف كثير من المستشرقين لهم بهذه البراعة وهذا التفوق والتأثير العميق.

ثالثًا: العمارة الإسلامية أم العمارة عند المسلمين؟

بعد هذه الجولة الوجيزة عن العمارة عند المسلمين، وبعد تأمل فيما بين يدى، وما وقع عليه نظرى من مراجع ومقالات وأبحاث عن العمارة عند المسلمين، التى يسميها معظم بل كل من كتبوا عنها «العمارة الإسلامية»، بعد ذلك يصح لى أن أطرح سؤالاً هامًا هو: هل العمارة التى برع فيها المسلمون واجتهدوا فيها وأبدع علماؤهم وفنانونهم ومبدعوهم، يقال لها: عمارة إسلامية، أم أن الأصوب والأدق أن يقال لها: العمارة عند المسلمين؟

أرى أن الأصوب والأدق والأقرب إلى الحق أن يقال لها: العمارة عند المسلمين، وذلك لأسباب عديدة من أهمها:

– أن الإسلام لم يأت بطرز معمارية بعينها، ألزم بها المسلمين، كما ألزمهم بأداء الحقوق والقيام بالواجبات مثلاً.

– وأن الإسلام ينظر إلى العمارة والمبانى عمومًا على أنها من الأمور التى تنفع المسلمين وتكنهم وتقيهم الحر والبرد، وتسترهم عن أعين الفضوليين.

– وأنه طالب المسلمين بالبناء البسيط الجميل، ومعنى ذلك أن يكون البناء خاليًا من المبالغة والبذخ، أو المباهاة به حتى لو كان مسجدًا، وأن يكون جميلاً، لأن كل شىء يمارسه المسلم ينبغى أن يكون جميلاً.

– وشجع الإسلام بل طالب كل بانٍ أو معمِّر أن يبنى ما ينتفع هو به، أو ينتفع به مَنْ بعده من الناس.

تلك الحقائق دعمتها السنة النبوية المطهرة فى عدد من الأحاديث الشريفة، منها:

● ما رواه الإمام أحمد بسنده عن سهل بن معاذ عن أبيه رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من بنى بنيانًا من غير ظلم ولا اعتداء، أو غرس غرسًا فى غير ظلم ولا اعتداء كان له أجرٌ جارٍ ما انتفع به من خلق الله تبارك وتعالى»**[1].

● ومما يدخل فى التخطيط للبناء أن تترك حوله طرق واسعة تسمح له بأن يستمتع

---

(١) أى: ما انتفع به أحد من خلق الله تعالى، أو مخلوق من خلق الله تعالى.

بالشمس والهواء والخصوصية، وأن يكون الباني المعمر متسامحًا مع جيرانه، فقد روى أحمد بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا اختلفتم فى الطريق[1] فدعوا سبعة أذرع ثم ابنوا، ومن سأله جاره أن يدعم على حائطه فليدعه»**.

- وأهم المبانى فى الإسلام هى المسجد، ومع ذلك فقد أوصى رسول الله ﷺ فى بناء المساجد بالبساطة والنظافة والجمال، وقدم على ذلك الأنموذج العملى، إذ بنى مسجده باللَّبِن والجريد، وجعل عمده من خشب النخل، فلما كان زمن أبى بكر رضى الله عنه لم يزد فيه شيئًا.

ولما كان زمن عمر رضى الله عنه زاد فيه وبناه على بناء رسول الله ﷺ باللبن والجريد وأعاد عمده.

ولما كان زمن عثمان رضى الله عنه زاد فيه زيادة كبيرة وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقصة، وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه من الساج.

ومع ذلك التجديد فإنه لم يخرج عن حد البساطة والجمال دون زخرفتها أو تشييد، لأن رسول الله ﷺ نهى عن زخرفة المساجد كما أوضحنا ذلك آنفًا.

– وهناك نهى من النبى ﷺ عن تشييد المساجد أو رفع بنائها وتطويلها أو زخرفتها، وهناك نهى عن التباهى أو التكاثر فى بناء المساجد.

- روى أبو دواد بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما أُمرتُ بتشييد المساجد»** قال ابن عباس رضى الله عنهما: لتزخرفنَّها كما زخرفتها اليهود والنصارى.

والمراد بالزخرفة تمويه المسجد بالذهب ونحوه.

- وروى أبو داود بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس فى المساجد»**.

- وروى ابن ماجه بسنده عن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما ساء عمل قوم قط إلا زخرفوا مساجدهم»**.

وقد أمر رسول الله ﷺ باتخاذ المساجد فى الدور وتطييبها وتنظيفها، فقد روى أبو داود

---

(١) أى فى ترك فراغ يستوعبه.

بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: «أمر رسول الله ﷺ ببناء المساجد فى الدور وأن تنظف وتطيَّب».

وروى أبو داود بسنده عن سمرة رضى الله عنه أنه كتب لابنه: أما بعد، فإن رسول الله ﷺ كان يأمرنا بالمساجد أن نصنعها فى ديارنا، ونصلح صنعها ونطيبها.

وروى أبو داود بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«عُرِضتْ عَلَيَّ أجور أمتى حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد..»**.

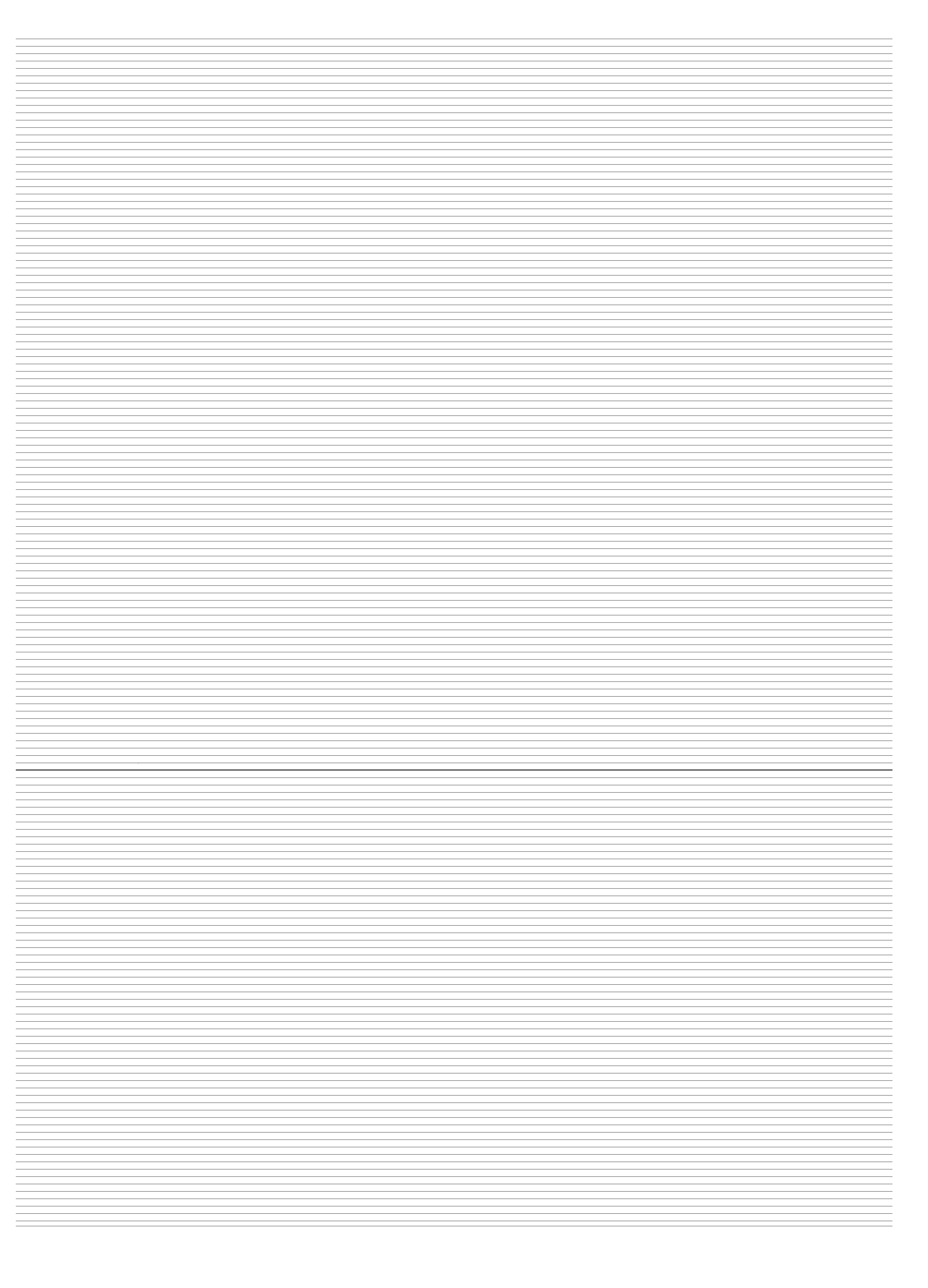
وبعد: فإذا اتخذ المسلمون عمارة فى زمن من الأزمان أو مكان من الأمكنة فالتزموا بما جاء فى السنة النبوية عن البناء فتلك عمارة إسلامية، وإذا لم يلتزموا بذلك فى المساجد أو فى البيوت فهى عمارة بناها المسلمون وهم مسئولون عن كل مخالفة فيها للإسلام أمام الله تعالى.

■■■■

خاتمة الكتاب

أحمد الله تعالى وأشكره على أن أعان فى إتمام هذا الكتاب، وأصلى وأسلم على خاتم رسله محمد ﷺ، وأدعو الله أن يغفر لى ما جاء فى هذا الكتاب من قصور أو تقصير، وأن ينفع به المسلمين، إنه سميع مجيب.

وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.



قائمة بأعمال المؤلف المنشورة

أولاً: في الفكر الإسلامي وقضاياه:

١ – مع العقيدة والحركة والمنهج – دار الوفاء بمصر.

٢ – الغزو الصليبي والعالم الإسلامي – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣ – المسجد وأثره في المجتمع الإسلامي – دار المنار – بالقاهرة.

٤ – الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي – دار المنار – بالقاهرة.

٥ – التراجع الحضاري في العالم الإسلامي وطرق التغلب عليه – دار الوفاء – بمصر.

٦ – التعريف بسنة الرسول ﷺ أو علم الحديث دراية – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٧ – نحو منهج بحوث إسلامي – دار الوفاء – بمصر.

٨ – السلفية ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب – دار عكاظ بالسعودية.

ثانيًا: في التربية:

أ – سلسلة التربية في القرآن الكريم:

٩ – التربية الإسلامية في سورة المائدة – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٠ – التربية الإسلامية في سورة النور – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١١ – التربية الإسلامية في سورة آل عمران – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٢ – التربية الإسلامية في سورة الأنفال – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٣ – التربية الإسلامية في سورة الأحزاب – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٤ – التربية الإسلامية في سورة النساء – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٥ – التربية الإسلامية في سورة التوبة – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

ب – سلسلة مفردات التربية الإسلامية:

١٦ – التربية الروحية – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٧ – التربية الخُلُقية – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٨ – التربية العقلية – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٩ – التربية الدينية (الغائبة) – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٠ – التربية السياسية الإسلامية – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢١ – التربية الاجتماعية الإسلامية – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٢ – التربية الاقتصادية الإسلامية – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٣ – التربية الجهادية الإسلامية – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٤ – التربية الجمالية الإسلامية – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

جـ– فى التربية الإسلامية المعاصرة:

٢٥ – تربية الناشئ المسلم – دار الوفاء – بمصر.

٢٦ – وسائل التربية عند الإخوان المسلمين – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٧ – منهج التربية عند الإخوان المسلمين – دار الوفاء – بمصر.

ثالثًا: فى فقه الدعوة الإسلامية:

٢٨ – فقه الدعوة إلى الله – دار الوفاء – بمصر.

٢٩ – فقه الدعوة الفردية – دار الوفاء – بمصر.

٣٠ – فقه الأخوة فى الإسلام – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣١ – المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله – دار الوفاء – بمصر.

٣٢ – فقه المسئولية – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣٣ – عالمية الدعوة الإسلامية – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣٤ – التوثيق والتضعيف عند المحدثين والدعاة – دار الوفاء – بمصر.

رابعًا: سلسلة فى فقه الإصلاح والتجديد عند الإمام حسن البنا:

٣٥ – ركن الفهم – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣٦ – ركن الإخلاص – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣٧ – ركن العمل أو منهج الإسلام الإصلاحى – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣٨ – ركن الجهاد – الذى لا تحيا الدعوة إلا به – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣٩ – ركن التضحية – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٠ – ركن الطاعة – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤١ – ركن الثبات – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٢ – ركن التجرد – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٣ – ركن الأخوة – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٤ – ركن الثقة – دار التوزيع والنشر الإسلامية.

خامساً: فى الأدب الإسلامى المعاصر:

٤٥ – مصطفى صادق الرافعى، والاتجاهات الإسلامية فى أدبه – دار عكاظ بالسعودية.

٤٦ – جمال الدين الأفغانى، والاتجاهات الإسلامية فى أدبه – دار عكاظ بالسعودية.

سادساً: فى الدراسات الأدبية:

٤٧ – القصة العربية فى العصر الجاهلى – دار المعارف – بمصر.

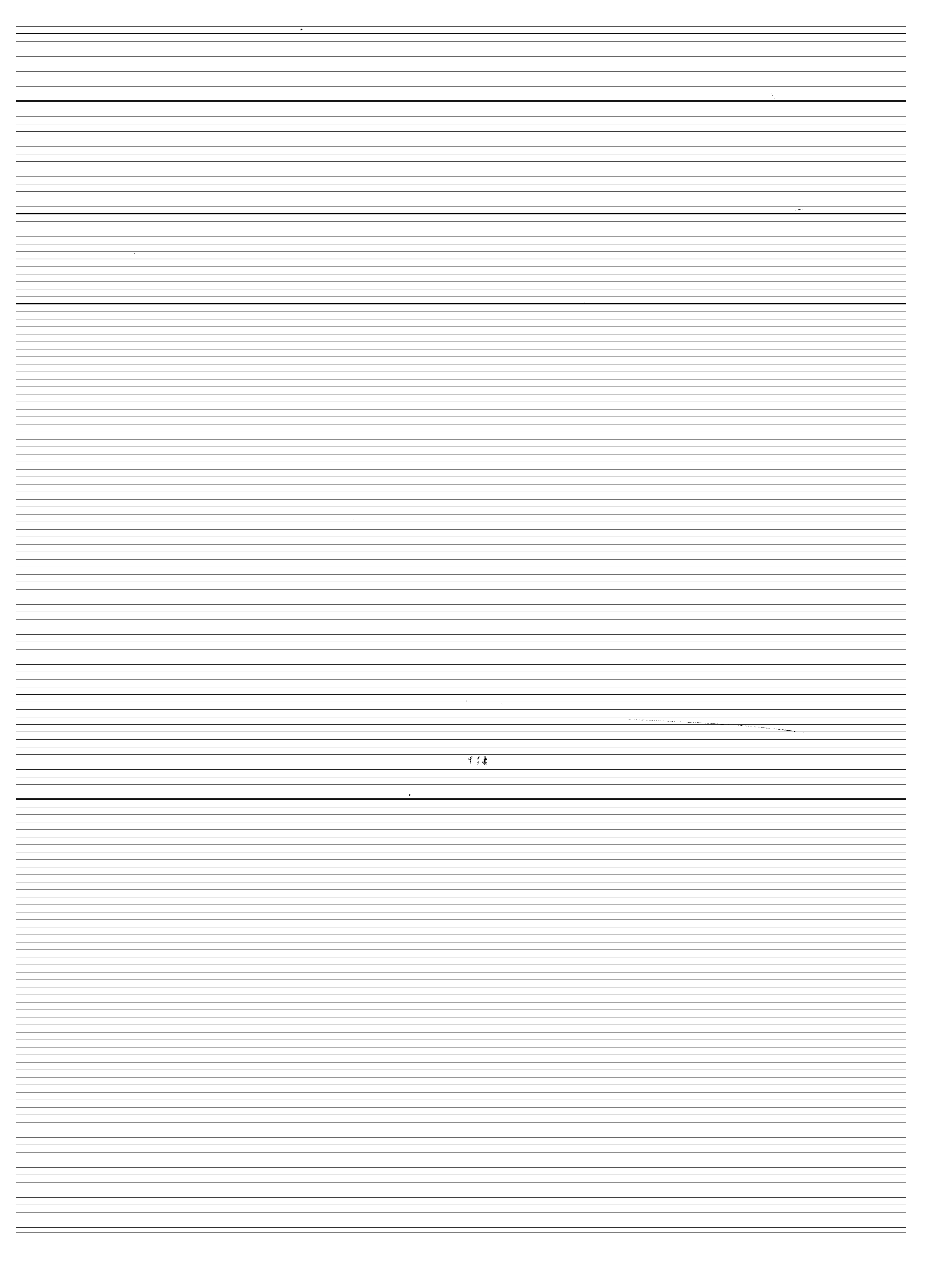
٤٨ – النصوص الأدبية، تحليلها ونقدها – دار عكاظ بالسعودية.

سابعًا: كتب معدة للنشر إذا أذنَ الله تعالى:

١ – الحلقة العاشرة والأخيرة من سلسلة مفردات التربية الإسلامية – التربية الجسدية الإسلامية.

٢ – التربية الإسلامية فى المدرسة.

٣ – التربية الإسلامية فى المجتمع.



فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة

